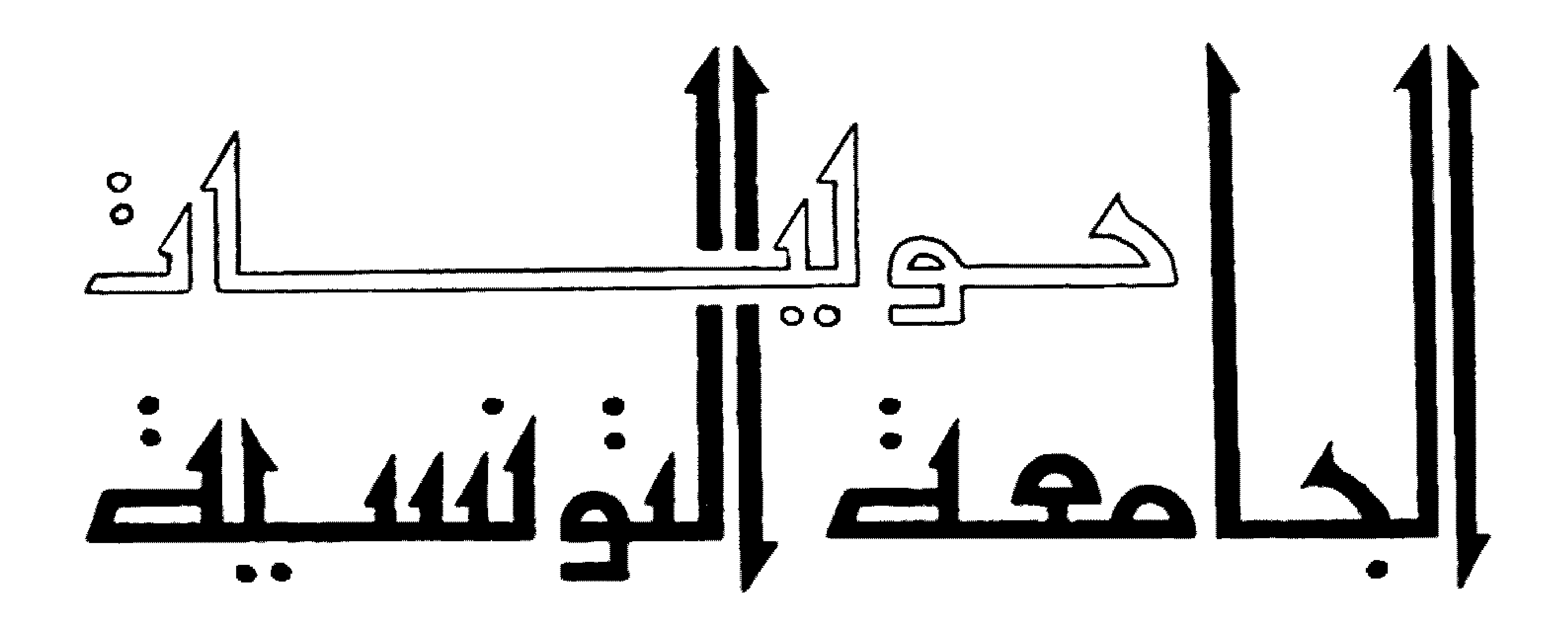
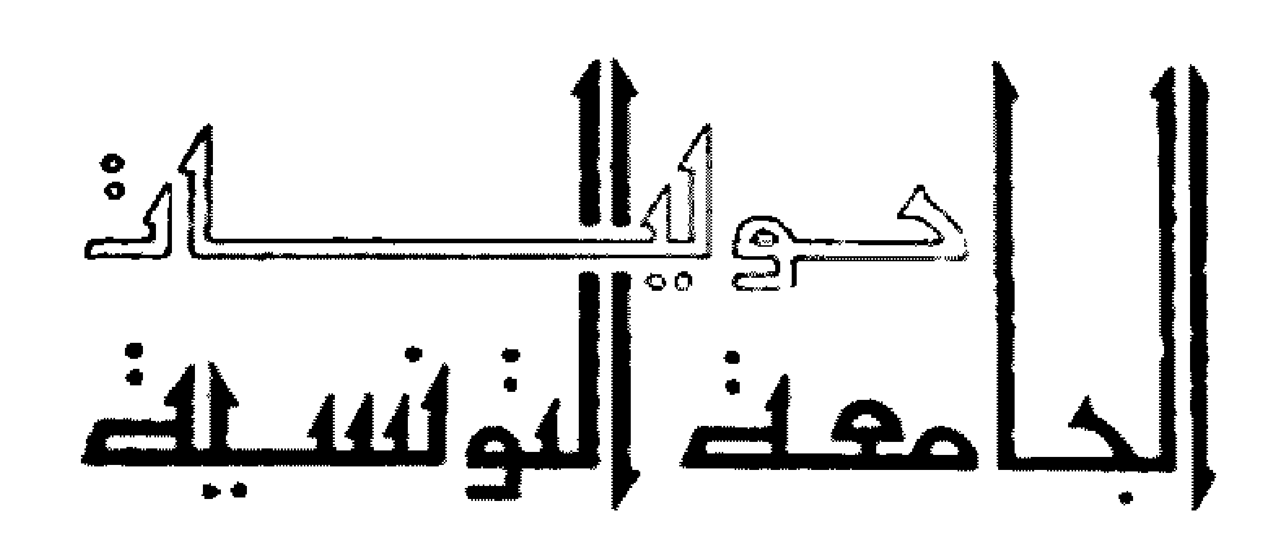


العـــدد الرابـــع

1967

تـــونس



مجلة للبحث العلمى

تصدرها الجامعة التونسية

المــديــر : **احمد عبد السلام ، نائب رئيس الجامعة التونسية .**

- **الاشتراك السنوى :**

500 م او ما يعادلها : بتونس وشمال افريقيا وفرنسا .

600 م او ما يعادلها : بغير البلاد المذكورة .

- **ثمن العدد الواحد :**

500 م او ما يعادلها .

- **الاشتراكات توجه :**

الى الحساب البريدى للجامعة التونسية : **تونس 11 — 610** مع التخصيص « حوليات الجامعة التونسية » .

- **لا تلتزم المجلة بما ينشر فيها من آراء** ، ويتحمل كل كاتب مسؤولية ما ينشره فيها .

- **لا تنشر المجلة لا الفصول التي لم يسبق نشرها،** بقطع النظر عن اللغة والمكان.

- **المراسلات تكون بالعنوان التالى :**

حوليات الجامعة التونسية : الجامعة التونسية ، شارع 9 افريل 1938 — تونس —

- **التوزيع :** مكتبة على بو سلامة — 15 شارع فرنسا تونس — الهاتف 240.056

المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية

الفهرس

الصفحة

تقديم الكتب

اصل الحسبــة بافــريقيــة

تحليل كتاب « احكام السوق »

ليحي بن عمر

بقلم : حسن حسني عبد الوهاب

تمهيـــد :

هذا كتاب من نتاج عالم إفريقي في القرن الثالث، وهو يكوّن حلقة من صور الإنبعاث الإفريقي في خطواته الأولى إثر تأسيس الدولة الأغلبية واستقلالها إداريا عن الخلافة .

وجعل المؤلّف عنوان كتابه « أحكام السوق » ليومىء إلى أنّ تنظيم الأسواق ومراقبة المعاملة فيها والنظر فيما يهمّ السكّان كوحدة إجتماعية متكاملة موضوع قد تبلور في أذهان علماء التشريع وأخذوا في جمع المادة له من غضون الكتب الفقهية وسنوا أحكاما لما تجرّد من الشؤون طبق القواعد التشريعية وهم في ذلك اتبعوا نظاما إداريا استقرّ وجرى به العمل .

فالإتجاه إذن محدد والغاية واضحة . وكلمتا « الحسبة » و « المحتسب » وإن كانتا أخفّ وقعا من كلمتي « أحكام السوق » و « صاحب السوق » لا يحدّدان الموضوع بالضبط ولذلك عدل رجال الحكم في الدولة الأغلبية عن استعمالها .

« فالحسبة » في التشريع الإسلامي تعبير عام يوازي كلمة المصلحة العامة في التشريع العصري . فهي لا تختصّ بموضوع معيّن .

والماوردي مثلا إذ يتحدّث عن الحسبة يدخل في نطاقها كوظيفة شؤون العبادات مثل الطهارة وتأخير الصلاة عن وقتها . ولكن كتاب « أحكام السوق » لا يشمل صنف العبادات . وسنرى من خلاله أنّ موضوعه محدّد بشؤون الأسواق وما يجري فيها . كما سيتضح ممّا نقدّره بعد أنّ الكتاب ألف بعد أن تحدّدت مهمة « صاحب السوق » وشملت زيادة عن مراقبة الأسعار والمعاش فصل القضايا المدنية لحدود مبلغ معيّن . وكان له النظر في قسم من المادة الجناحية مثل الشتم والضرب والجرح الخفيفين .

ثمّ فوق ذلك له النظر في كلّ شأن يهمّ المصلحة العامة بالنسبة لسكّان المدينة ، وإذن فهاته الخطة كانت إدارية قضائية في آن واحد . ولذلك تداول التسمية فيها كلّ من الأمير والقاضي . فسحنون ذو الشخصية القوية وصاحب هذا التنظيم تولى بنفسه تسمية والي المظالم . وكانت له شؤون السوق ثمّ بعده كانت تسمية والي المظالم من القاضي أحيانا ومن الأمير أخرى .

فما كان كتاب « أحكام السوق » أوّل تأليف في موضوعه إلاّ لأن ذلك الموضوع قد شملته عناية خاصة وأبرزته الترتيبات المتعاقبة في إطار حدّد معالمه وخرج به من عموميات الحسبة .

مؤلف الكتاب

هو أبو زكرياء يحيى بن يوسف بن عمر الكناني الأندلسي .

ولد سنة 213 هـ حسبما اتفق عليه مترجموه . ويظهر أنّ تاريخ ولادته أسبق من ذلك اعتمادا على ما نقل عن ظروف صباه ورحلته . فهو من أهل جيّان ونشأ بقرطبة فأخذ عن عبد الملك بن حبيب . ثم ارتحل إلى المشرق مصحوبا

بأخ له أصغر منه . وكان من بين شيوخه بمصر « الدمياطي » المتوفي سنة 226 هـ فيكون سنّه عندما إرتحل لا يعدو الثانية عشر . وسن أخيه مرافقه العاشرة .

وعلى كلّ فقد أخذ بمصر عن عدد من جلة العلماء أصحاب ابن وهب وابن القاسم واشهب منهم ابن بكير وابن رمح وحرملة وابن أبي الغمر وأبو الطاهر ابن السرح . ثم انتقل إلى الحجاز فسمع من الزهري وغيره .

ورجع أدراجه إلى إفريقية ، فاستقرّ بالقيروان بعد أن ملأ وطابه علما . ولعله أراد أن يستكمل ثقافته فسمع بالقيروان من أبي زكرياء يحي بن سليمان الفارسي المختصّ في علم الفرائض والحساب . كما حملته شهرة سحنون وبعد صيته على الأخذ عنه فسعى للقائه وحالما رآه استصغر شأنه . ولما سأله رأى فيه عالما جليلا وقدوة صالحة . ولا شكّ أنّه استحوذ على مشاعره فقد قال يحي بعد ذلك : رأيت في منامي كأنّ سحنون معلّم صبيان بيده درّة فأعطانيها وقال قم على الصبيان فأوّلتها خلافته في تعليم الناس .

وهكذا اندفع يحيى يحقّق ما صوره له حلمه . فأخذ يلقي دروسه بجامع القيروان وكان يميل إلى الأناقة في مظاهره . فيستثير منظرُه رَاكب الحقدَ في نفس « ابن عبدون » حتى ليبدو على صفحات وجهه . واتخذ لنفسه بالجامع كرسيا يجلس عليه عند السماع . وحدب على تلامذته فكان بهم حفيا يحرضهم على طلب العلم . ويشرفهم بالمؤانسة والإكرام .

وفي هاته الفترة من حياته كان النزاع على أشدّه بين فقهاء المالكية وهم الممثلون للمعارضة في الحكم . وبين الحنفية المندفعين لتأييده تأييدا مطلقا . واتخذ النزاع السياسي متنفسا للظهور في الجدل المذهبي أحيانا .

وكان يحيى مالكيا فألف كتابا في الردّ على الشافعي .

كما شنّ حملة على بعض العلماء الذين كانوا يؤمون « مسجد السبت » للذكر والعبادة وينشدون الأشعار بتطريب فرادى وجماعة .

فهم يمثلون لونا من الحياة يميل إلى الزهد والنسك . وينأى جانبا عن الحياة العامة . ولم يكن ذلك ليستثير يحيى لو كان عملا فرديا . أمّا وقد آل إلى فكرة تدعو لنفسها فيكون لها اجتماع دوري . وتحاول المزيد من الإنتشار فتغزو الإحساس والمشاعر بطريقة التطريب والإنشاد فالأمر ذو خطر .

ومن هذا الجانب قاوم يحيى مسجد السبت وقاصديه . وفيهم بعض أصحاب سحنون . واشتدّ في المقاومة فألّف كتابا في الردّ عليهم .

وصمدوا لمقاومته . واستشاروه يوما بقارىء في مسجده يرتّل عمدا آية (وَمَنْ أظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أنْ يُذْكَر فيها اسْمُهُ إلى آخر الآيـة) فاستدرت شؤونه ونجحت هاته الإثارة بجوّها الرائع في اضعاف نفسيته . وايقن أنّه أصبح هدفا لرماة متعدّدين وحزّ في نفسه أن يكون من بينهم بعض إخوانه المالكية . فلازمه الحذر وهذه فقرات أثرت عنه تصور نفسيته في هذا الظرف تصويرا دقيقا .

قال : لا ترغب في مصاحبة الإخوان فكفى بك من ابتليت بمعرفته أن تحترس منه .

وروى عن النبي صلعم حديثا : « خص بالبلاء من عرف النّاس وعاش فيهم من لم يعرفهم » .

وكان يتمثّل بقول بعض الحكماء : « التفاتة خير من دمعة » .

كما يتمثل بقول الشاعر :

اخفض الصوت ان نطقت بليل والتفت بالنهار قبل الكلام

ويشاء ربك أن تصدق مخاوفه ، فيرتقي لخطة القضاء سنة 275 هـ ابن عبدون العراقي المذهب . ويندفع كالموتور يسجن ويقتل . ويكون يحيى بعض غرضه . فيخرج من القيروان خائفا يترقب مارا في طريقه بمنزل عراقي . فإذا هو تنيره شمعة فيخالها بدرا منيرا ولا يريم مكانه حتى يكون الظلام حالكا .

وها هو يتنقل مختفيا ، ورغبة ابن عبدون في القبض عليه تلاحقـه حتى يلوذ برباط سوسة بعد أن مكث مدّة بتونس وما هو إلاّ زمن قصير تتفتح فيه عين الأمير ابراهيم بن أحمد الأغلبي على مظالم قاضيه ، وتهوله كثرة الضحايا فيعزله قائلا : « لو تركته لأحدثت له مقبرة » .

وجريا من هذا الأمير على سنته استدعى بعد ذلك موتورا ليستقضيه وكأنه يستعديه فما كان من يحيـى إلاّ أن رفض ، وأشار عليه بعيسى بن مسكين الزاهد والقابع في قريته بالساحل متغافلا عن كلّ معارفه وأقرانه بالقيروان . وإذ يتنصل من القضاء يعود إلى سوسة ويتّخذهـا مستقرا ومقاما . ويعاوده هدوء نفسه فيلقي دروسه بجامعها . وتلازمه جاذبيته فيمتلىء لسماعه المسجد وما حوله. ولعل كتابه هذا دون عنه بعد أن تجاوبت بفقراته عرصات المسجد .

هاته صورة كاملة متماسكة لحياة يحيى بن عمر . فيها الشدّة والرخاء والخوف والأمن والرفاهية والشغف . فلا بـدْع أن تؤثر على أعصابه فيذهل آخر عمره . وكانت وفاته سنة 289 هـ .

القصري الـراوي

هو أبو جعفر أحمد بن عبد الرحمان بن سعيد القصري ، والنسبة إلى قصر مواليه بني الأغلب المعروف (بالقصر القديم) تتلمذ على اسحاق بن عبدوس وروى عن يحيى بن عمر وعبد الجبار السرتي وعبد الله بن أبـي طالب وغيرهم.

ويبدو أنّ القصري بحكم انتمائه لبيت الإمارة مال في دراسته إلى الإلمام بعلوم شتى ومعارف متنوّعة تجعل منه شخصا اجتماعيا لا عالما بحاثة . فقد سمع من كل من عنده علم وكان جماعا كثير الكتب (1) . فهو كما قـال

(1) المعالم ج 3 ص 9 .

الخليل بن أحمد : إذا أردت أن تتعلم العلم لنفسك فاجمع من كلّ شيء شيئا . وإذا أردت أن تكون رأسا في العلم فعليك بطريق واحدة .

كانت الرواية وتدوين الكتب سبيله للمعرفة ثم اصبحت هوايته المحبّبة إلى نفسه ؛ ينفق في سبيلها المال ما وجد إليه سبيلا .

ففي ذات مرة كان في زيارة ليحيى بن عمر بسوسة فوجده ألف كتابا . واد لم يكن معه مال باع بعض ثيابه واشترى بثمنها رفوفا نقل فيها الكتاب وقابله وأتى به إلى القيروان (2) .

وعرف القصري بثقته وضبطه فكانت تدويناته مرجعا لعلماء عصره ينقلون منها السماع الذي يهمهم (3) وكانت وفاته في سنة 321 هـ .

تلك هي ترجمة القصري الذي روى كتاب يحيى بن عمر هذا وهي باعثة على أقوى الثقة والاطمئنان لما روى .

الكتـــــاب

جاء في طالعته (حدّثنا أحمد بن محمد بن عبد الرحمان قال : سمعت يحيى بن عمر يقول الخ) .

إذن فهذا الكتاب الذي بين أيدينا مسجل بالرواية عن القصري . فهو بعد أن رواه عن يحيى القاه بدوره على مستمعين وروي عنه وهو يشتمل على مقدّمة **فيما يجب على الوالي من تفقّد أحوال السوق والحرص على مراقبة الموازين والمكائيل والكشف عن أحوال النقد المتداول .**

(2) الخشني .
(3) المعالم ج 3 ص 10 .

ثم يتلو المقدّمة نقل خلاصة من مكاتبة وجهت ليحيى بن عمر يستفتونه فيها عن أمرين — 1 — الحكم الشرعي في اختلاف وحدة الكيل والوزن بين التجار في بلد واحد — 2 — الحكم الشرعي في التسعير وقد استبان لهم تضرر المستهلك بحرية الأسعار .

وبعد إيراد السؤال أشفع بنقل الجواب .

ثم تأتي بعد ذلك أبواب الكتاب .

والذي يفهم من تتويج التأليف بنصّ السؤال أنه هو الحجر الأساسي لوضعه والحافز على إفراد « احكام السوق » بدراسة خاصة تمتاز عن عموم الفقه الإسلامي وتستمد منه أصولها .

وقد ألقى يحيى كتابه هذا في دروس .

يدلنا على ذلك تعدّد الأسئلة من المستمعين تلامذة وغيرهم . وقد كانت رواية الكتاب على هذا المنهج ممّا ضخّم من حجمه وعدّد من أبوابه إذ أمدته بمواضيع جديدة ومسائل فرعية نشأت عند الرواية بتلك الأسئلة الموجهة والتي كان غالبها من القصري . فقد بلغ مجموع ما أثاره وحده من مواضيع ترتبط بالسوق سبعة عشر موضوعا . وهي مع أجوبتها تكاد تربو عن نصف كتاب .

وبذلك انقلب المنهج عند الرواية . وصار يعتمد على الحوار في أغلب مواضيعه . وقد التزم القصري في روايته دقّة السند . حتى إنّه لينسب كلّ فقرة لصاحبها فأمكن بذلك للمطالع ان يلمس جهد القصري في غزارة المادّة المروية وتنوّعها . ومع ذلك فهو يحاول ويقارن بين النصوص (4) .

---

(4) ص 26 .

سند الرواية

يستعمل القصري في روايته صيغا متعدّدة :

أخبرنا يحيى بن عمر . أخبرني . قال لي . قال يحيى .

ودلّ ذلك على أن رواية القصري للكتاب لم تكن إجازة فقط . وإنّما هي بالسماع والمشافهة . كما يستعمل في مراجعات المستمعين التعابير الآتية :

سألت يحيى بن عمر . قلت ليحيى . سألنا يحيى ، سئل يحيى وأنا أسمع . قيل ليحيى . كتب إلى يحيى .

كلّ هاته الصيغ حملتنا على القول بأنّ الكتاب عندما روي كان يلقى بشكل دروس .

ولقد درج الراوي في كل الكتاب على ربط الفقرات بسندها .

فكشف بذلك عن أطوار النشوء لهذا الكتاب ، وأتاح لنا تمييز الفقرات التي لم تكن من أجل الكتاب بل كانت من جمع الراوي أضافها له عند روايته عليه . وهي :

1 — الفقرات من ص 43 وتشمل بابا بأكمله يتعلّق ببيع ازيار الصير فسندها لا يتصل بيحيى وإنّما رواه القصري عن سعيد بن اسحاق .

2 — الفقرة من ص 13 وطالعها سأل « صاحب السوق » حماس بن مروان الخ... وحماس إنما ولي القضاء بعد وفاة يحيى .

3 — الفقرتان من ص 50 والنقل فيها عن محمد بن سعيد وعن حماس ابن مروان وهما لا ترتبطان بالموضوع السابق أو اللاحق . وربّما دوّنهما القصري على هامش الرواية فاشتبهتا على الناسخ وأضافهما لصلب الكتاب .

ويؤكّد ذلك أن ثانيتهما كان الراوي ضَمَّها للباب الذي يناسبها من صلب الكتاب . فقرة ص 23 .

4 — ص 56 وهي تشمل بابا كاملا : في المحلّ المعروف بالأذى والفجور ، والسند فيه يتصل بغير يحيى .

روايتان للكتاب

لقد رأينا أنّ منهج الكتاب فرض علينا أن نعتبره ألقي في سلسلة دروس كان يحضرها أشخاص متعدّدون روى بعضهم فيها الكتاب . وقد بلغتنا منه روايتان :

رواية القصري ورواية ابن شبل .

أما الأولى فلا توجد منها إلاّ النسخة التي بأيدينا فيما نعلم . وتاريخ نسخها يرجع لسنة 1294 هـ وهي بخط مغربي واضح . وعناوينها بالقلم الأحمر . وتقع في 57 ص طول 23 في عرض 17 وبالصحيفة 18 سطرا غالبا . وناسخها ذكر اسمه .

وأمّا الرواية الثانية ، فقد نقلها الونشريسي في كتابه « المعيار » كما أنّ لدينا منها نسختين ناقصتين ، ويمكن منهما معا تكوين نسخة كاملة . وبمقابلتها مع ما بكتاب الونشريسي كانتا متطابقتين إلاّ في بعض جزئيات لا تؤثر .

وقد نشرها الأستاذ محمود علي مكي بصحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد . وأهدانا منها فصلة . فله الشكر على هديته . وكلّ الثناء على ما قام به من مجهود علمي .

وابن شبل هذا هو محمد بن شبل بن بكر القيسي التطيلي (Tudèle) سمع من يحيى بن عمر ويحيى بن عون . وأبي الغصن الغرابيلي . وأبي زيدان

بن اسماعيل . والأخيران من علماء سوسة ومستوطنيها . فابن الشبل قد انتقل بين القيروان وسوسة .

ويحدّد ابن الفرضي (5) رحلته بسنة 292 هـ وهو محض غلط إذ ان يحيى بن عمر توفي سنة 289 . وأبا القاسم زيدان توفي سنة 298 وكلاهما روى عنه .

وأشاد أبو العرب في طبقاته (ص 104) بابن الشبل هذا ونقل عنه ما حدث به عن يحيى بن عون . وعن أبي سهل بن محمد ، وتوفي سنة 353

فهو قد روى عن يحيى بن عمر كتاب « أحكام السوق » أيضا . ونص في طالع روايته على انّها مختصرة من الكتاب ، فهل روايته له إجازة أم بطريق السماع مثل رواية يحيى ؟ لا يسعنا إلاّ أن نرجّح الثاني ، اعتمادا على أنّ ابن شبل يسند في روايته ثلاثة أسئلة وجهها هو والقصري في روايته ينسب منهما سؤالين لنفسه . فلو كانت رواية ابن شبل اجازة لما أمكن له توجيه السؤالين اصلا لوجودهما في الكتاب . فيتعيّن أن تكون روايته بطريق السماع أيضا ، وفي وقت متحد مع القصري . أمّا تنازعهما السند في هذين السؤالين فيحمل على توارد الخواطر واشتراكهما معا في القاء السؤال .

فلنقارن إذن بين الروايتين .

تمتاز رواية القصري بضبط السند والنقد في نقل الأسئلة وأجوبتها كاملة ، حتى أن المكاتبات ينقل ما جاء بها حرفيا . وهكذا يكاد يكون القصري قد نقل كلّ ما ألقاه يحيى في دروسه من بيان للقضايا والأحكام المطبقة عليها ومستنداته فيها .

---

(5) ج 2 ص 67 .

كما أنّه يسند لنفسه الأسئلة الموجهة منه وهي جلّها ويعين صاحبها إن كان من غير التلامذة كصاحب « سوق سوسة » وباقي الاسئلة وهو الأقل مسند بصيغة المجهول .

أما ابن شبل فباستثناء أسئلته الثلاثة المسندة لشخصه وسؤال رابع أسند لصاحب « سوق سوسة » كسند القصري ، كانت بقية الأسئلة مسندة بصيغة المجهول ، ومال بالرواية لجمع الأحكام وبعض مستنداتها ، فهو يوجز الموضوع من غير إخلال بالغرض .

وتتفق الروايتان في فقه المسائل اتفاقا تاما إلاّ في مسألة واحدة .

كما تكاد تكون التعابير الموجودة فيهما واحدة ممّا يبعث الثقة والاطمئنان لصحة النسخة التي بأيدينا من رواية القصري . رغم أنّها الوحيدة .

وتختلف الروايتان من حيث التبويب بالتقديم والتأخير ، كما تختلفان بالزيادة والنقص في مسائل توجد بإحداهما ولا توجد بالأخرى .

فتمتاز رواية ابن شبل بالزيادات الآتية :

الفقرة 5 أجرة صاحب الرحى بكيل معلوم .

الفقرة 6 لا يلتزم صاحب الرحى بالترتيب مع حرفائه ، وعدم ضمانه لما فسد من الطعام ببطلانها .

الفقرة 12 القثاء يوجد مرا .

الفقرة 23 ردّ البيض الفاسد .

الفقرة 38 المسؤولية المدنية لمن يحفر حفيرا حول أرضه أو داره .

واتماما للفائدة الحقنا هاته الفصول من رواية ابن شبل برواية القصري .

وادرجناها منفردة .

كما تمتاز رواية القصري بالمواضيع الآتية :

ص 33 اليهود والنصارى يعجنون خبز السوق .

ص 43 بيع أزيار الصير .

ص 50 سؤال صاحب السوق لحماس بن مروان .

ص 55 توجيه اليمين في الضرب والجرح عند انعدام البينة .

ص 56 الشتم والأدب فيه .

ص 56 الدار المعروفة بالأذى .

زمن الرواية ومكانها

من المرجّح لدينا أنّ رواية القصري لهذا الكتاب كانت بسوسة في الربع الأخير من القرن الثالث استنادا للاعتبارات التالية .

1 ــ ورد في نص الرواية أنّ صاحب سوق سوسة سأل يحيى بمحضر الراوي .

2 ــ تنصيص يحيى في صلب كتابه على أجوبة أجاب بها ابن أبي طالب بعض قضاته ؛ وعهد ولايته القضاء يتراوح بين سنتي 257 و 275 .

3 ــ ورد في الكتاب أنّ صاحب سوق القيروان كتب إلى يحيى يسأله.

4 ــ ورد في الديباج أن يحيى بن عمر كان يسمع النّاس بسوسة فيمتلىء المسجد وما حوله .

5 ــ ما ورد في معالم الإيمان (6) من أنّ القصري وصل إلى سوسة لزيارة يحيى بن عمر فوجده ألّف كتابا .

(6) ج 3 ص 95 .

على أنّ مكاتبة صاحب السوق بالقيروان ليحيى بن عمر يستفتيه في حادثة جدت بالسوق تعيّن لنا الفترة المتمثلة لذلك وانّها في العهد الذي يأتي بعد ولايتي ابن أبي طالب وابن عبدون اذ لنهاية عهد الأول كان يحيى مستوطنا بالقيروان ثم كان مختفيا في عهد الثاني .

وموضوع الإستفتاء أيضا يؤكد ذلك ، فهو في قضية كان لابن أبي طالب فيها تشديد على المخالفين وتقص لآثرهم وتلك هي : « ارتداء الذمي للزي المغاير » .

جمع الكتاب وتنسيق مواده

لقد ذكرنا أنّ هذا الكتاب أول تأليف ظهر في العالم الإسلامي يبحث في شؤون الأسواق وينزل الأحكام الفقهية عليها فيما صيرها مادة متميّزة عن عموم الفقه .

ولا شك أنّ رائد المؤلف في جمع المادة لكتابه أن تكون مما يدخل تحت عنوانه ، لا كنّ مطالع الكتاب يستوقف نظره احتواؤه على بعض مواد لا يظهر أنّ لها صلة بالعنوان ، مثل باب جهاز المرأة ، وتوجيه اليمين في دعوى الضرب والجرح ، وديار الأذى والفجور .

والجواب على ذلك يستدعينا أن نتحدّث عن الأسواق ، وخطة « صاحب السوق » وهل هو المحتسب أو غيره ؟

نظمت أسواق القيروان وأفرد لكلّ صناعة مكان خاص بها في سنة 155هـ باعتناء من يزيد بن حاتم المهلّبي والي افريقية من قبل أبي جعفر المنصور وكانت السوق لنظر الوالي (7) ينظر فيها بنفسه مباشرة أو ينيب عنه شخصا .

---

(7) ابن عذاري ج 1 ص 3 .

وكذلك كان الأمر في الحجاز فقد كان عمر بن الخطّاب (8) وهو خليفة يأمر وينهي مباشرة المتعاملين بالسوق .

وبعد ذلك التاريخ نقل عن مالك أنّه كان يأمر صاحب السوق فيما يتعلّق بشؤون المعاملات الجارية به

ولما ولي سحنون قضاء القيروان (234 هـ) كان له من قوة شخصيته ومركزه الإجتماعي أقوى حافز على التوسّع في وظيفة القضاء ، فقد باشر بنفسه التأديب والتعزير وراقب تنفيذ الأحكام الزجرية الصادرة منه ، وهي أمور اعتبرها المتأخرون عن عصره مما تترفّع عنه مهنة القضاء . ولا تساعد عليها حرمته وهيبته .

فسحنون لم يسعه في دينه الا أن يُحمِّل نفسه أعباء الحسبة .

وهي تتّسع في معناها الديني حتى تشمل كلّ الشؤون العامة والخاصة ؛ وكلّ الشعب أفرادا وحكومة .

وهكذا حال سحنون بين قائد جيش مظفر في اخماد ثورة القُوبَع بتونس المنتهية سنة 236 هـ وبين سبيه من نساء تونس المسلمات .

فرغم الحاح الأمير عليه بتسليم السبي لصاحبه أصرّ على رأيه أو تنزع منه خطة القضاء وما وسع الأمير إلاّ أن نزل على رأي سحنون وطلب منه توجيه من يرى فيه الكفاءة للقيام بوظيفة الحسبة في استرجاع المسبيات وتسلمهنّ من يد بقية أفراد الجيش فوجه له سحنون أنفارا ليكتب لهم السجلات . ولما عادوا بها إليه فضها وبعد أن قرأها سلمها لهم مشفعة بالأذون والتعليمات .

والذي نستخلصه من هذا النصّ أنّ سحنون يفهم الحسبة بمعناها الأعم . ويرى أنّ المحتسب هو من له القدرة على الوقوف في وجه السلطة متى حادت عن الجادة ، وليس هو من ينظر في شؤون الأسواق .

(8) المالكي ص 276 .

وقد كان سحنون قاضيا محتسبا . فباشر بنفسه كتيرا من شؤونها . ومنها ما يهمّ الأسواق فأدّب على الغش ونفى مرتكبيه . ونظر في شؤون المعاش ، وأمر بقتل الكلاب وكان من تنظيماته أن عيّن أمناء في البادية يكتب إليهم فيما يتعلّق بشؤون جهاتهم .

وأما في العاصمة فقد أحدث ولاية المظالم . وعين لها حبيب بن نصر التميمي أوّل صاحب مظالم وذلك سنة 236 هـ وحدّد له وظيفه بالحكم (9) بين الناس فيما يحدث لهم في الأسواق وجعل له النظر مدنيا لمبلغ عشرين دينارا . فصاحب السوق إذن هو والي المظالم في هذا التنظيم . ولما ولي (10) عيسى بن مسكين القضاء عين أبا الربيع سليمان بن سالم الكندي واليا على المظالم ، وأذن له أن ينظر في 100 دينار .

فولاية المظالم هاته أحدثها سحنون ورأى أنّ أمر التسمية فيها راجع للقاضي المحتسب ، كما رأى ذلك في تعيين أيمة المساجد .

ولنلاحظ أنّ السنة التي أحدثت فيها ولاية المظالم هي السنة التي عين فيها المحتسبون المشار لهم سابقا . وبعد سحنون تجاذب تسمية والي المظالم كلّ من الأمير والقاضي .

فقد تخلّل عهدي سحنون وابن مسكين عهد رجعت فيه ولاية المظالم بالنظر للأمير (11) « فقد عيّن الأمير ابراهيم بن أحمد الأغلبي محمد بن محمد ابن خالد القيسي المعروف بالطرزي واليا للمظالم . وراجعه صاحب الخطة بأن فيه حياء ولين جانب وقلة فقه . فأجابه أمّا الحياء واللين فإذا أمرت ونهيت زالا عنك . وأمّا قلّة الفقه فشاور الفقهاء في أحكامك » . وفعلا ، فقد استشار

---

(9) المعالم ج 2 ص 132 .

(10) المصدر نفسه ص 137 .

(11) ابن عذاري ج 1 ص 275 .

في قضية حمديس القطان وكان ذلك بمحضر القصري فأشار لها في باب الأذى والفجور من هذا الكتاب .

مما تقدم يظهر أن سحنون هو أول من فكر جديا في العناية بالأسواق فجعل لها قاضيا خاصا بشؤونها وبما يحدث فيها وحدد نظره مدنيا بما لا يتجاوز المبالغ التي يتعامل بها الأفراد عادة في الأسواق . وإذ هي تتبع الحالة الإجتماعية للسكّان اختلفت تلك المقادير المحدّد بها النظر عند القضاة . فسحنون قد مهّد بذلك السبيل لتتابع الأنظمة بما يفيد المجموعة المتساكنة من حيث أنّها مجتمع ووحدة متكاملة وأتى بعده عبد الله بن أبي طالب فسار على نهجه . ومن تنظيماته انه جبر من يحترف الصيرفة على دراسة الأحكام المتعلقة بحرفتهم (12) .

والذي يتضح الآن أنه سبق تدوين الكتاب جو أحدثه سحنون بعنايته بالأسواق ، وتخصيصها بوظيفة داخلة في الجهاز الحكومي تابعة للسلطة القضائية . واطلق عليها اسما فخما هو « ولاية المظالم » . وسمى بنفسه صاحبها.

وإذا كان « صاحب السوق » هو « والي المظالم » كان كتاب « أحكام السوق » المؤلف بعد هذا التاريخ مشتملا على موضوعات خارجة عن نطاق شؤون الأسواق كما نتصوّرها الآن ولاكنها مندرجة في نظر « ولاية المظالم ».

وكما احدث سحنون ولاية المظالم سمى الأمناء في البوادي وإلى الآن يطلق على صاحب السوق فيها « أمين المعاش » .

فبعث بهاته التسمية حركة ذهنية بين سكّان البوادي اتجه بها شعورهم نحو هذا التنظيم الجديد ، وأخذوا يحاولون إصلاح باديتهم والتدرّج بها نحو الأساليب والتنظيمات الحضرية الموجودة في المدن .

---

(12) المصدر نفسه ص 137 .

وكانت بعد حين قصير تلك المكاتبة الموجهة ليحيى الموشح بها صدر الكتاب ، والتي كانت حسب تقديرنا الحجر الأساسي لوضعه وأخيرا فقد نكون على حق حين نقول انّ الذي جلب الإهتمام لأفراد هاته المادة بالتأليف مزيج من أمرين : 1 — تنظيمات القاضيين سحنون وابن أبي طالب . 2 — الشعور العام لدى المتساكنين بالرغبة في الاصلاح المجتمعي وتوليه بأنفسهم أن أغفله أولوا الامر (13) .

وكانت القضايا والشؤون التي يتعاطاها والي المظالم هي الفهرست لهذا الفن الجديد ، ومدار تحديد مشمولاته . ولذلك نرى يحيى بن عمر لم يدمج في موضوعاته باب ديار الأذى والفجور لأنّها أشياء لم تظهر في المجتمع السوسي إذاك لما كان يطغى على مساكنيه من روح الحمية الدينية باعتباره رباطا يأوى إليه متطوعة الدفاع عن الشواطي فكان يسود البلد روح عالية من الخلق الإسلامي تمنع من ظهور الفساد والملاهي . وقد حدث أن تجمهر المرابطون يوما وقصدوا منتزه الأمير حينما طرقت آذانهم أصوات الغناء منبعثة منه تساوقها ءالات الطرب ، وبلغوا له تحرجهم من مجلسه هذا وعزمهم على مغادرة الرباط .

أما القصري صاحب الرواية فقد عنون هذا الباب وأضافه لكتاب « أحكام السوق » بعد أن جمع مادته إذ رأى تعاطي والي المظالم لقضاياه المتعدّدة في القيروان وقد كانت عاصمة الملك .

(13) المكتوب المشار له .

وثائق عن الهجرة الاندلسية الاخيرة الى تونس (1)

بقلم : عبد المجيد التركي

1) **الأنوار النبوية في آباء خير البرية** لمحمد بن عبد الرفيع بن محمد الشريف الحسيني الجعفري المرسي الأندلسي (**الخاتمة فقط مع المقدمة**) .

(مخطوطة المكتبة العاشورية بتونس المرسى ، لم تنشر) .

2) **كتاب العزّ والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع** لإبراهيم أحمد ابن غانم بن محمد بن زكرياء الأندلسي الشهير بالعجم بالمرباش . (**المقدمة فقط**) .

(مخطوطة المكتبة القومية بتونس برقم 1407 . لم تنشر) .

3) **نور الأرماش في مناقب سيدي أبي الغيث القشاش** للمنتصر بن المرابط أبي لحية القفصي (جزء من **المقدمة فقط**) .

(مخطوطة المكتبة الأحمدية بتونس برقم 3883) .

نشر الجزء سنة 1930 الشيخ الأستاذ محمد الطاهر بن عاشور **بنشرة الجمعية الخلدونية** (تونس) في مقال بعنوان : **مصير الأندلسيين** ؛ ص 16 الى 26 وأعاد نشره محمد الحبيب في مقال : **الجلاء الأخير** ، نشره بمجلة **الثريا** (بتونس) بالعدد الثاني من السنة الأولى : محرم 1360/ جانفي 1944 . ص 10 إلى 13 .

(1) ليس هدفنا إلا تقديم هذه الوثائق مع التعليق ، إن كانت عربية ، والتعريب إن كانت اسبانية ؛ وقد اعتمدنا هذه الوثائق وغيرها لبحث ، نحن بصدد إعداده ؛ وسوف ينشر عما قريب إن شاء الله !

4) **المؤنس في أخبار إفريقية وتونس** لابن أبي دينار . ط. تونس 1331/1350 ص 183 .

5) **الحلل السندسية في الأخبار التونسية** للوزير السرّاج . الجزء الثاني والثالث من مخطوطة المكتبة القومية بتونس رقم 001 ورقة 23 ظهرا .

6) **بلاغ عمومي حول إجلاء المورسكيين عن مملكة بلنسية** نشره بمدينة بلنسية ومملكتها في 22 سبتمبر من سنة 1609 دون لويس كاريو دي طليطلة مركيز دي كرثينا... بإذن من الملك فيليب الثالث .

Bando de la Expulsion des los Moriscos del Reino de Valencia publicado en la ciudad y reino de Valencia el dia 22 de Septiembre del aîno 1609.

por

Don Luis Carillo de Toledo, Marqués de Caracena (Virrey, Lugarteniente y Capitan Général de la Ciudad del Reino de Valencia de orden de Su Majestad el Rey de Espana, Don Felipe III de Austria.

نشر بكتاب دياث بلاخة فرناندو (مجموعة : تاريخ إسبانيا من خلال وثائقها . نشر معهد الدراسات السياسية بمدريد .

(القرن السابع عشر) 1957 ص : 21 إلى 24 .

« El Siglo XVII » de Diaz-Plaja Fernando (Colleccion : « *La Historia de Espana en sus documentos* » editada por el Instituto de Extudios Politicos de Madrid. 1957. pp. 21 — 24.

7) **صدى تأثير الهجرة الأندلسية في الأوساط الإسبانية الشعبية** (أغنية اسبانية شعبية) ألفت قبل نشر البلاغ العمومي .

نشرت بنفس المصدر . ص 25 و 26 .

La Réaccion popular. ante el Bando de expulsion de los Moriscos del Reino de Valencia en 1609.
(*Idem* pp. 25 — 26).

والوثيقتان عدد 6 و 7 هما من مجموعة الوثائق غير المنشورة التابعة لأرشيف مملكة أرغوان وقد قدمهما الناشر الإسباني بدون أي تعليق أو تقديم .

[ص 1] — الأنوار النبوية في آباء خير البرية —

لمحمد بن عبد الرفيع
ابن محمد الشريف الحسيني الجعفري المرسي الأندلسي (1)

بسم الله الرحمان الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما .

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على أفضل الأولين والآخرين ، محمد روح الوجود والسبب في كلّ موجود ، الأوّل في الخلق والآخر في البعث بالحق ، وعلى آله وأصحابه وأهل بيته الطيّبين الطاهرين وعترته ، وسلّم تسليما كثيرا إلى يوم الدين .

وبعد ، فيقول العبد الى الله ، الغنيّ به عمّن (2) سواه : محمد بن عبد الرّفيع بن محمد الشريف الحسيني الجعفري المرسي الأندلسي ، تاب الله عليه وغفر له ولوالديه ومشايخه وأحبابه لديه ! آمين ! : قد سألني أخي في الله الشريف علي النوالي المدعو بالسرّاج — حقّقني الله وإياه بحقيقة الإيمان وأبان لي وله معالم التبيان ! — أن أجمع له ورقات في ذكر نسب سيد أهل الأرض والسماوات ، وأذكر فيها شيئا ممّا يتعلّق بتعريف رجال هذا النسب الشريف أصحاب الإصطفاء والقدر المنيف ، ليوافق ما هو موضوع عنده في الشجرة

---

(1) يسعدنا أن نعبر عن عميق شعور الإمتنان للسيد العميد الشيخ محمد الفاضل بن عاشور ، عميد الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين ، اذ تفضل فسمح لنا بنشر الجزء المتعلق بالهجرة الأندلسية الأخيرة الى تونس من هذا المخطوط ؛ ويجد القارىء أثناء النص ما يفيد عن المؤلف والكتاب والنسخة .

(2) في الأصل : عن من .

الشريفة التي بيده ، منسوخة بخطّـي من نسختي الأصلية ، ويكون ضبطا أيضا للشجرتين الشريفتين المتصلتين بها . شجرتـي الإمامين الفاضلين الجليليـن ، أميرَيِ المؤمنين ، مولانا أبـي محمد الحسن ، ومولانا أبـي عبد الله الحسين ، رضـي الله – تعالى ! – عنهما وعن والديهما ! آمين ! . فأجبت سؤاله ، بعد الإستخارة ، وسميته تبركا ، كما سمّاه ما كتب لي وحدّثني به إجازة بلفظة شيخنا جمال الدين ، وبعثه بخطّه من القيروان فيما بين سنة تسع عشرة وألف وعشرين وألف ، « **بالرياض (1) الأنيقة في آباء خير الخليقة** » ؛ ثم سميتـه لنفسـي بكتاب : « **الأنوار النبويـّة في آباء خير البريـّة** » . صلّى الله عليه وسلّم!

والله أسأل في الإعانة ، وعليه أتـّكل ! سبحانه !

وينحصر الـكلام فيه في ثمانية فصول **وخاتمة** :

الفصل الأول : في ذكر فضل العرب الذين هم أصل هذا النسب الشريف خصوصا قريش ومضر وكنـانة .

الفصل الثاني : في طهارة أصله الشريف وبيان قدره المُنيف .

الفصل الثالث : في ذكر هذا النسب الـكريم من مبداه الى منتهاه .

الفصل الرابـع : في ذكر شـيء من تعريف رجال هذا النسب الشريف وضبط بعض ما استعجم من أسمائهم .

الفصل الخامس : في ذكر نسب أصحابـه العشرة ، رضـي الله – تعالى! – عنهم [ص 2] المشهود لهم بالجنـّة ، وأين يلتقي كل واحد منهم – رضـي الله عنهم ! – معه – صلّى الله عليه وسلّم ! – في نسبه الشريف .

الفصل السادس : في ذكر شـيء ممّا قيل في إيمان آبائه الـكرام – عليهم أفضل الصلاة والسلام !

---

(1) في الأصل : برياض الأنيقة ...

الفصل السابع : في ذكر العقب من بعض أولاد مولانا الإمام أبي محمد الحسن ، — رضي الله — تعالى ! — عنه .

الفصل الثامن : في ذكر العقب من بعض أولاد مولانا الإمام أبي عبد الله الحسين رضي الله عنه !

والله — سبحانه ! — يوفّقنا لما يحبّه ويرضاه ويرزقنا — جلّ وعزّ ! — دنيا وأخرى ، فضلَه ورضاه .

⁂

[ص 80] وأما **الخاتمة** التي وعدت بها بعد الفصول الثمانية ، **فأقول** والله — سبحانه ! — المأمول :

[ص 201 م] قد كثر الإنكار علينا ، معشر أشراف (1) الأندلس ، من كثيرين من إخواننا في الله بهذه الدّيار [ص 202 م] الإفريقية من التونسيين وغيرهم ، حفظهم الله — تعالى ! — بقولهم : « من أين لهم الشرف ، وقد كانوا ببلد الكفّار — دمّرهم الله — تعالى ! — ولهم مئون من السنين كذا « وكذا ، ولم يبق فيهم من يعرف ذلك من مدّة الإسلام ، وقد اختلطوا مع « النصارى ، أبعدهم الله — تعالى ! ... » إلى غير ذلك من الكلام الذي لا نطيل به ولا أذكره هنا صونا لعرضهم وحبّي فيهم [كذا] .

---

(1) في مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح لأبي جندار : أشراف أهل الأندلس . والمؤلف هو أبو عبد الله محمد بوجندار ، والكتاب مطبوع بالرباط ، بمطبعة الجريدة الرسمية 1345 هـ. ويقع في 317 ص ، وابتداء من ص 201 ، استطراد في نسب جالية الأندلس وسبب هجرتهم ، نقله عن مخطوطنا ؛ ويجد القارىء بنصنا الإحالات على الصحفات المناسبة من كتاب أبي جندار مع إضافة م للرقم وذلك للتفريق بين ترقيمه وترقيم مخطوط ابن عبدالرفيع . أما المستشرق ج . د . لتهم ، فإنه استمد ما أخذه عن ابن عبد الرفيع من كتاب أبي جندار ؛ أنظر : **John. D. Latham** : **Towards a study of Andalusian Immigration and its place in Tunisian History in Cahiers de Tunisie 1957 nº 19 - 20 - IVe année - p. p. 205 - 6.**

فأقول ، وبالله — تعالى ! — التوفيق ، والهادي إلى أقوم طريق : مع أنّي صغير السنّ ، حين دخولنا هذه الدّيار ، عمّرها الله — تعالى ! — بالإسلام وأهله بجاه النبي المختار — صلّى الله عليه وسلّم ! ، فقد أطلعني الله — تعالى ! — على دين الإسلام بواسطة والدي — رحمة الله — تعالى ! — عليه ، وأنا ابن ستة أعوام وأقلّ [ص 81] مع أنّي كنت اذذاك أروح إلى مكتب النصارى لأقرأ دينهم ، ثم أرجع إلى بيتي ، فيعلّمني والدي دين الإسلام ؛ فكنت أتعلّم فيهما معا ، وسنّي حين حُملت الى مكتبهم أربعة أعوام .

فأخذ والدي لوحا من عود الجوز كأنّي أنظر الآن إليه مملّسا من غير طُفال [ص 203 م] (1) ولا غيره ، فكتب لي فيه حروف الهجاء وهو يسألني ، حرفا حرفا ، عن حروف النصارى تدريبا وتقريبا ، فإذا سميت له حرفا أعجميا ، يكتب (2) لي حرفا عربيا فيقول لي حينئذ : « هكذا حروفنا ! » حتى استوفى لي جميع حروف الهجاء في كرّتين ؛ فلمّا فرغ من الكرّة الأولى ، أوصاني أن أكتم ذلك حتّى عن والدتي وعمّي وأخي وجميع قرابتنا ، وأمرني أن لا أخبر أحدا من الخلق ؛ ثم شدّد عليّ الوصيّة ، وصار يرسل والدتي إليّ ، فتسألني (3) وتقول : « ما الذي يعلّمك والدك ؟ » فأقول لها : « لا شيء ! » ؛ فتقول : « أخبرني بذلك ولا تخف ، لأنّي عندي الخبر بما يعلّمك ! » فأقول لها : « أبدا ! ما هو يعلّمني شيئا » ؛ وكذلك كان يفعل عمّي وأنا أنكر أشدّ الإنكار ؛ ثم أروح إلى مكتب النصارى وآتي (4) الدّار ، فيُعلّمني إلى أن مضت مدّة ؛ فأرسل إليّ من إخوانه في الله الأصدقاء ويسألوني (5) ، فلم أقرّ لأحد قط بشيء ، مع أنّه — رحمه الله — تعالى ! —

(1) في الأصل : طفل ، وكذلك في مقدمة ...
(2) في مقدمة... : كتب
(3) في الأصل : يسئلني . وكذلك في مقدمة...
(4) في الأصل : وات .
(5) في الأصل : ويسئلوني ؛ وفي مقدمة... : فيسئلني .

قد ألقى نفسه للهلاك لإمكان أن أخبر بذلك عنه ، فيحرق لا محالة ؛ لكن أيّدنا الله — سبحانه وتعالى ! [ص 204 م] — بتأييده وأعاننا على ذكره وشكره وحسن عبادته بين أظهر أعداء الدّين .

وقد كان والدي — رحمه الله — تعالى ! — ، يلقّنني حينئذ ما كنت أقوله عند رؤيتي للأصنام ، وذلك أنّه قال لي : « إذا أتيت إلى كنائسهم ورأيت « الأصنام ، فاقرأ في نفسك سرّا قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ « فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا « ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا « يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ . » (1) و « قُلْ يَا « أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ، لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ » (2) وغير ذلك من الآيات « الكريمة ، وقوله — تعالى ! — : « وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ « بُهْتَاناً عَظِيماً ، وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ « رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ « الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ « إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً ، بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ « اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً . » (3)

فلمّا تحقّق والدي — رحمه الله — تعالى ! — أنّي أكتم أمور دين [ص 205 م] الإسلام عن الأقارب فضلا عن الأجانب ، أمرني أن أتكلّم بإفشائه لوالدتي وعمّي وبعض أصحابه الأصدقاء فقط ، وكانوا يأتون إلى بيتنا فيتحدثون في أمر الدّين وأنا أسمع .

(1) الآية 73 من سورة الحج .

(2) الآيتان 1 و 2 من سورة : الكافرون ؛ وفي مقدمة... إضافة : الى آخرها ، بعد الآية .

(3) الآيات 156 و 157 و 158 من سورة النساء .

فلمّا رأى حزمي مع صغر سنّي ، فرح كثيرا غاية الفرح (1) وعرّفني بأصدقائه وأحبابه وإخوانه في دين الإسلام ؛ فاجتمعت بهم واحدا واحدا (2)، وسافرت الأسفار لأجتمع بالمسلمين الأخيار من جيّان مدينة ابن مالك (3) [ص 82] إلى غرناطة وإلى قرطبة (4) وإشبيليّة وطليطلة وغيرها من مدن الجزيرة الخضراء ، أعادها الله — تعالى ! — للاسلام ؛ فتلخّص لي من معرفتهم أنّي ميّزت منهم سبعة رجال كانوا كلهم يحدّثونني (5) بأمور غرناطة . وما كان بها في الإسلام حينئذ وبما أقوله بعد وقلته قبل ؛ فسندي عال لكون ما ثم (6) إلاّ واسطة واحدة بيني وبين أيّام الإسلام بها ؛ فباجتماعي بهم ، حصل لي خير كثير ولله المنّة ! وقد قرؤوا كلهم — رحمهم الله ! — على شيخ من مشايخ غرناطة — أعادها الله للاسلام ! — يقال له الفقيه الأوطوري(7) رحمه الله — تعالى ! — ونفعنا [ص 206 م] به ، فإنّه كان رجلا صالحا وليّا لله فاضلا زاهدا ورعا عارفا سالكا ذا مناقب ظاهرة مشهورة وكرامات زاهرة مأثورة ، قد قرأ القرآن الكريم في مكتب الإسلام بغرناطة ، قبل استيلاء أعداء الدّين عليها وهو ابن ثمانية أعوام ، وقرأ الفقه وغيره على مشايخ أجلاّء ، حسب الإمكان ، لأنّ الوقت ضاق في السرّ والإعلان لشدّة القتال والحصر الذي كان عليهم ، مع صغر سنّه .

ثم بعد مدّة يسيرة انتزعت غرناطة من أيدي المسلمين أجدادنا ، وقد أذن العدوّ في ركوب البحر والخروج منها لمن أراده وبيع ما عنده وإتيانه لهذه

---

(1) كلمة : الفرح ، وردت في مقدمة... فقط .

(2) في الأصل : واحد .

(3) هو جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك (600/1203 ـ 672/1274) ولد في جيان . وهو صاحب «الألفية» في النحو ؛ أنظر عنه مقال محمد بن شنب.E I1 art. Ibn Mâlik T.II - p. p. 426 - 27

(4) وردت : والى قرطبه ، في مقدمة... ، فقط .

(5) في الأصل : يحدثوني .

(6) في الأصل : لكوني ما ثم ؛ مقدمة... لكون ما تم .

(7) في الأصل : الفقير الاوطري ؛ وفي الطرة اصلاح : الأطوري ؛ وفي مقدمة... الفقيه اللوطوري.

الدّيار الإسلامية ، أبقاها الله — تعالى ! — عامرة بالإسلام إلى يوم الدّين ، وذلك في مدّة ثلاثة أعوام . ومن أراد أن يقيم على دينه وماله فليفعل ، بعد شروط اشترطوها وإلزامات كتبها عدوّ الدّين على أهل الإسلام (1) .

فلمّا تحرّك لذلك أجدادنا وعزموا على ترك ديارهم وأموالهم ومفارقة أوطانهم للخروج من بينهم ، وجاز إلى هذه الدّيار التونسيّة والحضرة [ص207 م) الخضراء بغتة من جاء إليها حينئذ ودخلوا في زقاق الأندلس المعروف الآن بهذا الإسم وذلك سنة اثنتين (2) وتسعمائة . وكذلك للجزائر وتطوان (3) وفاس ومراكش وغيرها ، ورأى (4) العدوّ العزم منهم لذلك . نقض العهد ، فردّهم رغم أنوفهم من سواحل البحر إلى ديارهم ومنعهم قهرا عن الخروج واللحوق بإخوانهم وقرابتهم لديار الإسلام ؛ وقد كان العدوّ يظهر شيئا ويفعل بهم آخر ؛ مع أن المسلمين أجدادنا استنجدوا مرارا ملوك الإسلام حينئذ كملك فاس ومصر ؛ فلم يقع من أحدهما ولا من غيرهما (5) إلاّ بعض مراسلات ، ليقضي الله أمرا كان مفعولا !

ثم بقي العدوّ يحتال بالكفر عليهم غصبا ، فابتدأ يزيل لهم اللباس الإسلامي والجماعات والحمامات والمعاملات الإسلامية شيئا فشيئا مع شدّة امتناعهم والقيام عليه مرارا وقتالهم إيّاه ، إلى أن قضى الله — سبحانه ! — ما قد سبق في علمه ؛ فبقينا بين أظهرهم وعدوّ الدّين يحرق بالنار من لاحت

---

(1) يتحدث المقري عن سبعة وستين شرطا التزم بها النصارى قبل أن يتمكنوا من دخول الحمراء في ثاني ربيع الأول من سنة 897 ؛ ومن هذه الشروط إقامة الشريعة على ما كانت وإبقاء المساجد والأوقاف وحماية الأنفس والأموال وحرية الجواز الى العدوة . انظر نفح الطيب ج 6 ص 277ـ278 (ط عبد الحميد . القاهرة 1369/1949) .

(2) في الأصل : اثنين ؛ وكذلك في مقدمة

(3) في الأصل وفي مقدمة... : تطاون .

(4) في الأصل : رءا ؛ أما في مقدمة... : ف : رءا العدو العزم فيهم .

(5) عبارة : ولا من غيرهما ؛ ساقطة من مقدمة...

عليه إمارة الإسلام ويعذّبه بأنواع العذاب؛ فكم أحرقوا وكم [ص 208 م] عذّبوا وكم نفوا من بلادهم وضيعوا من مسلم ! فإنّا لله وإنّا إليه راجعون ! (1).

حتّى [ص 83] جاء النصر والفرج من عند الله — سبحانه ! — وحرّك القلوب للهروب ، وكان ذلك سنة ثلاث عشرة وألف لهجرته — صلى الله عليه وسلّم ! — فخرج منّا (2) بعض للمغرب وبعض للمشرق خفية مظهرا دين الكفّار — أبعدهم الله ! — فذهب بعض إخواننا إلى مدينة بَلِغْرادِ (3) من عمالة القسطنطينية العظمى فاجتمع بالوزير المعظم المرحوم مراد باشا أحد وزراء حضرة السلطان الأعظم والخاقان الأفخم المرحوم برحمة الله — تعالى ! — السلطان أحمد خان نجل آل عثمان (4) ، نصرهم الله — تعالى ! — وأيدهم

(1) يذكر المقري بنفس المصدر (ج 6 ص 279) « أن النصارى نكثو العهد ونقضوا الشروط عروة عروة ، الى أن آل الحال لحملهم المسلمين على التنصر سنة 904 [......] وبالجملة فانهم تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة وامتنع قوم من التنصر [......] فجمع لهم العدو الجموع واستأصلهم عن آخرهم قتلا وسبيا ، الا ما كان من جبل بللنقة ، فان الله — تعالى — أعانهم على عدوهم ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة [......] » .

(2) في الأصل : منها ، وقد أصلحناه من مقدمة...

(3) ورد النص هكذا في مقدمة... بعد عبارة أبعدهم الله ! : فخرج بعض أحبابنا واخواننا وهو الفقيه الأجل المدرس الشريف لأمه ، أبوالعباس أحمد الحنفي المعروف بعبد العزيز القرشي ، ومعه أحد أخواله ـ رحمهم الله تعالى ! ـ الى مدينة بلغراد هـ .

هاجم الأتراك بلغراد مرتين : الأولى سنة 1440/843 ودام الحصار ستة أشهر والثانية في سنة 1456/860 على عهد محمد الثاني ؛ وبعد حصار طويل رجع الأتراك وظلت بلغراد « سور النصرانية » . ودخل الأتراك المدينة بعد حصار طويل في 29 جويلية 1521 .

وظلت بلغراد يتنازعها الأتراك والنمساويون الى أن أصبحت عاصمة سربيا (Serbie) سنة1867.
وكان لبلغراد ابتداء من منتصف القرن العاشر للهجرة مظهر المدينة الشرقية ؛ وكانت حياتها على جانب كبير من الصخب في القرن العاشر والنصف الأول من القرن الحادي عشر .

أما من يعيش بها اليوم من المسلمين ، فلا يرجع أصلهم إلى العناصر التركية المحتلة للبلاد ، فهؤلاء قد هاجر أواخرهم في 1867 ؛ وإنما هم من الذين استوطنوا بلغراد قادمين من بوسني Bosnie ومقدونيا Macédoine وأماكن أخرى من يوغسلافيا بعد 1918 .

انظر فصل بلغراد من دائرة المعارف الإسلامية تأليف ب جردجف D. Djurdjéw (الطبعة الثانية الفرنسية) الجزء الأول . ص 1198 و 1199 .

(4) هو أحمد الأول الابن الأكبر لمحمد الثالث . ولد في منيسة في 22 جمادى الثانية سنة 18/998 أفريل 1590 . وتولى الحكم في 18 رجب 1012 الموافق لـ 22 جانفي 1603 .

تولى له عدد من رؤساء الوزارة منهم مراد باشا الملقب قيوجو Kuyùdjù . (الحفار) الذي أمضى معاهدة سزتفترك Szitvatorok مع النمساويين في 11 نوفمبر 1606 ! توفي وسنه التسعون .
انظر عن أحمد خان ووزيره الأعظم مراد باشا فصل ر. منتران R. Mantran - art Ahmed 1er فصل دائرة المعارف الإسلامية . (الطبعة الثانية الفرنسية) الجزء الأول : ص . 275 .

ورحم سلفهم الصالح ! آمين ! . وأخبره (1) بما حلّ بإخواننا الأندلس [كذا] من الشدّة والضيق (2) بفرانصة (3) وغيرها .

فكتب الوزير المشار إليه — رحمة الله — تعالى ! — عليه ، لصاحب فرانصة ، دمّرها الله — تعالى ! — بإذن من السلطان ، نصره الله — تعالى ! — وهو يأمره بأن (4) يخرج من كان عنده من المسلمين الأندلس [كذا أيضا] وخدام آل عثمان — نصره الله — تعالى ! — محمولين في أغربته ويوجّههم [ص209 م] إلى بلاد الإسلام في سفن من عنده بما يحتاجون إليه (5) .

فلمّا قرئ الأمر السلطاني في ديوان الفرنصيص بيريس (6) دار مملكته وسمعه من كان عنده مرسلا من قِبَل صاحب الجزيرة الخضراء ، وهو اللعين فليبو الثالث (7) أرسل الى سيده وهو يخبره بالواقع بأن السّلطان أحمد نجل آل عثمان أرسل أمره إلى فرانصه وأمر صاحبها بأن يخرج من كان عنده من الأندلس [كذا] وغيرهم ، فقبل كلامه وأمر بإخراج المسلمين وأذن لمن جاء من الأندلس [كذا] بأن لا بأس عليهم وأن يركبوا عنده في سواحله مراكبه فيبلغهم الى حيث شاؤوا من بلاد الإسلام العزيز المنصور .

(1) في مقدمة... ورد النص هكذا بعد عبارة من عمالة القسطنطينية العظمى : فالتقيا بالوزير مراد باشاه وزير السلطان الأعظم المرحوم السلطان أحمد المعظم بن السلطان محمد نجل آل عثمان ، نصرهم الله - تعالى - وأيدهم ؛ فأخبراه...

(2) كلمة الضيق من مقدمة...

(3) بفرانسة في مقدمة...

(4) في مقدمة ورد النص هكذا ابتداء من هذه الفقرة : فكتب أمر الصاحب فرنسا دمرها الله بإعلام السلطان نصره الله بأمره بأن...

(5) في مقدمة ورد النص هكذا بعد عبارة : وخدام آل عثمان : نصره الله ويوجههم إليه في سفن من عنده مع ما يحتاجون إليه .

(6) في الطرة : باريس ؛ وفي مقدمة... ديوان الفرانسيس فسمعه .

(7) في مقدمة... فليبو الثالث فأرسل [...] وأن السلطان [...] الى فرانسة [...] من بلاد المسلمين.ه. فيليب الثالث (1598 — 1621) ؛ كان فيليب الثاني كثيرا ما يلاحظ مشتكيا أن الله الذي منحه ما لا يحصى من الممالك حرمه ابنا قادرا على حكمها ؛ فكان ، حسب عبارة سفير البندقية ، يعتبر « كافين الرأي ضعيف العزيمة » .

ومن المعلوم أن تركيا في سنة 1604 جددت معاهداتها مع فرنسا كما جددتها مع انقلترا والبندقيه. انظر مقال منتران المذكور

فلمّا أحسّ بهذا الأمر عدوّ الله فليبُو (1) صاحب الجزيرة الخضراء ويقال لها اسبانيا (2) ، دخله الرعب والخوف الشديد ، فأمر حينئذ ، فجمع أكابر القسّيسين والرهبان والبطارقة وطلب منهم الرأي وما يكون عليه العمل في شأن المسلمين الذين هم ببلاده كافة ؛ فبدأ الشان في أهل بلنسية ، فأخذوا الرأي وأجمعوا كلّهم على إخراج المسلمين كافة من مملكته وأعطاهم السفن وكتب أوامر [ص 210 م] وشروطا في شأنهم وكيفيّة (3) إخراجهم ، وشدّد على عماله بالوصيّة والإستحفاظ على كافة المسلمين من الأندلس [كذا] .

فهذا لطف عظيم ورحمة ظاهرة من المولى الكريم حيث قلّب قلب العدوّ ؛ وعلى هذا الإستحفاظ الكبير فضل منه ، سبحانه وتعالى ! (4) .

نعم ! أريد أن أذكر لك نبذة يسيرة اختصرتها وترجمتها من جملة أسباب ذكرها الملك الكافر — أبعده الله — تعالى ! — في أوامره التي كتبها في شأن اخواننا الأندلس [كذا] حين أراد إخراجهم (5) من الجزيرة الخضراء لتكون على بصيرة من أمرهم وتعلم بعض الأسباب التي أخرجوا لأجلها على التحقيق ، لا كما يزعم بعض الحاسدين ، وليؤيّد ما قدّمناه آنفا من أمر السلطان أحمد المنصور بالله ، نجل آل عثمان ، نصرهم الله — تعالى ! — آمين وتكمل الفائدة ولئلا يساء الظن بنا معشر الأندلس [كذا] فأقول وبالله التوفيق !

قال الملك الكافر [ص 84] ، أبعده الله — تعالى ! — وزلزله ! — آمين ! — في أوامره : « لما كانت السياسة السلطانية الحسنة الجيّدة موجبة لإخراج من « يكدر المعاش على كافة الرّعيّة النصرانية في مملكتها التي تعيش عيشا رغدا

---

(1) في الأصل : فليب ؛ أما المرة السابقة فقد نسخت كما أثبتناها بالنص .
(2) هكذا بالطرة وبنفس الخط ؛ وبالأصل : اسبانية ؛ وفي مقدمة... صاحب اسبانيا .
(3) في مقدمة.... : وفي كيفية
(4) هذه الفقرة باكملها ساقطة من مقدمة .
(5) في مقدمة... : اخواننا الأندلسيين حين اخراجهم .

« صالحا . والتجربة أظهرت لنا عيانا أن الأندلس (1) [كذا] الذين هم متولّدون
« من [ص 211 م] الذين كدّروا مملكتنا فيما مضى بقيامهم علينا مرارا (2)
« وقتلهم أكابر مملكتنا والقسّيسين والرهبان الذين كانوا بين أظهرهم وقطعهم
« لحومهم وتمزيقهم أعضاءهم وتعذيبهم إيّاهم بأنواع العذاب الذي لم يسمع
« فيما تقدّم مثله مع عدم توبتهم ممّا فعلوه وعدم رجوعهم رجوعا صالحا من
« قلوبهم لدين النصرانية وأنه لم ينفع فيهم وصايانا ولا وصايا أجدادنا الملوك
« ولا من سلف منّا (3) . ورأينا عيانا أنّ كثيرا منهم أحرقناهم (4) بالنار
« لإستمرارهم على دين المسلمين . وظهر منهم العناد بعيشهم فيه بصفة دائمة(5)
« واستنجادهم كذلك عون السلطان العثماني لينصرهم علينا . وظهر لي أن
« بينهم وبينه مراسلات اسلامية ومعاملات دينية . وقد تيقنت ذلك من
« إخبارات صادقة وصلت إليّ ، ومع هذا أنّ أحدا منهم لم يأت إلينا ليخبرنا
« بما هم يدبّرونه في هذه المدّة بينهم وفيما سبق من السنين . بل كتموه
« بينهم . علمت . بذلك ، يقينا (6) أنّ كلّهم قد اتفقوا على رأي واحد ودين
« واحد ونيّتهم واحدة ، وظهر لي أيضا ولأرباب العقول والمتدينين الصالحين
« من القسّيسين [ص 212 م] والرهبان والبطارقة الذين جمعتهم لهذا الأمر
« واستشرت معهم أنّ من إبقائهم بيننا ينشأ فساد (7) كبير وهول شديد بسلطنتنا
« وأنّ بإخراجهم من بيننا يصلح الفساد الناشيء من إبقائهم بمملكتي ، أردت
« إخراجهم كافة (8) من سلطنتنا جملة ليزول بذلك الكدر الواقع والمتوقّع

(1) في مقدمة... أن الأندلسيين .
(2) في مقدمة... : سقطت كلمة مرارا .
(3) سقطت من مقدمة... عبارة : ولا وصايا أجدادنا الملوك ولا من سلف منا .
(4) في مقدمة : قد احرقوا .
(5) في الأصل : ضفية وفي مقدمة... : بعيشهم فيه خفية واستنجادهم .
(6) سقطت من مقدمة... كلمة يقينا .
(7) في الأصل : ينشأ عنه فساد ؛ وكذلك في مقدمة...
(8) سقطت من مقدمة... كلمة : كافة .

« للنّصارى الذين هم رعيتنا ، طائعين لأوامرنا وديننا ، ورميـَهم (1) إلى بلاد « المسلمين أمثالهم لـكونهم مسلمين » (2) .

انتهى المراد بأكثر لفظه ، ولم أتعرّض لذكر شروط كتبها ودققهـا ؛ فانظر — رحمك الله ! — كيف شهد عدو الدّين الملك الكافر بأنهم مسلمون ، واعترف أنه لم يقدر على إزالة دينهم من قلوبهم ، وأنهم متمسـّكون كلّهم به ، مع أنّه كان يحرق منهم من ظهر عليه الدين ، ثم وصفهم بالعناد لرؤيته فيهم لوايح المسلمين وإماراتهم وملازمة القيام بدين الله مئين (3) من السنين .

فأيّ عـلامة أكبر من صبرهـم على النّـار لأجل دينِ الحقّ ، ومن استنجادهم مَلِكَ دين الإسلام المؤيَّد لحماية الدين ، أميرَ المؤمنين ، حضرة السلطان (4) أحمد نجل آل عثمان ، نصرهم [ص 213 م] الله — تعالى ! ؛ فهذا غلبة الخير والعزّ والبركـة لهذه الطـائفة الطـاهرة الأندلسيّة التي قـال فيها [ص85] شيخنا الأستاذ القطب الغوث سيدي أبو الغيث القشاش (5) — نفعنا الله

(1) في مقدمة... : ورميتهـم .
(2) قارن هذا النص بالوثيقة الإسبانية التي عربناها .
(3) في الطرة بخط مغاير ، اصلاح : مئين ؛ وما يلي : وإماراتهم ، ساقط من مقدمة...
(4) في مقدمة... أمير المسلمين السلطان .
(5) أبو الغيث المعروف بالقشاش التونسي. ذكر عنه الشيخ مخلوف أنه كثير الرحلات غزير العلم واسع الشهرة كثير الـكرامات وأنه مهر في علوم التفسير والحديث والأصول ، وأن جملة ما وجد بخزائن كتبه ألف نسخة من البخاري وغير ذلك ؛ أخذ عنه الكثير وخاصة تاج العارفين البكري الذي صاهره في ابنته ؛ توفي في 1621/1031 وعمره ما جاوز الخمسين . وينقل الشيخ مخلوف قولا يفيد أن قبره بالحجامين في حمام يعرف بسيدي أبي الغيث ؛ شجرة النور الزكية في طبقات المالكية للشيخ محمد مخلوف . (ط القاهرة 1350) . رقم 1122 ص 292 ، 293 .
انظر عنه كتاب مناقب أبي الغيث القشاش للمنتصر بن المرابط أبي لحية القفصي وعنوانه كاملا هو : نور الأرماش في مناقب سيدي أبي الغيث القشاش .
توجد منه في تونس في خزانة المكتبة الأحمدية ثلاث نسخ ؛ الأولى في مجموع قطعة رقم واحد (ورقة 1 الى ورقة 69 وجها) برقم 3883 وهي التي اطلعنا عليها فقط ونقلنا عنها، في غير هذا المكان ، على حدة ، ما يتعلق بالهجرة الأندلسية الأخيرة الى تونس ؛ وأما النسختان الأخريان وهما مستقلتان ورقمهما 3872 و 3873 فلم نستطع الحصول عليهما رغم الحاحنا في ذلك .
وانظر عنه أيضا الجزء الثاني والثالث من تاريخ الوزير السراج : الحلل السندسية في الأخبار التونسية (ورقة 23 وجها وظهرا من مخطوطة المكتبة القومية بتونس رقم 001) .
وانظر أيضا الجزء السابع من اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان لأحمد بن أبي الضياف (تونس 1965) ص 67 .

— تعالى ! — به دنيا وأخرى ، في بعض مكاتبه التي كان يكاتبني بها في بعض شأنهم ، حين قدومهم الى هذه الديار ، أدامها الله للاسلام ! ؛ فقال لي : « وسلّم لي على هؤلاء الأنصار الأطهار الأخيار ، فإنّه لا يحبّكم إلاّ « مؤمن ولا يبغضكم إلاّ منافق » انتهى بلفظه .

ويؤيّد كلامَ الأستاذ — رحمه الله ! — الأحاديث الشريفة السابقة في أول هذا الكتاب في الفصل الأول منه (1) كحديث سلمان الفارسي — رضي الله عنه ! — ، وحديث علي ، رضي الله — تعالى ! — عنه ، وهو قوله — صلّى الله عليه وسلّم ! — : « لاَ يَبْغَضُ الْعَرَبَ [ص 214 م] إلاّ مُنَافِقٌ » (2) وغيرهما ! وكما جاء في شأن قريش لثبوت نسب أكثرهم (3) منهم ومن الأنصار الخزرج والأوس وغيرهما ، تغليبا ، فضلا عمّن (4) هو منهم من الأشراف من ذرية الحسن والحسين والعبّاس وغيرهم — رضي الله عنهم ! — من بني هاشم ، كما سيأتي ذكرهم — إن شاء الله — تعالى ! — مع ما تقدم (5) ؛ والله — سبحانه ! — أعلم ، وبه التوفيق !

فخرجوا كلهم سنة سبعَ عشرةَ وألف (6) ؛ ووُجد في دفاتر السلطان

(1) في مقدمة... بعد : في الفصل الأول منه ؛ في النوع الثالث منها .
(2) ذكره فنسنك (تعريف م.ف. عبد الباقي ط 1. 1934/1353 ص339 من مفتاح كنوز السنة بعبارة : « لا يكره العرب إلا منافق » برواية أحمد بن حنبل .
(3) ذكر الناسخ بخطه في الطرة هذا التعليق : «أي اكثر الأندلس من قريش ؛ وبقرطبة اليوم مشهور مقبرة تسمى بمقبرة قريش ، وقاله غير واحد من أكابر العلماء ، منهم الحافظ الامام أبو القاسم خلف بن عبد الملك الأنصاري صاحب كتاب الصلة » .
(4) في الأصل : عن من وكذلك في مقدمة...
(5) انظر أسفله ص. 95 و 96 من مخطوطة ابن عبد الرفيع .
(6) لقد وصلنا ، بفضل الوثيقة الإسبانية الأولى التي يجد القارىء لها تعريبا ، أسفل هذا ، الى تاريخ صدور قرار إجلاء المسلمين عن الأندلس بـ : 22 سبتمبر 1609 الموافق لـ : 13 جمادى الثانية 1018 ؛ فلا يمكن أن يكونوا قد « خرجوا كلهم سنة سبع عشرة وألف » حسب عبارة ابن عبد الرفيع ، خاصة أن الاحصيات الرسمية التي قامت بها السلط النصرانية الاسبانية في 4 سبتمبر 1609 الموافق لـ : 25 جمادى الأولى تثبت أن ببلنسية فقط، 140.000 (مائة واربعين ألفا) من المسلمين ؛ وعبارة المقري (النفح ج 6 ص 279ـ280) أقل دقة : « وقاموا في بعض الجبال على النصارى مرارا ولم يقيض الله لهم ناصرا الى أن كان اخراج النصارى إياهم بهذا العصر القريب أعوام سبعة عشر وألف » وكذلك عبارة ابن أبي دينار (انظر نصه أسفل هذا) . وابن أبي الضياف وهذا نصه : « وفي سنة ست عشرة وألف ، قدمت وفود من الأندلس فارين بدينهم لما أخذت بلادهم ... (انظر حديثنا عن هذا النص أسفل هذا) .

الكافر — أبعده الله — تعالى ! — آمين ! — أنّ جملة من أخرج من أهل الأندلس كافة ، نيّف وستماية ألف نسمة كبيرا وصغيرا ؛ فكانت هذه الواقعة إحدى معجزات النبي — صلّى الله عليه وسلّم ! — ومنقبة (1) عظيمة وفضيلة عجيبة لجماعتنا الأندلس (2) [كذا] ، زادهم الله شرفا بمنّه ! ؛ وأمر أيضا الملك الكافر (3) بإخراج من كان مسجونا في (4) مملكته ، وكلٍّ من أمر أيضا بإحراقه ، فأخرجه وعفا عنه وزوّده وأرسله الى بلاد الإسلام سالما .

ولا يخفى أنّ هذا أمر عظيم ومحال عادة ، لِمَا كنّا فيه معه من الشدّة والضيق في الدين والنفس والمال (5) ؛ فسبحان ربّ السماوات ورب الأرض الذي إذا أراد أمرا قال له : كُنْ ! فكان ! فيا لها من أعجوبة ما أعظمها ومن فضيلة ما أشرفها ومن كرامة ما أجملها ومن نعمة ما [ص 215 م] أكبرها ! فما سُمِــع من أوّل الدنيا إلى آخرها مثل هذه الواقعة (6) ؛ [ص 216 م] ولا

---

(1) في مقدمة... ورد النص هكذا : فكانت هذه الواقعة منقبة .

(2) في مقدمة... : الأندلسيين .

(3) سقطت من مقدمة... هذه العبارة : الملك الكافر .

(4) في مقدمة... : في كافة مملكته وكل من كان أمر باحراقه ، فأحرقه....

(5) سقطت من مقدمة... جملة : لما كنا فيه من الشدة والضيق في الدين والنفس والمال .

(6) في مقدمة... استطراد هذا نصه : فما سمع من أول الدنيا الى آخرها مثل هذه الواقعة إلا ما حدثني به شيخنا العلامة ساسي نوينة الأندلسي — حفظه الله تعالى — فقال : روي أن جيشا من المسلمين غزا بعض مدائن الكفار ؛ فلما وصل الجيش إلى هذه المدينة وخرج جيش الكفار بآلات حربهم ، وتصاف القوم ، خرج شاب من جيش المسلمين وقال : « هل من مبارز ؟ » فخرج إليه قرنه من الكفار ، فقتله الشاب ورجع عنه إلى المسلمين ؛ وأصبح من الغد ، ففعل مثل ذلك .

فحين رآى ذلك ملك الروم ، اهتم وقال لعسكر الكفار : « اذا خرج الشاب وطلب البراز، فخرج إليه قرنه ، فإذا تشابكا ، اهجموا عليه وخذوه ؛ فلما أصبح وخرج الشاب وطلب البراز وخرج إليه قرنه ، هجم عليه جيش الكفار، فجاؤوا به وأدخلوه السجن وكبلوه وغللوه ؛ وفرح ملكهم، وبقي يشرب ثلاثة أيام سرورا بأخذ الشاب ، وقال بعد أخذ الشاب : « كأني أخذت عسكر المسلمين كله ! » .

ثم دخل عليه الملك ليلا فقال له : « من الذي أدخلك [ص 216] السجن ؟ » فقال : « مولاي ! » ونظر الى القيد والجامعة بين يديه فقال له الملك : « ولم أبقاك في السجن ؟ » فقال : « لأمر أراده ! » فقال الملك : « أنا أقول : أشهد أن لا إلاه إلا الله ! وأشهد أن محمدا رسول الله ! » .

فأصبح أهل المدينة كلهم يقول : « أشهد أن لا إلاه إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ! » فقال الشاب للملك حينئذ : « إنما أبقاني في السجن لأجل هذا ! » انتهى .

ريب أنّ هذا من كرامة النبيّ — صلّى الله عليه وسلّم ! — الذي أكرمه الله ربنا — سبحانه ! — بمثل ما أكرم به كافّة الرّسل والأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ! وما أحسن قول الإمام البصيري (1) — رحمه الله — تعالى ! — في همزيته (2) : [خفيف] .

« تَتَبَاهَى بِكَ الْعُصُورُ وَتَسْمُو بِكَ عَلْيَاءُ بَعْدَهَا عَلْيَاءُ (3) »

فلا شك أن جملة أعصار الدنيا من أوّلها إلى آخرها تتباهى به — صلّى الله عليه وسلّم ! — وبأمّته وتتنوّر به وتعلو ، ولا نور للأنبياء والرّسل — عليهم الصلاة والسلام ! — دون نوره ولا باب لكافة الخلق دون بابه ؛ فهو باب الله الأعظم وسرّ وجود جميع الموجودات ؛ فلا يعرفه أحد من المخلوقات . ونهاية العقول عاقلة عن معرفته ؛ وما أحسن قوله [البصيري] أيضا . رحمه الله — تعالى ! — : [بسيط] .

« فَمَبْلَغُ الْعِلْمِ فِيهِ أَنَّهُ بَشَرٌ
وَأَنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ اللَّهِ كُلِّهِمِ »
« وَكُلُّ آيٍ أَتَى الرُّسْلُ الْكِرَامُ بِهَا
فَإِنَّمَا اتَّصَلَتْ مِنْ نُورِهِ بِهِمِ »

[ص 86] والحاصل أنّه — صلّى الله عليه وسلّم ! — هو عين الوجود والسبب في كلّ موجود ولولاه لم تخرج الدنيا من العدم .

نعم ! سقت هذا الكلام السابق ، استطرادا ؛ لأحتجّ به وبالذي يأتي على الذين أنكروا على من ظهر شرفه منا ، معشر الأندلس [كذا] ؛ وأعني بالكلام

(1) شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد بن محسن ولد سنة 1212/608 ؛ وأما وفاته فقد حدد تاريخها بين 1294/694 و 1296/696 ؛ وهو صاحب الهمزية في المدائح النبوية وغيرها في باب المدائح ؛ انظر عنه مقال ر. باساي . R. Basset art al Buṣīrī EI 1 TI p.824

(2) في همزيته ، ساقطة من مقدمة...

(3) الى هنا ينتهي نص مقدمة...

السابق تعيين بعض من جاء إلى المغرب من الأشراف ، وكذلك من جاز إلى الجزيرة الخضراء أيامَ الفتح وبعدَه ، مسترسلا في مئين من السنين ، مع أنه لا يُحتاج إلى دليل على ذلك .

وقد وقع الفتح لجزيرة الأندلس الخضراء — وهكذا سمّاها النبي — صلّى الله عليه وسلّم ! — في بعض الأحاديث الشريفة ، وسمعت بعضها من شيخنا الأستاذ (1) رحمه الله — تعالى ! — وبشّرنا به وصنع لنا ضيافة كبيرة عظيمة بأنواع الأطعمة النفيسة وجمعنا عليها قرب قدومنا إلى هذه الدّيار العليّة ، ثم بعد الأكل ، قال — رحمه الله — تعالى ! — : « أتعرفون يا معشر إخواننا من الأندلس لماذا فعلت بكم ما رأيتم اليوم من الإطعام والفرح ؟ » قالوا : « لا ! » فقال : « فعلت هذا سرورا وفرحا لكم ، لأنّه بلغني أنّ النبي — صلّى الله عليه وسلّم ! — توجّه بوجهه الكريم نحو الجزيرة الخضراء فسلّم عليكم — صلّى الله عليه وسلّم ! — وأنتم في أصلاب أجدادكم وأخبر — صلّى الله عليه وسلّم ! — بالجزيرة الخضراء وبما كان فيها من الجهاد والفتح والإسلام ؛ فهنيئا لكم ! هنيئا لكم ! هنيئا لكم ! ثلاث مرّات . »

ولنرجع إلى ما كنا بصدده فأقول : — وقع الفتح الأول سنة تسعين من هجرته — صلّى الله عليه وسلّم ! — على ما ذكره صاحب **الاكتفاء** (2) ؛

(1) هو القشاش كما نبه عليه في تعليق بالطرة محمد المقداد الورتاني .

(2) هو أبو مروان عبد الملك بن محمد بن أبي القاسم بن الكردبوس ؛ تلقى العلم بتونس كما تلقى بتوزر ورحل الى المشرق فدخل الإسكندرية ؛ ونقل ابن الشباط في شرحه للشقراطسية حديثا عن ابن الكردبوس يفيد أنه كان مقيما بهذه المدينة في أوائل صفر 1179/575 ؛ كما نقل عبد الملك المراكشي في كتابه الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ما يفيد أن رحلته ابتدأت في المحرم من سنة 1177/573 وأنها كانت مرا من افريقية الى الاسكندرية ؛ ولا يعرف تاريخ وفاته ، الا أن المتفحص في تاريخه الاكتفاء إذ يقف على حديثه عن أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الموحدي ، في توليه الحكم وانتصاره الباهر على النصارى ، يتيقن أنه أدرك على الأقل وقعة الأرك سنة 1194/591.
انظر مقال الشيخ محمد الشاذلي النيفر بجريدة الصباح التونسية بتاريخ 21 ذي القعدة 1386 و 2 مارس 1967 بعنوان : ابن الكردبوس وتاريخه .
وانظر خاصة عددي 26 ذي الحجة 6/1386 أفريل 1967 و 3 محرم 13/1387 أفريل 1967 .
ولا أدل على قيمة هذا المقال من أن نذكر أن كل ما نعرفه عن ابن الكردبوس من قبل ينحصر في

وقال غيره : « افتتحت جزيرة الأندلس في شهر رمضان سنة اثنتين (1) وتسعين على يد طارق بن (2) زياد مولى موسى بن نصير ، عامل الوليد بن عبد الملك على بلاد افريقية وكان يومئذ بالقيروان » ؛ انتهى .

والصحيح الذي يعوّل عليه ، على التحقيق ، هو ما ذكره صاحب **الاكتفاء** في ترجمة الوليد بن عبد الملك فقال (3) : « وكان سبب افتتاحه جزيرة الأندلس أنه كتب إلى عامل أبيه على افريقية وما افتتح من المغرب ثم عامله بعد موت أبيه وهو [ص 216 إ] موسى بن نصير (4) بن عبد الرحمان بن زيد البكري أن جَهِّزْ جيشا إلى جزيرة الأندلس ؛ فجهّزه وقدّم عليه مولى من مواليه يسمّى طارقا ، وذلك سنة تسعين ؛ وكان مولد موسى بن نصير سنة تسع عشرة في خلافة عمر بن الخطاب — رضي الله عنه ! — ؛ وكان أُمِّـرَ على إفريقية سنة تسع وسبعين ، وقيل سنة ثمان وسبعين ؛ وكان معاوية بن أبي سفيان — رضي الله — تعالى ! — عنه — قد ولّى نصيرا والد موسى هذا على حرسه ، فلم يقاتل معه عليا ، رضي الله [عنه] ! فقال له معاوية : « ما منعك (5)

ما توصل اليه دوزي ورردده بعض علماء تونس ، أي انه فقيه إفريقي من النصف الثاني من القرن الثاني عشر للمسيح (R. P. A. Dozy Abbad T II p 11 a 27 (Brill 1952
ولابن الكردبوس هذا كتاب الإكتفاء في أخبار الخلفاء توجد منه نسختان في الأحمدية . الأولى يظهر أنها كاملة ورقمها 4812 الا أننا لم نستطع الحصول عليها رغم الحاحنا . وقد اطلعنا على الثانية ورقمها 4813 وبها نقص شديد وهي لا تفيد شيئا لعملنا هذا ؛ إلا أن نسخة صديقنا الشيخ محمد الشاذلي النيفر كاملة وقد أفادتنا كثيرا لمقابلة ما ينقله ابن عبد الرفيع عن ابن الكردبوس ؛ وهي تقع في 386 ص ص وبالصفحة 25 س ومقياسها 21 × 15 ؛ وخطها تونسي من القرن الثاني عشر تقريبا . ويطيب لنا أن نعبر عن عظيم امتناننا لصديقنا الشيخ على ما قدمه لنا من مساعدة .

(1) في الأصل : اثنين .

(2) في الأصل : طارق ابن زياد .

(3) عبد الملك بن مروان : خامس خلفاء بني أمية تولى من سنة 685/65 الى 705/86 ؛ انظر عنه مقال هـ. أ. ر. جيب H. A. R. Gibb art Abd al Malik B. Marwân in EI 2 T1 p. 78 à 80

(4) في الأصل موسى ابن نصير . بداية النقل عن ابن الكردبوس صاحب الإكتفاء : ويجد القارىء الاحالات على النص مع إضافة ـ إ ـ للرقم : ومطابقة النصين تامة إلا في البداية اذ نحيل أولا على ص 216 إ ثم نتقل الى ص 215 إ لنرجع بعدها لـص 216 إ .

(5) في الأصل : وما يمنعك .

من الخروج معي على علي ؛ وتوليتي (1) عليك تكافيني عليها ! » فقال : « لم يمكني أن أشكرك بكفر من هو أولى بشكري منك ! » قال : « ومن هو » ؛ قال : الله — عزّ وجلّ ! — قال : « وكيف ؟ لا أمّ لك ! (2) » قال : « إنه بصير ! وكيفما أعلمك بها فاقض وأمض (3) » ؛ فأطرق معاوية مليا ثم قال : « استغفر الله ! » ورضى عنه !

وكان سبب أمر الوليد [ص 215 إ] بذلك أن الأندلس ومغرب العدوة كانا (4) بأيدي الروم وبالبربر ؛ فساحل البحر كلّه للروم والبريّة للبربر ؛ منهم مَنْ بلغته الدعوة فأسلم ، ومنهم مَنْ لم تبلغه فبقي جاهليا ؛ وكان على طنجه روميّ يسمّى يليان (5) مقدّم من قِبل ملك الأندلس اسمه ردريغ ؛ وكانت دار مملكته طليطلة وكان فيها بيت عليه أقفال ، فكلّ ملك منهم يلي الملك يزيد قفلا على ذلك البيت ؛ ولم يفتحه قطّ ملِك منهم ولا علِم ما فيه حتّى انتهت الأقفال عشرين ؛ فلمّا ولّى ردريغ هذا قال : « لا بدّ أن أفتح هذا الباب حتّى أعرف ما فيه » فقال له أقامطهُ [كذا] (6) وأقسّته : « لا تفعل ولا تحدث ما (7) لم يحدثه من تقدّمك من الملوك » فقال : « لا بدّ لي من فتحه والوقوف على ما فيه » ؛ فلم يجد فيه شيئا غير رق كبير فيه صورة رجال عليهم العمائم وتحتهم خيول مسوّمة وفي أيديهم السيوف والرّايات على القنا بين أيديهم وفيه مكتوب بالعجمية : « هذه صورة (8) العرب ؛ فإذا فتحت

(1) في الإكتفاء : ويدلي عليك تكافيني بها .
(2) في الأصل : وكيف لا آمر لك .
(3) في الاكتفاء : قال له نصير : وكيف لا وكيفما أعلمك بهذا فاعرض أو أمض .
(4) في الأصل : كان .
(5) في الأصل بلاي . ويليان Julien هو الصواب ؛ انظر ليفي بروفنسال في تاريخ اسبانيا المسلمة الجزء الأول ص 12 ، 13 ، 14 ، 15 (باريس 1950) .
وفي الاكتفاء : يليان مقدم من قبل ازر بن ملك الأندلس ؟
(6) في الاكتفاء : اقامطته . ولعلها أقامصه وهو جمع قومص Comes
(7) في الأصل : من .
(8) في الاكتفاء : [...] وفيه مكتوب : هذه صور العرب .

أقفال هذا البيت ودخل البيت فتحت العرب هذه الجزيرة وتملكوا أكثرها » ؛ فندم على فتحه وأغلقه ؛ وهيهات أن يكون إلاّ ما سبق في علم الله !

وكانت سيرة العجم (1) اذ ذاك إذا كان منهم من له قدر أن يدخل بناته قصر الملك الأعظم فيكنّ مع زوجة الملك وبناته ويتأدبن بآدابهنّ ويتعلّمن ما تتعلم بناته من العلوم والصنايع ؛ ثم يتخيّر لهنّ الملك من أولاد أكابر (2) رجاله من يزوّجهن منهم ، فيجهّزهن إليهم ليحبّب بذلك نفسه إلى الرّجال والنساء والصبيان ؛ وكان يليان (3) صاحب سبتة وطنجة من خاصّة الملك ردريغ (4) فأنفذ ابنته إلى طليطلة فكانت في قصره ؛ وكان [ص216 أ] يزوره يليان مرّة في العام في اغشت بهدايا وألطاف وطيور الصيد ؛ وكانت من أجمل النساء ؛ فوقعت عين ردريغ عليها ، وهو شاب سكران ، فواقعها وافتضّها ؛ فلمّا صحا أخبر بذلك ، فندم وأمر بكتم ذلك وأن تمنع الصبيّة ابنة يليان بأن تخلو بأحد ، فتحدّثه أو تكتب معه (5) كتابا إلى أبيها حتى يقف عليه ؛ فلمّا لم تمكّن الصبيّة أن تخلو بأحد فتحدّثه أو تكتب كتابا إلى أبيها ، أنفذت هديّة سنية (6) وفي جملتها بيضة مَذِرة أي مفسودة [كذا] ؛ فلمّا رآها يليان أنكرها وعلم أن ابنته افسدت ؛ فجاز إليه خلاف الوقت المعهود وذلك في شهر ينيّر ؛ فقال له ردريغ : « ما جاء بك في هذا الشتاء الحادّ ؟ » قال : « جئت لابنتي فإنّ أمّها مريضة وتخاف المنيّة ! » فقالت : « لا بدّ أن أرى ابنتي وأشتمي منها » فقال له : « هل نظرت لنا في طيور ؟ » قال له : « قد نظرت لك في طيور لم تر مثلها قط وأنا آتيك بها عن قريب إن شاء الله » يعني بذلك العرب ؛

(1) في الاكتفاء : سيرة الروم .
(2) في الاكتفاء : أشراف .
(3) في الأصل : جليان وكذا كلما وردت في النص .
(4) في الاكتفاء : من خاصة لذريق ووجوه رجاله .
(5) في الأصل : إليه .
(6) في الاكتفاء : أنفذت الى أبيها هدية عظيمة .

فأخذ ابنته وانصرف من فوره إلى إفريقية ، إلى الأمير موسى بن نصير ، فلقيه بالقيروان وأخبره بقصّة ابنته وقرب عليه مرام غلبة الأندلس وسرعة فتحها وكثرة أموالها [ص 88] وجمال سبيها وأنها بلاد مياه كثيرة وجنات وأنهار وغلات في سقي وثمار ؛ وكان ذا رأي وتدبير وحنكة وتجربة [ص 217 إ] في جميع الأمور فقال له : « إنّا لا نشك في قولك غير أنّا « نخاف على المسلمين من بلاد لم نعرفها (1) وبيننا وبينها البحر وبينك وبين « ملكك حميّة الجاهلية واتفاق الدين ؛ ولكن ارجع إلى مكانك واجمع جندك « ومن يقول بقولك وجز إليه بنفسك وشنّ الغارة على بلاده واقطع ما بينك « وبينه واذ ذاك تطيب النفس عليك ونحن من ورائك إن شاء الله — تعالى ! — » .

فكتب موسى بن نصير إلى الوليد بن عبد الملك معلما بما جاء به يليان ؛ فراجعه أنْ خُذْها بالسرايا حتى تختبر ولا تغور .

وإن يليان انصرف فجمع وحشد (2) وجاز في مركبين ، فحلّ بالجزيرة الخضراء فشنّ الغارة على تلك البلاد وحرق وسبا وغنم ودمدم ورجع وقد امتلأت أيديهم خيرا ؛ فشاع الخبر في كلّ قطر .

ثم اجتمع ناس من البربر نحو ثلاثة آلاف رجل وقدّموا عليهم أبا زرعة طريف (3) بن مالك المعافري ، وجاز بهم ، فحلّ في جزيرة ، فسميت « جزيرة طريف » باسمه ، فثبت لها هذا الإسم إلى اليوم ؛ وشنّ الغارة وسبا وقتل وحرق ورجع سالما ؛ فكتب يليان إلى موسى بن نصير بالفتح ؛ فكتب موسى الى الوليد ؛ فاتفق أن وردت عليه [الوليد] في ذلك اليوم إحدى عشرة بشارة كلّها من فتوحات ؛ فخرّ ساجدا (4) لله — تعالى ! — ثم رجع يليان ثانية إلى موسى وأعلمه بما كان من فعله وبلائه ، وحرّضه على غزو الأندلس .

---

(1) في الأصل : لم نعرفوها ؛ وفي الاكتفاء : لا يعرفونها .
(2) في الأصل : حشر .
(3) في الأصل : طريف ابن مالك .
(4) في الأصل : ساجد .

فدعا عند ذلك موسى مولاه طارقا بن زياد ، وعقد له على اثني عشر ألفا (1) بين عرب وبربر ؛ وأمر يليان بالجواز معه بمحلته (2) ؛ وانحاش اليه خلق كثير متطوعون (3) ؛ فمضى لسبتة ، وجاز في مراكبه (4) إلى جبل ، فأرسى فيه ، فسُمّي « جبل طارق » باسمه إلى الآن ، وذلك سنة تسعين من الهجرة (5) ؛ ووجد بعض الروم وقوفا في موضع وطيء وكان عوّل أن ينزل معه إلى البرّ ، فمنعوه منه ؛ فعدل (6) عنه ليلا إلى موضع وعر ، فوطأه بالمجادف وبرادع [ص 218 إ] الدواب ، ونزل الى البرّ وهم لا يعلمون ؛

فشنّ [طارق] غارته عليهم وأوقع بهم ، وغنمهم ورحل نحو قرطبة بعد أن أحرق المراكب وقال لأصحابه : « قاتلوا أو فموتوا ! » ؛ فلقي عجوزا فقالت له : « كان لي زوج عالم بالحدثان ، وكان يخبر أنّه سيجوز رجل في صفتك عظيم الهامة ، في كتفه شامة ، وفيه علامة تكون له الزّعامة » . فكشف لهم عن الشامة والعلامة ، فتباشر النّاس بذلك وتشجعوا به .

فلمّا انتهى خبره الى ردريغ ، خرج إلى لقائه في مائة ألف فارس ، ومعه العجل يحمل (7) الأموال والكسى (8) ، وهو على سرير تحمله ثلاث بغلات مقرونات وعليه قبّة مُكلّلة بالدر والياقوت ، وعلى جسده حلّة لؤلؤ نظمت بخيوط الإبريسم ومعه أعداد ودواب لا تحمل إلاّ الحبال لتكتيف (9) الأسرى ، إذ لم يشكّ في أخذهم .

---

(1) في الأصل : ألف .
(2) في الإكتفاء : بجملته .
(3) في الإكتفاء : متطوعين .
(4) في الأصل : موكبين .
(5) في الاكتفاء : سنة ثلاث وتسعين من الهجرة ؛ ورواية الأصل أقرب إلى الواقع ؛ انظر ليفي بروفنسال في المصدر المذكور (الجزء الأول) ص 16 فيه ذكر لشهر رمضان 91/جويلية 710 كتاريخ لأول غزوة إسلامية إلى الأندلس بقيادة طارق بن زياد .
(6) في الاكتفاء : وكان عزم على النزول فيه الى البر فمنعوه عنه فعدل عنه ؛ وفي الأصل : فعدا عنه .
(7) في الأصل : ترفع ؛ وقد عوضها محمد المقداد الورتاني بـ : تحمل . وفي الاكتفاء : تحمل .
(8) في الأصل : الكسا .
(9) في الاكتفاء : لكتاف .

وكان موسى بن نصير من حين أنفذ (1) ، مُـكبّا على الدّعاء والبكـاء والتضـرّع لله ـ تعالى ! ـ في أن ينصـر الله المسلمـين ؛ وما علـم أنّه هزم له جيش قط .

ورحل ردريـغ [ص 90] قاصدا قرطبة ، يريد طارقا ؛ فلمّا تدانيا ، تخيّر ردريـغ رجلا شجاعا عارفـا بالحروب وأمره أن بدخـل في عسكـر طارق ، فيرى صفاتهم وهيئاتهم ؛ فمضى حتّى دخله فأحسّ به طارق فأمر ببعض القتلى من الروم أن تقطع لحومهم وتطبخ ؛ فأخذ الناس القتلى من الروم، فقطعوا ، لحومهم وطبخوهم ؛ فلم يشك رسول (2) ردريـغ أنّهم يأكلونها (3) ؛ فلمّا جنّ الليل أمر بهرق تلك اللحوم ودفنها (4) في الليل ، وذبـح بقرا وغنما وطبخ لحومها فأصبـح الناس ، فنودي فيهم بالإجتماع إلى الطعام ؛ فأكلوا ورسول ردريـغ أكل معهم ؛ فلما انصرف الرسول إلى ردريـغ قال له : « أتتك أمّة تـأكل لحوم (5) الموتى من بني آدم ، وصفاتهم الصفات (6) التي وجدنا في البيت المقفل ، قد أحرقوا مراكبهم ووطنوا أنفسهم على الموت أو الفتح ».

فداخـل (7) ردريـغ وجيشه من الجـزع مـا لم يظنـوا ؛ ثم لم يـكـن [ص 219 إ] له بد من المقابلة (8) ؛ فالتقيا يوم الأحد ، فصدق المسلمون القتال ، وحملوا حملة رجل واحد على المشركين ، فخذلهم الله ـ تعالى ! ـ وزلزل أقدامهم وانهزموا وتبعهم المسلمون بالقتل والأسر .

---

(1) في الاكتفاء : حين أنفذ طارقـا (بدون : من)
(2) في الأصل : رسول الله ردريغ ؛ وفي الإكتفاء : وقطعوها ، فلم يشك رسول لذريق .
(3) في الأصل : يأكلـونـه .
(4) في الأصل : ذلك اللحم ودفنـه .
(5) في الأصل : لحـم .
(6) أضافها م.م الورتاني بخطه في الطرة .
(7) في الأصـل : دخـل .
(8) في الأصل المقـاتلة .

ولم يعرف لملكهم ردريغ خبر ولا بان له أثر ؛ فقيل : « إنّه ترجّل وأراد أن يستتر في شاطىء الواد (1) ، فصادف غديرا ، فغرق فيه ، ولهذا وُجد فيه فرد خفه وهو مرصّع بالدرّ والياقوت عليه أُلْحِما (2) ، فانسلّ من رجله ، وقُوّم في المغنم بماية ألف دينار ؛ وانتُهبت محلته وانتشر عسكر المسلمين في الجزيرة يمينا وشمالا ، وكل ما (3) غنم ، أخذ منه طارق الخمس لبيت المال وقسم أربعة الأخماس (4) على كل من حضر الواقعة (5) من المسلمين ؛ فتحصّل منه مال عظيم وامتلأت أيدي الناس ؛ فتسامع الناس به من كلّ مكان ، فجازوا إليه من شرق وغرب ؛ واتصل الخبر بموسى بن نصير (6) ، فكتب به موسى إلى الوليد .

ومضى طارق على وجهه إلى طليطلة ، ففتحها وما وراءها ؛ ووجد في كنيستهم العظمى مائدة نبي الله سليمان بن داود (7) — عليهما السلام ! — ومرآة إذا نظر فيها الناظر رأى الدنيا كلّها بين عينيه ، كانت مدبّرة من أخلاط (8) وعقاقير وأحجار منقوشة بخط يوناني جليل ، وواحدا (9) وعشرين مصحفا مِن التوراة والإنجيل والزبور وصحف ابراهيم وموسى — عليهما السلام ! — ، وخمسة وعشرين تاجا مُكلّلة كلما (10) مات ملك منهم ترك تاجه (11) فيه اسمه وصفته وكم عاش وكم وُلّي ، ومنافعَ الحيوان

(1) في الاكتفاء : الوادي .
(2) في الاكتفاء : عليه الخمل .
(3) في الأصل : وكلما .
(4) في الأصل : الأربعة أخماس .
(5) في الإكتفاء : الوقيعة .
(6) في الاكتفاء : بكتب طارق اليه .
(7) في الأصل سليمان ابن داوود .
(8) في الاكتفاء : أخلاط أحجار .
(9) في الأصل : وإحدى وعشرين .
(10) في الأصل : كل ما .
(11) في الإكتفاء : ترك تاجه وكتب فيه اسمه .

والأحجار والأشجار وطلسمات عجيبة محكمة ، وكتابا فيه الصنعة الكبرى وعقاقيرها واكسيرها وصبغ الأحجار واليواقيت (1) ، والجميع في أوان من ذهب مرصّع بالدرّ والياقوت .

ورجع طارق إلى قرطبة واستوطنها بعد أن أوغل (2) في بلاد الرّوم وانتهى في غزاته إلى ان لقي الناس (3) كالبهائم والوحوش حتى ملّ الناس السفر وخلقت أثوابهم من طول المشي المستمر [ص 91] وقالوا له : « ألم تقنع بما فتح الله عليك ؟ » فضحك وقال (4) : « لو ساعدتموني لسرت بكم [ص 220 إ] حتى أقف على باب رومة وقسطنطينية العظمى وأفتتحُها بإذن الله ! فإذا (5) قد مللتم وسئمتم ، فارجعوا » .

فلمّا بلغ ذلك كلّه إلى موسى بن نصير ، حسده وخاف ان يبلغ (6) الوليدَ فعلُه وفتحُه ، فيسمو (7) عنده ويرأس عليه ؛ فسار بنفسه يريد الجواز إلى الأندلس في عشرة آلاف فارس ؛ وكان معه من التابعين – رضي الله عنهم ! – حنش بن عبد الله الصنعاني (8) وأبو عبد الرحمان عبد الله بن يزيد

(1) في الإكتفاء : والجميع .
(2) في الأصل والاكتفاء : وغل .
(3) في الاكتفاء : لقي الناس أمة كالبهائم .
(4) في الاكتفاء : وقال : تالله .
(5) في الإكتفاء : فإذ .
(6) في الإكتفاء : إن بلغ .
(7) في الاكتفاء : أن يسمو .
(8) من صنعاء الشام ، تابعي كبير ، روى عن جماعة من الصحابة وتوفي بإفريقية سنة مائة . انظر عنه ابن الفرضي في تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس . الجزء الأول (نشر عزت العطار . القاهرة 1954/1373) رقم 391 . ص 148 إلى 151 .
وجذوة المقتبس للحميدي (تحقيق ابن تاويت الطنجي . الطبعة الأولى القاهرة 1952/1372) رقم 403 . ص 189 الى 191 .
والذهبي في ميزان الإعتدال في نقد الرجال . القسم الأول (تحقيق البجاوي . الطبعة الأولى القاهرة 1963/1382) ص 620 رقم 2369 .

الحبي (1) وعبد الرحمان بن شمّاسة المصري (2) وأبو النصر حبّان بن أبي جبلة مولى بني عبد الدار ، ويقال : مولى شرحبيل بن حسنة (3) ، في عشرين رجلا منهم (4) ؛ وجاز الى الجزيرة الخضراء وقصد قرطبة ، فتلقاه طارق فكبره وأعظمه ؛ فعلاه موسى بالقضيب عل رأسه وقرعه ومضى على وجهه حتى دخل قرطبة فقال لطارق : « أحضرني جميع ما غنمتَ وما وجدتَ من الذخائر ! » فأتاه بجميع ذلك وبالمائدة على زوج أرجل وأزال الثالث وخبّاه لأمر دبّره لما أهانه (5) وما شكره ؛ وكانت قطعة واحدة من زمرد خضراء خرط منها أرجلها وحواشيها . فقال له موسى : « ما هذا ؟ » قال : « هكذا وجدتها ! » فصدّقه وصنع لها رجلا من ذهب وتتبع الأخماس والأموال وجمع منها ما لا يحصى عدده ومضى حتى أتى طليطلة وجاوزها ؛ وفتح ثماني (6) عشرة مدينة وغنم وسبا وانصرف وأقام ثلاث سنين يغزو ويجاهد ويدوّخ بلاد الروم ؛ وقد كان أقام طارق [كذا] ثلاث سنين ، ثم جاز البحر وأجاز معه طارق (7) ، واستخلف على الأندلس أخاه عبد العزيز بن نصير .

وقصد دمشق إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك وحمل معه جميع ما جلب من الأندلس وذلك ثلاثون عجَلة موقورة ذهبا وفضة ، ومن الأعلاق النفيسة من الياقوت والدر والزمرد والزبرجد والذخائر الرفيعة والملابس ومائة

(1) تابعي عداده في المصريين كحنش ، ومثله توفي بإفريقية سنة مائة ؛ انظر عنه ابن الفرضي : بنفس المصدر رقم 633 ص 250 .
وفي الأصل : الحلبي ؛ وقد أصلحه م.م الورتاني بالطرة بخطه ؛ وفي الإكتفاء : بن زيد البجلي.

(2) لم تذكره كتب المراجع الأندلسية التي رجعنا إليها ولم نقف عليه بين أسماء التابعين .

(3) انظر عنه ابن الفرضي بنفس المصدر رقم 383 . ص 146 و 147 ؛ وفيه ذكر لكلا الولاءين ووفاته بإفريقية إما في 739/122 وإما في 742/125 ؛ ويذكر ابن الفرضي أيضا رواية تفيد أنه توفي في الأندلس بحصن قرقشونه ؛ وفي الأصل : حيان بن أبي حبلة .

(4) انظر فصل المقري في النفح عن التابعين الذين دخلوا الأندلس . الجزء الأول ص 259 الى 261 من طبعة عبد الحميد (القاهرة 1949/1367) .

(5) في الإكتفاء : لما أصابه وما شكره .

(6) في الأصل : ثمان عشرة وكذلك في الأكتفاء .

(7) في الإكتفاء : طارقا .

ألف من سبي من رجال ونساء وصبيان منهم أربعماية رجل متوجين من ملوك الأعاجم ؛ فلمّا قرب ، بلغه أنّ الوليد (1) [ص 221 إ] مريض ؛ فكتب إليه سليمان بن عبد الملك (2) أخوه وولي العهد من بعده أن يتأخّر حتى يموت الوليد ويقدم بتلك الأموال عليه ، فتكون فالا (3) له في أول ولايته ؛ فلم يفعل موسى بل جدّ (4) السير حتى وصل والوليد بما (5) به ؛ فلم يعبأ (6) به أحد ولا عرفَ مقدارا (7) لما جاء به .

وكان دخوله الأندلس في جمادى الأولى (8) سنة أربع (9) وتسعين من الهجرة وهو ابن ثلاث وسبعين سنة وأشهر (10) ؛ وأقام بإفريقية ست عشرة سنة واليا ، وقفل من الأندلس سنة ست (11) وتسعين ؛ فمات الوليد عن قريب (12) ؛ انتهى بحذف .

وقال غيره : وجازوا لفتحها ومعهم جماعة كبيرة من التّابعين — رضي الله عنهم ! — وصحابيان — رضي الله عنهما ! — [ص 92] ومن قريش

(1) الوليد بن عبد الملك سادس خلفاء بني أمية ؛ تولى من سنة 705/86 الى 715/96 ؛ انظر عنه مقال هـ. لامنس H. Lammens in E. I 1 T IV p. p. 1170 - 1171 art Al Walid B. Abd al Malik

(2) سليمان بن عبد الملك سابع خلفاء بني أمية : تولى بعد أخيه الوليد الى سنة وفاته 717/99 . انظر عنه مقال زترشتان K. V. Zetterstéen in E I 1 T IV p. p.556 - 57 art Sulaimàn B. Abd al Malik

(3) في الإكتفاء : مالا له .

(4) في الأصل : جد السير .

(5) في الأصل : والوليد لما به .

(6) في الأصل : يعب .

(7) في الأصل : مقدار .

(8) في الأصل : في جمادى سنة .

(9) في الإكتفاء : سبع .

(10) في الإكتفاء : ثلاث وستين .

(11) في الأصل : ستة وفي الأكتفاء : خمس ، قارن بما كتبه ليفي بروفنسال في المصدر المذكور . الجزء الأول من ص 24 الى ص 29 .

(12) نهاية النقل عن الإكتفاء .

والأشراف في أواخر القرن ومن أولاد ادريس وغيره لقرطبة في [القرن] الثاني ولغيرها ولها أيضا في الثالث والرابع والخامس الى.... هلم (1) جرّا، على ما ذكره غير واحد من مشايخ الإسلام كالجواني وأبي محمد صالح ابن عبد الحليم وغيرهما ؛ والذين اعتنوا بذكر غرايب وقائع الإسلام جماعة كبيرة — رضي الله عنهم أجمعين ! .

وقد انضمّ الإسلام شيئا فشيئا مرارا ، وآخرها آخر مدّة الإسلام ، [أي] كل ما كان مفترقا في مدن الأندلس ، ما عدا بلنسية ، إلاّ القليل منها ، في سلطنة غرناطة ؛ وبها [أي الأندلس] سبع عشرة مدينة . كلّ واحدة منها بسور عظيم وحصون مُشيّدة البناء (2) ، وبعضها بسورين وحَفِيرين .

وقد صنّف بعض الأكابر ، وهو الإمام الهمام ذو الوزارتين وتاج الرئاستين لسان الإسلام أبو عبد الله محمد بن الخطيب السلماني الأندلسي (3) القائم بالدولة السعدية النصريّة بإقليم الأندلس كتابا سمّاه : **الإحاطة في تاريخ رجال غرناطة** في ثمان مجلّدات ضخمة ؛ وبلغني أن الشيخ الإمام المفتي أحمد المقّري (4) الفاسي الدّار ، رحمه الله — تعالى ! — قد اختصرها بفاس ، ثم مرّة ثانية بمصر المحروسة في مجلّدات عزُب عنّي الآن عددها (5) ؛ وكم من الشيوخ الأكابر كتبوا فملؤوا الدفاتر والدّواوين بأسماء رجال الأندلس خاصة ، فضلا عن ذكر مصنفاتهم وأنسابهم وفضائلهم

---

(1) في الأصل : الى هلما جرا .

(2) في الأصل : البنا .

(3) لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله يعرف بابن الخطيب (1313/713 ـ 1374/776) انظر عنه شجرة النور الزكية لمحمد مخلوف عدد 825 ص 230 .

(4) شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد المقري (1591/1000 ـ 1632/1041) انظر عنه شجرة النور الزكية عدد 1162 ص 300 ـ 301 .

(5) لعله يعني نفح الطيب .

وأحوالهم ؛ وقد جمع فخر القضاة القاضي أبو الفضل عياض (1) — نفعنا الله به ! — ذكر شيوخه من أهل الأندلس ، وطاف البلاد في مدّة يسيرة .

وكم من مجاهد جاهد بها ، فلم ينقطع عنها الجهاد من زمن الفتح الى سنة تسعمائة وست وسبعين ليلا ونهارا من غير فترة ؛ وقد كان كافة أقطار الإسلام تهرّعوا إليها بنفقاتهم في سبيل الله ومتطوّعين ويجرّون لها الأموال والجيوش في سبيل الله ؛ وكم من ملك من ملوك الإسلام جاز إليها بعساكر لا تُعَدّ ولا تحصى ، كثيرة ، إلى أن وجدت بها من كل قبيلة دخلت الإسلام من جميع أجناس الخلق ، خصوصا ذرية الصحابة (2) والتّابعين وتابعي التابعين إلى... هلمّ جرّا (3) ؛ ولم يزل الخير بها متواترا إلى اليوم ؛ وأسأل(4) الله أن يبقي نشره إلى يوم القيامة ؛ وقد حمل بعض العلماء — رضي الله عنه ! — قوله — صلّى الله عليه وسلّم ! — : « لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أمَّتِي ظَاهِرِينَ » . أو قال : « قَائِمِينَ عَلَى الْحَقِّ... الخ (5) » على الأندلس ؛ ففيه دليل على أنّ أهل الإسلام لا ينقطعون منها إلى يوم القيامة .

وقد جازت الأشراف إليها من مرّاكش وصنهاجة من بلاد المغرب وفاس وتلمسان والجزاير وبجاية وبونة — وبتونس اليومَ وزغوان قريتها والجزائر والقسطنطينية العظمى وبرصة وغيرها (6) منهم ، أي من أشراف بونة ؛ على

(1) انظر عنه شجرة النور عدد 411 ص 140-141 ؛ وقد توفي 544/1149 .
ويشير هنا إلى كتابه الغنية .
يقصد طبعا الثورة الأخيرة التي قام بها ابن أمية وعبد الله بن عبو في 976/1567 (انظر E I 1 T III p. p. 646 - 47 art Moriscos de E. Lévi - Provençal et E I 2 p. 1383art al Busha:ràt de C F Seybold A. Huici - Miranda

(2) في الطرة بخط الناسخ ذكر عبد الله بن محمد بن نصر الأسلمي من ولد بريرة بن الخصيب الأسلمي صاحب النبي مع بيان أنه من أهل قرطبة وأن وفاته في 395 .

(3) في الأصل : إلى هلم جر .

(4) في الأصل : واسئل .

(5) النص كما ورد في الصحاح حسب فنسنك في مفتاح كنوز السنة ص 64 : « لايزال ناس من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون » .

(6) في الأصل : وغيرهما .

ما ذكره غير واحد من أكابر العلماء ، رضي الله عنهم ! — وتونس الخضراء — ومنهم أجداد أخينا في الله الشريف بركات [ص 93] شيخ الوقت بتونس المعروف بالنجّار (1) — إلى قرطبة ؛ ثم جاؤوا منها وبقي بها من بقي .

وقد رأيت تقييدا على ظاهر كتاب **سنن المهتدين في مقالات الدّين** للشيخ الإمام أبي عبد الله محمد العبدري القرشي الشهير بالمَوّاق الأندلسي الغرناطي (2) ، إمام الجامع الأعظم بها [أي غرناطة] أعادها الله للاسلام ؛ وقد أرسل كتابه المذكور صحبة بعض الأشراف من الحسينيين من الأندلس لإمام الحضرة العليّة تونس المَحميّة ، وكَتَبا معه للشيخ الإمام الهمام مفتي الخاص والعام أبي عبد الله محمد الرصّاع (3) إمام الجامع الأعظم ، جامع الزيتونة ، عمّره الله — تعالى ! — بدوام ذكره ليكتب له عليه ، ويتبرّك بأثره لديه بالفة صادقة ومعاملة دينية سابقة بين الحضرتين عامة .

فقد سمعت شيوخنا — رحمهم الله — تعالى ! — يقولون بذلك حتّى كان عقد نكاح أفاضل كلّ واحدة من الحضرتين بأفاضل الأخرى ؛ وتتشرف كل واحدة منهما (4) بصاحبتها ويتوادّون ويتحابّون ؛ ولقد رأيت من أهل هذه الحضرة العليّة التونسيّة ومن أهل الأخرى كثيرا من الناس الأكابر ؛ ولم ينقطع من بينهما الوصال إلى أن قدّر — سبحانه ! — بأن أتى بنا إليها في أوائل القرن الحادى عشر ايثارا لها لأجل الحبّ السابق والودّ التايق وليعمرها (5)

---

(1) ما زالت عائلة النجار تعرف ببعض بلدان تونس .

(2) أبو عبد الله محمد بن يوسف العبدوسي الغرناطي الشهير بالمواق (1491/897) انظر عنه شجرة النور رقم 961 ص 262 .

(3) أبو عبد الله محمد بن قاسم الرصاع الأنصاري التونسي (1488/894) : انظر شجرة النور رقم 952 ص 259_260 .

(4) في الأصل : منهـا .

(5) في الأصل : ليعمروها ؛ ويظهر أن م.م الورتاني هو الذي أضاف الواو بخطه الى الأصل .

أنجال الأحباب القدماء (1) ؛ فينبغي لكلّ واحد منهما أن يكرم أهل ودّ أبيه . لأنّ الشرع العزيز الشريف العليّ المحمديّ أوصى بذلك .

وما رأيت من قام بالودّ والحبّ السابقين واللاحقين — فكأنّ الله خبأه لذلك — إلاّ شيخنا الأستاذ ، رحمه الله — تعالى ! قال في بعض رسائله حين قدوم اخواننا الأندلس [كذا] إليها وتفرّقهم في الزوايا والمدارس لكثرتهم ، جوابا لمن اشتكى له من إخواننا الفقراء ما صورته ، حاكيا عن بعضهم : [البسيط] .

لَوْ عَلِمَتْ الدَّارُ مَنْ قَدْ زَارَهَا
لاَسْتَبْشَرَتْ ثُمَّ بَاسَتْ مَوْضِعَ الْقَدَمِ (2)
وَنَطَقَتْ بِلِسَانِ الْحَالِ قَائِلَةً :
« أهْلاً وَسَهْلاً بِأهْلِ الْجُودِ وَالْكَرَمِ »

وقد كان — رحمه الله — تعالى ! — يخرج للفقراء منهم من زاويته — عمّرها الله — تعالى ! — بمن فيها إلى يوم الدّين كلّ يوم ألف خبزة وخمسمائة خبزة ما عدا أطعمة أخرى ؛ ولا نطيل بما صدر من الأستاذ ، رحمه الله — تعالى ! — .

وكذلك ما صنع المرحوم أبو عمرو عثمان داي (3) ، رحمه الله — تعالى ! — ؛ وكذلك العسكر المنصور ، أيده الله — تعالى ! — فجزاهم الله عن الإسلام وأهله خيرا ! آمين !

---

(1) في الأصل : القدما .

(2) ورد البيت الأول على خطأ في الوزن ؛ وقد بدا لنا تصويبه ممكنا على الصورة التي أثبتناها ؛ وهو في الأصل هكذا :

لو علمت الدار من قد زارها فرحت واستبشرت ثم باست موضع القدم

وقد أدرج الناسخ : فرفي المصراع الأول ؛ ثم ألحقتها بالمصراع الثاني يد ثانية لعلها يد الورتاني.

(3) عثمان داي تولى الحكم بتونس من 1598/1007 الى 1610/1019 انظر عنه ابن أبي الضياف في اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان . الجزء الثاني (تونس 1963) ص 28 الى 31

ولنرجع إلى ما كنّا بصدده فأقول : ثم أجاب الشيخ الإمام الفاضل الهمام أبو عبد الله محمد ابن أبي القاسم الرصّاع الأنصاري — نفعنا الله به دنيا وأخرى ! — بما صورته ، مع حذف منه : « الحمد لله الذي أبقى نجوم الإقتداء « بأفق الجزيرة الخضراء ، وأضاء بنور كواكبها المغارب والمشارق (1) ، « وألقى الإشعاع شاهدا (2) لنور ضيائها من علماء غيرها ، السابق منهم « واللاحق . وأطلق الحكمة على لسانها فكشفت عن حقيقة الحقائق ونوّرت « الأفئدة بنورها فوصلت ، وعزّني بمعرفة [ص 94] العزيز الخالق ! » .

ثم قال : « وبعد ، فإنّه من منّة الله وفضله ، ونعدّه من كمال نعمه « وطوله . أن أطلعني على كتاب مكنون يتنوّر به أهل البداية . ويصل بنور « سُننه أهل النهاية ؛ وقد أحاط مع إيجاز لفظه بالكشف عن الحقائق والمعارف « واشتمل تأليفه على شريف النكت واللطايف ؛ وهو الكنز المذكور والكتاب « المشهور المنسوب إلى الشيخ العلاّمة أفضل المتبتّلين وأكمل المتبحّرين ، « الفقيه العالم المُفتي الإمام الصالح المتخلق السيد أبي عبد الله محمد ابن (3) « الشيخ المقدّس المرحوم أبي يعقوب يوسف الموّاق ، الخطيب الآن بجامع « غرناطة ، حرسها الله — تعالى ! — عن بوائق الزمان وحصنها من طوارق « الحدثان ، لأنها محطّ لرجال المجاهدين الأفاضل ومخيم الرّجال أرباب « الفضائل ؛ أثاب الله — تعالى ! — مؤلف هذا الكتاب بأن أسكنه فراديس « الجنان وأفاض عليه شيئا من (4) الغفران !

« وقد تأمّلت فاتحته ووسطه ، فوجدت وسطه كنزا كريما وتأليفا « مباركا عظيما ، جامعا لغرر سنن المهتدين ، مانعا من الآفات لأصول مقام

(1) في الأصل : المشاق .
(2) في الأصل : الاشجاع شاهدة .
(3) في الأصل : بن .
(4) في الأصل : بيت الغفران .

« أهل الدّين ، مطابقة تسميته مما سمّاه به مؤلّفه أكمل المتبحّرين ، محتويا على
« حقايق لباب أرباب الحقايق ، منطويا على دقائق آراء أهل الطريقة ، نتيجة
« أنتجتها (1) أفكار العلماء العاملين وثمرات أثمرتها أبكار المقتصدين
« والسابقين » .

ثم بعد ذلك علم أن مؤلّف التأليف ومصنّف التصنيف من الرّجال السادة وشمّ عليه رائحة التخلّق ، وذاق منه حلاوة التحقّق وأنّه قد انخرقت له من نفسه العادة .

ثم قال : « ووجود هذا النجم المنير قد ظهر في زمن غربة العلم الذى لم
« يبق منه إلاّ اليسير ، قد ذهبت مراسمه وعفت أطلاله ومعالمه وكسفت فيه
« شموس الفضائل على أفل الأفول ، واستوطنت الأفاضل زوايا الخمول ؛
« ثبّت الله — تعالى ! — الحقّ بمثل هذا المُبرِّز في ذروة العزّ ثبوتا لا يَبيد
« وكشف عن وجوه أسرار الحقائق بعزّه الذي لا يتعفّى ولا يحيد ، وصيّرنا
« وإيّاه من أهل السعادة المتخلّقين بأخلاق القرآن المجيد !

« وقد ذكّرتنا ، يا سيدنا ، في معاني الآية الكريمة ، وما فيها من الدّقايق
« والأسرار ؛ ولعلّ الله إن أفسح في الأجل ، نذكر فيها ونبعث لكم
« بمنافعها ممّا غطته الحجب والأستار ! كان الله لكم ورفع منزلتكم كما
« حسّنتم الإعتقاد في رجل قوي الجهل ، قليل الزاد ! ستر الله — تعالى ! —
« فضائحنا في يوم تبلى فيه السرائر وتكشف فيه الأستار وتظهر الحقائق ويتميّز
« الأبرار من الفجّار ! وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمد نبيّه المصطفى
« المختار الرّحيم بنا في هذه الدار وفي تلك الدّار ، وعلى آله وأصحابه
« الأخيار ، وسلّم تسليما سلاما نجده عدّة من عذاب النّار ! كتبه عبيد الله

(1) في الأصل : أنتجها .

« وابن عبده ، مسلّما على من يقف عليه من أهل ودّه ، محمد ابن أبي القاسم « الرصّاع [ص 95] وفّقه الله ولطّف به في الدّارين بمنّه وفضله ! » .

وقدم بهذا الكتاب المبارك على الحضرة العليّة المولويّة العثمانية الفاروقية أوائل عام ستة وثمانين وثمانمائة ــ أدام الله أيّامها الزّاهرة وشفع لها بين نعيم الدنيا وبين نعيم الآخرة ــ الشيخ الأجلّ الأحظى الأرضى أبو عبد الله محمد ابن الفقيه الأجلّ المعظّم أبي العبّاس أحمد الشريف الحسيني الغرناطي ، بلّغه الله أمله وحسّن قوله وعمله وصيّرنا وإيّاه من الناجين ، وحشرنا وإيّاه في زمرة سيّد المرسلين (1) ! انتهى المراد .

ثم أقول : فقد ظهر لك من كلام هذا الإمام العظيم ــ رحمه الله ــ تعالى ! ــ ونفعنا به ، المدحُ الذي به مدح البلاد . وكونُه سمّاها بالجزيرة الخضراء ورجّح علماءها على علماء غيرها ، وأنّ غرناطة بالخصوص كانت محطّا (2) لرجال المجاهدين الأفاضل ومخيّم أرباب العلم والفضائل ؛ فيقال كما قيل : [البسيط]

لاَ يَعْرِفُ الْمَجْدَ إلاَّ مَنْ يُكَابِدُهُ
لاَ يَعْرِفُ الْقَدْرَ إلاَّ مَنْ لَهُ قَدَرُ (3)

وقد كان شيخنا العلاّمة سيدي ابراهيم الفلاري ــ رحمه الله ! ــ يقول في مجلسه مرارا حين قراءتي عليه : « زُرع العلم بمكة ، ونبت بالمدينة وحُصد بمصر ودُرس بالقيروان وخُزن بالأندلس » ، انتهى ؛ ثم يقصدني بالكلام

---

(1) يظهر أن هذه الفقرة تأليف مشترك بين الرصاع وابن عبد الرفيع ؛ فالحديث عن الغرناطي لا يمكن أن يكون الا لمعاصر له من القرن التاسع والحديث عن الحضرة تونس لا يكون الا لمتأخر عنه .

(2) في الأصل : محط .

(3) في الأصل وبالمصراع الثاني : ولا يعرف....

فيقول : « انظر كيف خُزِن العلم ببلادك ولم يبق لنا إلاّ ما وقع من الحَبّ ! » ثم تأخذه خشية فيبكي ، رحمة الله — تعالى ! — عليه ! .

ثم لنرجع إلى حيث منه خرجت فأقول : وقد جاز (1) أيضا الأشراف إليها من القيروان ومساكن والمهدية ؛ وقد عرفتُ ببلادنا منهم (2) أناسا كثيرين ، تناسلوا هناك من قبل أن أخذت ومن بعد ذلك ، ثم رجع بعض منهم إلى تونس وهم بها اليوم ؛ وكذلك من سوسة . وسيوة وغيرها من بلاد الصحراء والسودان ؛ وأمّا من أهل الإسكندرية (3) ومصر المحروسة ، فلا نطيل بذكرهما ؛ وقد بنوا بغرناطة رباطات ؛ ورأيت أيضا من بني برقوق الأمير ؛ وكان بها أيضا ، من بغداد ومن أولاد العبابسة ومن الشام واليمن وغيرهما وأولاد فهر بن مالك ، جماعات . وأولاد غالب ؛ وبتونس اليوم منهم ومن النضر وكنانة ومن المطيعين (4) . وهم بنو (5) مطيع بن الأسود ابن حارثة بن نضلة بن عبد العزّى بن حرثان بن عوف بن عويج بن عدي بن كعب (6) ؛ وأمّا من الأنصار من أولاد سعد بن عبادة — رضي الله عنه ! — سيّد الخزرج ، فجماعات كذلك ؛ وملوكها (7) منهم ومن الأوس وقيس وغيرهم ؛ وأمّا من بني هاشم ، فكثيرون ؛ ومنهم فيها أيضا من الطالبيّين ومن الجعفريين وأولاد الحسن — رضي الله عنه ! — ومن الحسينيين ، كما هو معروف وكذلك المحمديين ولد محمد بن علي ، رضي الله — تعالى ! — عنه !

(1) في الأصل : جازت .
(2) في الأصل : منها .
(3) في الأصل : سكندرية ..
(4) في الطرة بخط الناسخ بيان أنهم الآن بتطاوين .
(5) في الأصل : بنوا مطيع .
(6) عن هذا الصحابي الذي مات في خلافة عثمان ، انظر ابن عبد البر في الاستيعاب في معرفة الأصحاب (تحقيق البجاوي . نشر مكتبة نهضة مصر القاهرة في أربعة أقسام — بدون تاريخ) القسم الرابع . رقم 2556 ص 1476 و 1477 ؛ واسمه الكامل كما أثبته ابن عبد البر هو : مطيع ابن الأسود بن حارثة بن نضلة بن عوف بن عبيد بن عويج بن عدي بن كعب القرشي العدوي .
(7) في الطرة بخط الناسخ وإعادة الورتاني : « أي ملوك غرناطة ، أعادها الله — تعالى ! — للاسلام ! »

وبها العمريون ولد عمر بن علي — رضي الله عنه ! — ، وفيهم أفخاذ ، والعباسيّون وبطن [ص 96] الزيديين ، وفيهم قبائل ، والعراقيون (1) ، وهم ولد علي العراقي بن الحسن بن محمد بن الحسين بن عيسى ؛ وكذلك رأيت ببلادنا جماعة من أولاد محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب ، رضي الله — تعالى ! — عنه ! ؛ وبتونس اليوم منهم رجلان من جدتهما للأمّ ، ولهما أولاد الآن بها — وكذلك كان بها من الحمزيين ولد حمزة بن عبيد الله ؛ وكان بها أيضا من بطن بني الفقيه ، ويقال لهم اليوم : بنوا فقي (2) وهما قبيلتان : إحداهما ولد أبي ظاهر أحمد بن عيسى بن عبد الله بن محمد بن عمر ابن علي بن أبي طالب — رضي الله عنه ! ؛ وبتونس اليوم منهم جماعة ، وأهل العبد (3) الآن منهم من قِبل أبيها ؛ وأمّا أمّها فأدوية قرشيّة وكذلك أمّ أبيها ؛ وكذلك منهم بحضرة مراكش وسلا ؛ والأخرى من أولاد الحسين ابن علي بن أبي طالب ، رضي الله — تعالى ! — عنه ؛ وكان بها أيضا من بطن بني سلطان (4) وهم ولد محمد سلطان بن اسماعيل بن عمر بن محمد بن محمد بن علي — رضي الله عنه ! ؛ وبتونس اليوم امرأتان من هذا البطن ، ولهما أخ أيضا ببني زرت .

وعرفت أيضا بالأندلس من بني أميّة الأكبر بن عبد شمس ؛ ولنا معهم قرابة من قِبل الأمّ ، وبتونس اليوم جماعة ؛ ومنهم العثمانيون ، وهم بنو عثمان أمير المؤمنين ابن عفّان ؛ وجاءت إلى تونس منهم جماعة منهم فرج الأندلسي ، ومن بني مروان بن الحكم ابن أبي العاص بن أمية بطون ؛

---

(1) في الطرة بخط الناسخ تعليق : « وبفاس المحروسة منهم وغيرها جماعة » .

(2) في الطرة بخط الورتاني : بنو قي .

(3) أي زوجة المؤلف كما أشار إلى ذلك في الطرة الورتاني بخطه .

(4) في نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب للقلقشندي (تحقيق ابراهيم الأبياري الطبعة الأولى — القاهرة 1959) ص 104 ، ذكر لآل سلطان مع بيان أن الحمداني أدرجهم في عرب برية الحجاز ولم يعزهم إلى قبيلة وعدهم في أحلاف آل مرا ، من عرب الشام . وقد أصلحها الورتاني بخطه في الأصل بـ : سطليــن .

وجاءت إلى تونس جماعة منهم ويعرفون اليوم ببني أبي العاص ؛ وبمصر أيضا جماعة اليوم (1) .

وعرفت جماعة ببلادنا يقال لهم الزبيريون ، وهم بنو الزبير بن العوّام ابن خويلد بن أسد ؛ وبتونس وبعض قراها منهم جماعة ؛ وكذلك كان بالأندلس بنو البحتري وهب (2) ، وكذلك من الشيبيين وهم بنو (3) شيبة ؛ وكذلك رأيت جماعة كبيرة من العزيزيين ، وهم بنو عزيز بن المغيرة بن عبد الرحمان بن عوف (4) ، رضي الله عنه ! وأكثرهم اليوم بتونس الخضراء ، منهم أبو عبد الله محمد عبد العزيز وابراهيم أخوه ، ولهما أولاد ولأولادهما أولاد ، منهم بتونس ومنهم بزغوان (5) .

وأما من تناسل من بني مخزوم بن يقظة بن مرّة فكثيرون ، وكذلك بالأندلس المغيريون بنو المغيرة (6) والعايذيون وهم بنو عائذ بن عمران (7) ، وهم جماعة كبيرة ، ويقال لهم : بنو عمران ، ولنا معهم قرابة مع بطن ، والعمريون هم بنو عمر ؛ وأمّا من تناسل من بني عمر ، ويقال لهم : العمريون ، من أولاد أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب — رضي الله عنهم أجمعين ! — فذكور وإناث .

---

(1) ذكر القلقشندي نقلا عن الحمداني أن منهم جماعة بصعيد الديار المصرية في أعمال الأشمونيين .

(2) في جمهرة أنساب العرب لابن حزم (تحقيق عبد السلام هارون – القاهرة 1962) ص 119 : « وهب بن وهب بن كثير وهو أبو البحتري القاضي ، متهم بالكذب » وذكر ابن حزم أنه ولد المطلب بن أسد بن عبد العزى .

(3) بنو شيبة بن عثمان بن طلحة بن عبد الدار ؛ (انظر القلقشندي في نفس المصدر ص 310) .

(4) ذكر ابن حزم (انظر المصدر السابق ص 334) : بنو عزيز بن مالك بن عوف .

(5) في الطرة بخط الورتاني أن من أولاد أبي عبد الله محمد عبد العزيز ، مصطفى شيخ الأندلس بتونس ، وهو شريف لأمه وأن لأمه أحفادا هم اليوم بتستور بالبلاد التونسية وكذلك بمصر القاهرة .

(6) ذكر ابن حزم (انظر المصدر السابق ص 92) بني المغيرة الإشبيليين على أنهم من ولد المؤمن بن الوليد بن يزيد .

(7) في الأصل : العايديون وهم بنوا عايد بن عمران ؛ وفي ابن حزم (المصدر السابق ص 141) حديث عن بني عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرة .

وبمعرفة هذا ، يستدلّ على خيرهم وقوّة جهادهم وشدّة تمسّكهم في دينهم وعدم جزعهم وصبرهم (1) على المشاق وقبضهم على دينهم العزيز الخالص ، فكانوا بين أظهر عدوّ الدّين ، قابضين على الدّين المحمّدي الطاهر كالقابض على جمر .

وأما من تناسل من قبائل البربر غمارة وبني [ص 97] مرين والمصامدة وزناته وغيرها ، فلا يعدّ كثرة . انتهى .

وأقول : وإنّما تعرّضنا لذكر بعض الشرفاء (2) من إخواننا الأندلس [كذا] للتنبيه على عاوّ منزلتهم وشرف نسبهم ، ولحفظ نسبهم الشريف ؛ وقد قال — صلّى الله عليه وسلّم ! — : « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى » (3) .

وفيما جرى القلم [به] في هذه الورقات المسطورة كفاية ، لأنّ قدر النبيّ — صلّى الله عليه وسلّم ! — وطهارة آبائه الكرام وذريته لا حدّ لهما ولا نهاية ؛ وقد قصدت بهذا المجموع المبارك ، وجه الله العظيم وذخيرة أجدها ليوم الهول الجسيم ، « يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ . إلاّ مَنْ أَتَى اللّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » (4) ؛ وجعلت هذه الخاتمة ، ولو خرجت في الظاهر عن بعض مقصود الكتاب ، شفقة ورحمة على بعض المحبّين من الأحباب ، ورجاء دعاء صالح يدركني من الإخوان ورضا لي ولهم من العزيز الرّحمان .

فالحمد لله الذي تفضّل علينا بالإسلام والإيمان في دار الكفر والطغيان ، وجعلنا من أمّة خلاصة صفوة ولد عدنان ، ورزقنا في هذه الدّار صحبة العلماء

---

(1) في الأصل : وبصبرهم .

(2) في الأصل : الشرفا .

(3) انظر الإحالات على كتب الصحاح في مفتاح كنوز السنة ص 512 .

(4) الآيتان 88 و 89 من سورة الشعراء .

السادة الأعلام ، وأرشدنا لاتّباع آثار أوليائه العارفين الكرام ، الوارثين سنة نبينا محمد — عليه أفضل الصلاة وأزكى السّلام ! — القائمين ظاهرا وباطنا بحقوق شعاير الإسلام ! جعل الله — سبحانه وتعالى ! — سعينا وسعيهم مشكورا ، وخطايانا ووالدينا وأهالينا وأولادنا مغفورا .

⁂

وقد وقع الفراغ من جمعه وتحرير فصوله وكتبه عشية يوم الجمعة الزهراء بحضرة تونس العليّة الخضراء ، سادس شعبان المعظم الكريم ، من عام أربعة وأربعين وألف من هجرة صاحب الفضل العميم ؛ فصلّى الله وسلّم عليه وعلى آله وأصحابه وأهل بيته أجمعين صلاة وسلاما دائمين متعاقبين إلى يوم الدين ! على يد جامعه وكاتبه لنفسه العبد [الفقير] إلى الله محمد الرّفيعي الغيثي الشريف الجعفري الأندلسي المرسي الأشعري المالكي القرشي ، طريقة ومذهبا واعتقادا ومولدا ، وبأحد الحرمين الشريفين — إن شاء الله ! — مدفنا ! آمين ! آمين ! آمين ! ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم ! .

كتب بتونس الخضراء أواخر جمادى الأخرى من عام تسعة وأربعين وألف ؛ وإنّ [له] كل حمد وكمال ! وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله ! . بلغت المقابلة ، جهد الطاقة ، بالأصل بحال عجلة جدّا يوم الجمعة (1) .

⁂

[ص 98] (2) الحمد لله ! أقول : وقد بلغني وفاة مؤلفه وانتقاله إلى الدّار الآخرة — رحمه الله ! — يوم الثلاثاء من الحجة الحرام خاتم شهور سنة 1052

---

(1) في الطرة وبخط الورتاني : المذكور .

(2) هذا التعليق بآخر المخطوط بخط مغاير للبقية ؛ وهو للورتاني ، وبخطه كما تشير إليه نهاية التعليق .

بمكة المشرفة بالحرم الشريف ، تجاه باب الكعبة المشرّفة ، بين الصلاتين ؛ رحمه الله ونفع به وبمشايخه ! آمين ! والسلام ! .

هذا ما وجد بالنسخة التي وقع النسخ منها .

قلت : انتهى النسخ ثم المقابلة في يوم الثلاثاء الخامس عشر من صفر الخير والسابع والعشرين من افريل الإفرنجي 1937/1356 ؛ وكان الكتب على يد السيد محمد بن بلقاسم العجنقي المثلوثي نزيل مدرسة النخلة بتونس في طلب العلم ، وذلك على ذمّة السّاعي في كتب هاته النسخة ، كاتب هذا التعليق محمد المقداد الورتاني ؛ أثاب الله الكاتب والساعي ووفّق الجميع لجميل المساعي ! .

كتاب العز والمنافع
للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع

لإبراهيم أحمد بن غانم بن محمد
ابن زكرياء الأندلسي الشهير
بالعجم بالمرباش .

عن مخطوطة المكتبة القومية بتونس برقم 1407 ؛ وبها 141 ورقة وبالصفحة 22 سطرا ومقياسها : 21 × 15،5 ؛

بدايته : [ورقة 1 ظهرا] : « هذا برنامج الكتاب فيه خمسون بابا وما صور المؤلف في أوله من رحلته وما ذكر مترجم الكتاب من الأعجمي إلى العربي في آخره من رحلة وفضل الجهاد وغير ذلك » .

نهايته : [ورقة 141 وجها] : « كمل الخمسين [كذا] بابا لهذا الكتاب [...] وكان الفراغ من تسويده صبيحة يوم الاربعاء خلت من أولى جمادى سنة أربعة [كذا] وخمسين ومايتين من الهجرة [...] » .

والخط تونسي واضح ؛ وبالمخطوطة صور آلات حربية ، وعنوان الأبواب بالخط الأحمر .

وقد أخبرنا صديقنا الأستاذ ابراهيم شبوح محافظ المخطوطات العربية بالمكتبة القومية بتونس أنه يستعد لنشره ، بالإشتراك . ويلذ لنا أن نعبّر له عن شكرنا لما وجدنا لديه من حسن المساعدة كلّما زرناه بمقر عمله .

[ورقة 4 ظهرا] « وبعد يقول العبد الفقير الرّاجي عفو الله وغفرانه وحلمه وعافيته ورحمته في دينه وآخرته إبراهيم الشهير بالعجم بالمرباش ابن أحمد بن غانم بن محمد بن زكرياء الأندلسي من نولش (1) من اقليم غرناطة ؛ ثم انتقل منها بعد القيامة (2) الى قرب مدينة غرناطة ؛ وفيها كان انتشائي ومسكني عند الا الى أن أمر سلطان النصارى (3) جميع الأندلس [كذا] الذين تأخروا عن الخروج الأول بالإ[ر]تحال إلى بعض البلاد من بلاده الخارجة عن سلطنته غرناطة ، وذلك قبل التاريخ هذا بنحو الثمانـ[ـي] و [الـ]ـأربعين سنة ؛ وسكنا بمدينة إشبيلية ، وتولعت بالسفر في البحر المحيط ؛ فسافرت فيه مرارا ، ثم سافرت في السفن الكبار المسماة بالقيلونية (4) ، بالأعجمية ، التي تأتي بالفضة من الهنود المغربية البعيدة ؛ فكانت تمشي عمارةً كما هي من عاداتهم ، وفيها جيش ورجال عارفون بآلات الحرب البارودية ؛ وكانوا يجتمعون مع أكابر القوم للكلام في تلك الصناعة وتارة يأتو[ن] بالكتب المؤلفة في ذلك الفن وهي كثيرة ، لأن العارفين بالعلم المباشرين للعمل (5) وغيرهم لمّا رأوا أن ملوكهم يعظمون أهل ذلك الفن ومن يؤلف فيه اعتنوا (6) به .

وكنت أجالسهم وأحفظ ما يتفقون عليه [ورقة 5 وجها] وأشتغل (7) بيدي في المدافع ، وجميعهم لا يظنون (8) أنني أندلسي ؛ وفي الزمن الذي

(1) لم نتوصل إلى التعرف على هذه المدينة ولعلها بليش Vélez فحرفت .
(2) لعله يشير الى ثورة غرناطة التي انطلقت من البيازين ، وانتهت سنة 1568/976 ؛ وقادها أولا ابن أمية ثم عبد الله بن عبو : وعمل المركيز دي مندخار دون جوان دي اوتريش (النمسا) على قمعها في حملات عنيفة دامت سنوات طويلة . (انظر فصل المورسكيين Moriscos في دائرة المعارف الاسلامية .
(3) في الأصل : الناصر بن علي ، وقبل العبارة بياض بالنص .
(4) الإسبانية (es) galéon
(5) في الأصل : بالعمل .
(6) في الأصل : فاعتنوا .
(7) في الأصل : ونستقبل .
(8) في الأصل : لا يظنون في أنني .

أمر [فيه] سلطان النصارى بإخراج جميع الأندلس [كذا] من بلاده ، كنت مسجونا من أجل ما وقع لي مع بعض النصارى على أمور راجعة الى دعوى النفس بالشجاعة ؛ وكان لي من أكابرهم من يعتني [بي] ويصاحبني ، حتى خلصني الله من السجن ؛ فأردت الخروج من تلك البلاد إلى بلاد المسلمين مع جملة الأندلس [كذا] ومنعوني من ذلك ؛ فعملت بينة بأنني من الأندلس لأخرج (1) معهم ؛ ولم ينفعني شيء من ذلك ؛ ثم أنفقت دراهم في الرشوات وخرجت من بينهم وجئت إلى مدينة تونس — حرسها الله ! —

فوجدت فيها كثيرا من الأصحاب والأحباب والأندلس [كذا] ؛ وأقبل علي أمير المدينة عثمان داي (2) — رحمه الله ! — وقدّمني على مايتي رجل من الأندلس وأعطاني خمسماية سلطانية ومايتي مكحلة ومايتي سكينا وغير ذلك مما يحتاج إليه في سفر البحر (3) ؛ وركبنا بأصحابنا في سفينة لم تجر (4) إلاّ نحو الستة [الـ]ـأشهر ؛ ومات ، رحمه الله ! ؛ وبعد موته بقليل ، ولينا إلى تونس بغنيمة قليلة وأنا مجروح من حرب الأعداء ، حتى أشرفت على الهلاك ؛ وبعد أن برئت ، ركبنا البحر وسافرنا فيه في طلب الكفار وأموالهم ونحن بقرب مدينة مالقة ، وهي على حاشية هذا البحر الصغير ؛ والتقينا (5) بأحد عشر غرابا ، وذلك في نصف شهر أغشت ، والبحر ساكن ولا شيء من الريح ؛ ووقعـ[ـت] الحرب الشديد[ة] ومات من الجانبين خلق كثير ، ودام الطراد الكبير ، حتى لم يبق منا إلاّ القليل وأسرونا ؛ وصحّ أنّ من الكفار أعدائنا (5) مات في ذلك اليوم (6) أكثر من ستماية رجل ؛ وكان فيهم أكثر

(1) في الأصل : لنخرج معهم .
(2) قد مر التعريف به .
(3) في الأصل : البر .
(4) في الأصل : لم تجد .
(5) في الأصل : تلقينا . (5 م) في الأصل : أعدانا .
(6) في الأصل : تلك .

من عشرين من أكابرهم ؛ وأنا مثقل بالجراح ، ثمّ فرّج الله عليّ من الأسر بعد السبع [الـ]ـسنين [ورقة 5 ظهرا] (1) .

ثم وليت إلى تونس ، والأمير يوسف داي أمرني بالقعود في حصن حلق الواد[ي] . ونحن من أهل الجيش في المراتب ؛ وفيها كمّلت معرفة آلات المدافع بالإشتغال بيدي فيها وبالقراءة في كتب الفن ؛ ولما رأيت الطائفة المسماة بالمدافعين المرتّبين لا معرفة لهم بالعمل وأنهم لا يعمّرون ولا يرمون بما يقتضيه العمل ، عزمت على تصنيف هذا الكتاب ، لأن كل مدفع له قيمة مال [وتلقى] تعبا في إيجاده ، ثم يوكل على تسخيره والرمي به من يكسره ويفنيه في الرمية الأولى أو في الثانية ، والموكل عليه الذي يعمره قريب(2) من الهلاك ، فحملني على تصنيفه النصح له ولمن وكله عليه .

أسأل (3) الله أن يقبل النية ، إنها أبلغ من العمل ، وأن ييسّر لي من يعربه (4) من الكلام الاسبنيول ، وهو الكلام العجمي المتعرف ببلاد الأندلس ؛ وما (5) قصدت به نفعا دنياويا (6) بل الإخلاص لله لنكتب منه نسخا ونبعثها — إن شاء الله ! — لبعض المواضع من بلاد المسلمين ، ونذكر فيه ما يحصّل النفع من وجوه ، للمدافعين (7) القائمين بما وجب عليهم من الحقوق فيما تصدّروا وتكلّفوا من خدمة أمراء المسلمين ؛ ويُجِلّ لهم الأجر عند الله — سبحانه ! — بتفريج المسلمين بإتقان أعمالهم وتخويف أعدائهم الكافرين » .

---

(1) أنظر ما يقوله أستاذنا حسن حسني عبد الوهاب عن دور الموريسكيين في القرصنة : المجلة التونسية Revue Tunisienne . تونس 1917 السنة : 24 ، العدد 120 . ص : 374 .
(2) في الأصل : قريبا .
(3) في الأصل : ونسأل .
(4) في الأصل : من يعربه بالعربية .
(5) في الأصل : نفع دنياوي .
(6) في الأصل : ولا قصدت .
(7) في الأصل : وللمدافعين .

المنتصر بن أبي لحية القفصي
وللهجرة الأندلسية الأخيرة الى تونس

الفصل الثاني :

في فعله [أبي الغيث القشاش] مع الأندلس [كذا] وما خالقهم به — رضي الله — تعالى ! — عنه ! .

[ورقة 2 ظهرا] « قال العبد الفقير الى الله المنتصر : لما جاء الأندلسيون الى تونس ، كنت أنا بتونس [ورقة 3 وجها] برسم الزيارة ، وكنت ذات يوم خارجا من باب بشرقي جامع الزيتونة ، فلقيت كبراء الأندلس ومشايخهم ؛ وفي أيديهم ورقة كاعظ [كذا] (2) وهم يفتشون على من يقرؤها لهم ، فصادفوني؛ فقال : « أنت تقرأ خط الشيخ سيدي أبي الغيث ؟ » فقلت لهم : « نعم ! » ، فأطلعوني على ورقة مكتوبة بالأخضر فيها مكتوب :

---

(1) اعتمدنا نسخة الأحمدية برقم 3883 وقد مر وصفها ؛ واذ عجزنا عن الحصول عن النسختين الأخريين برقم 3772 و3773 ، فقد استطعنا الإستفادة منهما بفضل من أعارنا نسخته الخاصة المنسوخة عنهما ؛ كما رجعنا لتحقيق هذا النص الى ما نشره الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، وقد مر الحديث عن عمله .

ولم نستطع التعرف على صاحب الكتاب ، المنتصر ؛ وأما عن تاريخ تأليفه لهذا الكتاب، فقد ذكره [ورقة 1 ظهرا] : « ألفت هذا التأليف ما بين شهر صفر الخير وربيع الأول بعد موت الشيخ بأحد عشر شهرا » ؛ ومن المعلوم أن الشيخ أبا الغيث القشاش توفي في 1621/1031 وقد أعرضنا عن ذكر الإختلافات بين النصوص ، كما أعرضنا عما اعتبرناه من أخطاء النساخ وأبقينا على ما يمثل خصائص اللغة التونسية الدارجة في ذلك العهد .

(2) « وتجدر الملاحظات هنا الى أن سكان المغرب وحدهم هم الذين حافظوا الى الآن على تسمية ورق الكتابة (بالكاغذ أو الكاغض) وهو اسمه الاصلي في لغة أهل الصين ، أما لفظ « الورق » المستعمل في الشرق العربي فقد أطلق عليه مجازا » ح ح عبد الوهاب ورقات عن الحضارة العربية بافريقية (القسم الثاني تونس 1966) ص 167 .

الحمد لله ! والصلاة والسلام على رسول الله !

إلى ساداتنا الأندلسية خصوصا منهم سيدي فلان [كذا] وسيدي فلان (إلى أن سمى من أكابرهم عشرة رجال) .

بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته !

أما بعد ! فلا مزيد — بحمد الله — تعالى ! — إلاّ خيرا وما يسركم ! وأنا داعي [كذا] لكم بخير ! وما ذكرتم لنا على أني استخير الله — تعالى ! — لكم ، فاستخرت لكم أولا عند والدي . والثاني ليلة [كذا] عند استاذي سيدي محمد حذيفة . صاحب رسول الله — صلى الله عليه وسلم ! — والثالث ليلة [كذا] عند والدي ، فرأيت لكم خيرا ؛ والمهدية مشتقة من الهدي ! وأنتم كما قال الشاعر [البسيط]

تَحْيَا بِكُمْ كُلُّ أرْضٍ تَنْزِلُونَ بِهَا !
كَأنَّكُمْ بِبِقَاعِ الأرْضِ أمْطَارُ !
وَتَنْظُرُ النَّاسُ مِنْكُمْ مَنْظَرا حَسَنَا
كَأنَّكُمْ فِي رُؤُوسِ النَّاسِ أبْصَارُ !
وَإنْ جَاءَ رَكْبٌ حَلَّ أرْضَكُمْ (1)
كَأنَّمَا فِي رِحَالِ الْقَوْمِ عَطَّارُ !
لاَ أوْحَشَ اللّهُ عَيْنِي مِنْ جَمَالِكُمْ
يَا مَنْ بِهِ فِي الْحَشَا والقَلْبِ تِذْكَارُ !

والسلام عليكم ورحمة الله — تعالى ! — وبركاته .

من العبد الفقير أبي الغيث »

ثم أخذوا الورقة من يدي ، وساروا فرحين مستبشرين بكلام الشيخ رضي الله — عنه ! —

(1) في الأصل وفي كامل النسخ : بأرضكم .

ولما أن جاء الأندلس [كذا] إلى تونس ، ضاقت بهم المحاجج والطرقات والأسواق والمساجد والديار والمخازن والحوانيت ، وصاروا يأتون الى الشيخ والى سماطه ؛ وجرى معهم الشيخ — رضي الله عنه ! — كالريح المرسلة في إطعام الطعام وكسوة العريان ، حتى إني أحصيت ما يخرج لمؤنتهم اثني عشر [كذا]ماية خبزة من القمح وقفيزين من الدقيق ، والكسكسو ، شيء يابس مسفوف وشيء مسقي [كذا] وزوج أحمال من الخروب لعلف الدواب بخلاف اللبن واللحم [و] رأسين بقر كل يوم ! هذا على حساب العام كامل [كذا] ضيفهم الشيخ رضي الله عنه ! .

(ورقة 3 وجها) ولمّا كثر الأندلس [كذا] بتونس ، وعمّروا إقليمها ودوائرها وعمّروا الجزيرة ، وكثرت بلدانهم وكثر خيرهم وحرثهم وتأهلوا ، صاروا يأتون من كل بلدانهم لزيارة الشيخ سيدي أبي الغيث القشاش — رضي الله عنه ! — ويأخذون على يديه العهد [ورقة 3 ظهرا] من كل بلد حزبا ، وكل حزب يجعل له نقيبا ، والنقيب هو شيخ الفقراء ، ويعطيه علما أخضر ويوصيه بطاعة الله — تعالى ! — وطاعة النقيب ، وهو المقدّم عليهم ، ويقول لهم : « يا فقراء ! الله الله في دينكم ! واجتهدوا في ذكر الله — تعالى ! — وطاعته ، وفي طاعة مقدمكم ، وكونوا إخوانا على سرر متقابلين » .

وكان الأندلسيون ممتثلين لأمر الشيخ — رضي الله عنه ! — سامعين له مطيعين في كل أمر ؛ وكان يحسن إليهم — رضي الله عنهم ! — ويواسيهم ويكاتبهم ويأخذ بخواطرهم ويقضي حوائجهم في كلّ ما يحتاجون إليه فيه ؛ وكان أقربهم اليه سيدي محمد بن عبد الرفيع الأندلسي — رضي الله عنه ! — (1) »

المنتصر بن المرابط بن أبي لحية
(كتاب نور الأرماش في مناقب القشاش)

---

(1) هو صاحب المخطوط الذي نشرنا جزء منه هنا في مطلع عرض هذه الوثائق .

ابن أبـي ردينا (1)
والهجرة الأندلسية الأخيرة إلى تونس

« وفي هذه السنة [1608/1017] والتي تليها ، جاءت الأندلس [كذا] من بلاد النصارى ، نفاهم صاحب اسبانية ، وكانوا خلقا كثيرا ، فأوسع لهم عثمان داي في البلاد ، وفرّق ضعفاءهم على الناس ، وأذن لهم أن يعمّروا حيث شاؤوا ، فاشتروا الهناشير ، وبنوا فيها واتسعوا في البلاد ، فعمرت بهم واستوطنوا في عدّة أماكن .

ومن بلدانهم المشهورة ، سليمان وبلي ونيانو وقرنبالية وتركي والجديدة وزغوان وطبربة وقريش الواد ومجاز الباب والسلوقية وتستور وهي من أعظم بلدانهم وأحضرها ، والعالية والقلعة وغير ذلك بحيث تكون عدتها أزيد من عشرين بلدا .

فصار لهم مدن عظيمة وغرسوا الكروم والزيتون والبساتين ومهدوا الطرقات بالكراريط للمسافرين ، وصاروا يعدون من أهل البلاد » .

ابو عبد الله محمد بن أبي دينار
المؤنس في أخبار افريقية وتونس
(ط تونس 1931/1350)
وقد طبع للمرة الأولى في 1869/1286 ــ 70

---

(1) أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني الأصل التونسي القرار المعروف بابن أبي دينار ، ألف تاريخه المؤنس في 1681/1092 أرخ فيه المراديين عن مشاهدة لأكثرها الى ذلك التاريخ ولم يوقف على وفاته ؛ انظر عنه عنوان الأريب لمحمد النيفر . ج 2 (تونس 1351) ص 2 الى 4 .

الوزير السرّاج (1)
والهجرة الأندلسية الأخيرة إلى تونس

« وفي سنة ولايته [عثمان داي] والتي تليها ، قدم أهل الأندلس ، وكانوا خلقا كثيرا ، فأوسع لهم وجبر قلوبهم وأذن لهم في إنشاء بلدين ، فاشتروا هناشر ووضعوا فيها بلدانا وأنشؤوا بها مساجد تحاكي مساجد المدن ، وأوقفوا عليها أوقافا ضخمة احتسابا لله . وأحدثوا بها جنات من أعناب وزيتون وغرائب الفواكه والثمار ، وكانت تنيف على عشرين بلدا ، ولكنهم تلاشتهم يد الفتن ، وانقرض أهلها ونفي أكثر سكانها الرعاع .

وأقام فرقة منهم بمدينة تونس ، فبنوا مدرسة للعلم الشريف احتسابا لله ، وهي داخل المدينة قرب تربة الأستاذ البركة المعتقد الشيخ سيدي يونس ، شيخ إمام الولاية وكنز العناية الشيخ سيدي محرز بن خلف ؛ وكان إنشاؤها في رجب سنة اربع وثلاثين وألف ، وأوّل مدرّس فيها الشيخ شعبان الأندلسي ، وكان له اليد الطولى في علم الكلام ؛ ثم تُوُفِّي وتولّى بعده الشيخ البارع المتفنن أبو الربيع سليمان سيبويه زمانه » .

أبو عبد الله محمد الوزير السرّاج
الحلل السندسية في الأخبار التونسية الجزء الثاني والثالث
مخطوط المكتبة القومية بتونس رقم 001 ورقة 23 ظهرا
ق : 184 . س : 35 — ح : 35 × 22
تاريخ التأليف 1140 (التبييض 1144)
طبع الكتاب بتونس (غير كامل — 1287/1870)

(1) أبو عبد الله محمد بن محمد الأندلسي الشهير بالوزير السراج (1149/1736) ؛ بلغ في تاريخه هذا الى سنة 1142/1729 غير أن الجزء الرابع أحرقه علي باشا لما اشتمل عليه من القصد منه في قيامه على عمه بجبل وسلات ؛ انظر عنه شجرة النور رقم 1272 ص 326 .

ابن أبي الضيــاف (1)
والهجـرة الإندلسية الأخيرة إلى تونس

إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان الجزء الثاني ص 30 ، 31 تحقيق لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية والاخبار (تونس 1963)

لم نر من فـائدة في تقـديم هذا النص لأنه طبـع مؤخرا أي منـذ اربـع سنوات ، ثم إنـه لا يـأتي بشيء جديد أساسي بالنسبـة لما سبق من المصادر ، وكذلك فعلنـا بنص المقري في **نفـح الطيب** : فقـد أهملناه لشهـرته ولأننـا استخرجنا منه الأساسيّ أثناء تعليقاتنا على مخطوطة ابن عبد الرفيـع ؛ فهو يقع ، كما أشرنا ، في الجزء السادس من طبعة عبد الحميد ص 280 و281 ؛ والمفيد أنه يـذكر أن جمهور الأنـدلسيين خرجوا الى تونس وأن هـؤلاء هم الـذين سَلِـم أكثرهم ، أمـا الآخرون الخارجون إلى تلمسان وفـاس فتسلط عليهم الأعراب ولم ينـج منهم إلاّ القليل ؛ كما يذكـر أنه : « لما استخدم سلطان المغرب الأقصى منهم عسكرا جرارا وسكـنوا سلا ، كان منهم من الجهـاد في البحر ما هو مشهور الآن . » .

(1) ابن أبي الضياف (1804/1219 – 1874/1291) كان وزيرا لأحمد باي ؛ وقد طبـع تاريخه (اتحاف الزمان...) في هذه السنوات الأخيرة بتونس في ثمانية أجزاء (من 1963 الى 1966) .

[ص 21] – اعلان عمومي حول إجلاء الموريسكيين (1) عن مملكة بلنسية (2)

نشره في مدينة بلنسية ومملكتها في الثاني والعشرين من شهر سبتمبر 1609 دون لويس كريبو دي طليطلة مركيز دي كرثينا . Don Louis Carillo de Tolède , Marqués de Caracena نائب الملك والقائم مقام والقائد العام لمدينة بلنسية ومملكتها ، بإذن من ملك إسبانيا ، فيليب الثالث دي أستوريا (Austria : النمسا) .

---

(1) تطلق كلمة الموريسكيين (بالاسبانية Moriscos وبالفرنسية Morisques) على المسلمين الذين بقوا في إسبانيا بعد سقوط غرناطة في أيدي الملكين المسيحيين فردناند ،وإيزبال في الثاني من جانفي سنة 1492 (الموافق لسنة 898 هـ) وخلع آخر ملك من الدولة النصرية (انظر ليفي بروفنسال فصل الموريسكيين Moriscos من دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الأولى الفرنسية) الجزء الثالث ص 646 .

أما كلمة مدجن Mudejar فتطلق على من سمح له بالبقاء بعد 1492 ؛ انظر حديثا مفصلا عن معنى الكلمتين في مقال نشره حسين مؤنس في مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد (العدد 1 – 2 . المجلد الخامس . 1377/1957) ص 129 الى 191 وعنوانه : أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر للونشريسي . انظر خاصة ص . 139 الى 144.

(2) عند سقوط غرناطة ، لم يبق من المسلمين إلا جماعات كبيرة محصورة في شمال إسبانيا وبلنسية وقرطبة واشبيلية وأبله وشقوبية او بعض المدن الأخرى، وكذلك جماعات صغيرة في كل بلدة إسبانية تقريبا ؛ أنظر حسين مؤنس في نفس المصدر ص 142 ، 143 ؛

ويقدر المؤرخون عدد المسلمين المهاجرين إلى شمال افريقيا في 1609 بنحو ستماية الف (انظر مخطوطة ابن عبد الرفيع .)

أما عن سكان اشبيلية فهذا إحصاء أخذناه عن : Ramon Robres Lluch :
San Juan de Ribera (Barcelone 1960 - Juan Flors Editeur)

1520	31.815 بيتا	159.075 (يقدر عدد افراد البيت بخمسة)
8 فيفري 1563	16.377 بيتا	81.885
16 جانفي 1576	15.000 بيتا	75.000
ديسمبر 1581	14.100 بيتا	70.500
4 سبتمبر 1609	28.000 بيتا	140.000

من الملك ومن المتكلم باسم جلالة الملك ، دون لويس كريو دي طليطلة مركيز دي كرثينا... نائب الملك والقائم مقام والقائد العام لمدينة بلنسية ومملكتها بفضل من الملك مولانا .

إلى العظماء والأحبار وأصحاب الرتب والبارونات والكابايورس (Caballeros) والحكام الأعلون ومحلّفي البلدان والمداشر والقرى ، والولاة وكذلك إلى سائر وكلاء جلالته بأكملهم والى المواطنين سكان هذه المملكة .

لقد كتب إلينا جلالته في رسالة ملكية بتاريخ الرابع من أوت المنصرم من هذه السنة تحمل امضاء يده الملكية ، ومن بعده ، امضاء كاتب دولته أندراس دي برادا Andrés de Prada ، ما يلي :

« السيد مركيز دي كرثينا ابن عمي والقائم مقامي والقائد العام لمملكتي
« بلنسية . إنكم لعلى علم بمحاولاتي ، مدّة سنين طويلة ، لتنصير موريسكيي
« هذه المملكة ، وكذلك موريسكيي قشتالة ، وبإصداري أوامرَ العفو [ص 22]
« مِنّةً مني عليهم ، وبمساعيّ لتفقيههم في ديانتنا المقدّسة ، وبهزيل الغنم
« الذي حصل لهم ، إذ من الواضح أنّه لم يتنصّر منهم أحد ، بل على العكس
« لم يزدد إصرارهم إلاّ حدّة ! (1) .

« وإن الخطر والداء المُعْيِيَيْن اللذَيْن قد يطرءا [إن لم نكن لهما
« بالمرصاد] قد شخّصهما لي منذ أيام رجال عديدون على حظ عظيم من العلم
« والصلاح ، إلاّ أنهم أوعزوا بحلول صارمة ، أرى نفسي مضطرا إلى
« استعمالها ، عن تبصر كامل ، حتى أرضي الله المسمّى مولانا الذي شدّ
« ما أذنب في حقّه أولئك القوم ؛ وقد حصل لي ، من قبلُ ، اليقين أني
« أستطيع ، دون أن أشعر بأدنى قلق ، أن أسلّط عليهم العقاب في أرواحهم

(1) انظر نص ابن عبد الرفيع .

« وأموالهم ، إذ ان إصرارهم على جرائمهم أبان ، دون ريب ، طبيعتهم
« كملحدين ومرتدين ومجرمين في حق الجلالة الإلاهية والإنسانية .

« وإنـي ، وإن كنت قادرا على التصرف إزاءهم بالصلابة التي استوجبتها
« ذنوبهم ، إلاّ أنـي ، وقد رغبت في إخضاعهم بطرق اللين والمرونة ، قد
« أمرت أن تُؤلّف في هذه المدينة اللجان التي تعلمون بها والتي تضمكم أنتم
« وكذلك البطريقَ وأحبارا عديدين وعلماءَ ، حتى يقع النظر في إيجاد إمكانية
« لعدم إجلائهم عن هذه المملكة .

« ولكن بما أنه من المعلوم أن موريسكيـي هذه الممالك وكذلك قشتالة
« تقدّموا أكثر فأكثر في تنفيذ مشاريعهم القبيحة ، وبما أني علمت بنفسي ،
« من تقارير صادقة وصحيحة ، أنهم ، في إصرارهم على الردّة والضلال ،
« أرادوا ويريدون دائما الشرّ والفساد لمملكتنا عن طريق سفرائهم ، وكذلك
« بسبل أخرى ، (1) وبما أني رغبت إذ ذاك في تحمل المسؤولية المناطة بعاتقي
« للحفاظ على هذه الممالك وعلى أمنها ، وبالأخص على أمن مملكة بلنسية
« وكذلك رعاياها الفضلاء والأوفياء ، بالنظر الى الخطر الأبين الذي يحدق
« بهم ، ولوضع حدّ للكفر والردّة ، بعد أن سلمت أمري كلّه لمولانا ، أي
« الله ، وكلّي ثقة في عونه الالهي في كل ما يتعلق باسمه وجلاله ، قرّرت أن
« يُجلى كلّ موريسكيي هذه المملكة وأن يطردوا إلى بلاد البربر » .

ولكي يتحقق كل شيء لتنفيذ إرادة جلالته ، أمرنا بنشر الإعلان التالي :

أولا : على موريسكيي هذه المملكة نساء ورجالا وكذلك أبنائهم أن يغادروا مساكنهم في أجل قدره ثلاثة أيام ، ابتداء من تاريخ نشر هذا البلاغ في المكان الذي يقطنه كل منهم ، وبه داره ، وأن يتوجهوا ، للاقلاع ، إلى

(1) انظر نص ابن عبد الرفيع .

المكان الذي يأمر به المندوب المكلّف بهذه القضية ، فَيَتَّبِعُوه ويخضعوا لأوامره ؛ ويستطيعون أن يحملوا معهم أموالهم ، أي المنقولات التي من شأنها أن تُحمل إبّان الإقلاع في سفن معدّة لحملهم إلى بلاد البربر ، حيث يُرسون دون أن يتعرضوا لسوء المعاملة أو لضيق في الأنفس والأموال ، لا بفعل أو قول ؛ وقد وقع إشعارهم [ص 23] بأنّهم سَيُزَوَّدُون أثناء السفر بكل ما يحتاجون إليه لمعيشتهم ، وبأنهم ، هم أيضا ، يستطيعون أن يحملوا معهم كل ما أمكن ؛ ومن لا يمتثل لمضمون هذا الإعلان ، ولو في نقطة واحدة ، يستوجب العقاب بالقتل الذي ينفذ حتما .

ثانيا : مـن حق أي كان ،إذا عثر على أحد من هؤلاء الموريسكيين بأن وجده بعد نشر هذا الإعلان وانقضاء أجل ثلاثة أيام ، خارجا عن القانون ، في غير محله الشرعي ، أي في الطريق أو في أي مكان آخر قبل نهاية الإقلاع الأول ، من حقه أن يؤسّره دون أن يتعرض لعقاب ما وأن يجرّده من كل شيء ، وأن يسلّمَه لعدالة المكان الأقرب وأن يقتله إن حاول الدّفاع عن نفسه .

ثالثا : وكما ذُكر من قبلُ ، ليس لأيّ من الموريسكيين أن يغادرَ ، بعد نشر هذا الإعلان ، مركزه لآخر ، دون أن يستوجب العقاب بالموت ؛ بل على العكس ، عليه أن يبقى مستقرا مكانَه ، حتى يقدم المندوب المكلّف بقيادته إلى المركب ، للتفتيش عنه .

رابعا : ما من أحد من الموريسكيين يخفي شيئا أو يدفن أرضا قطعة من أملاكه ، إذ لم يستطع حملها ، أو يحرقها أو يحرق أيضا دياره ومزارعه وأهراءه وبساتينه ، إلاّ ويجرّ العقاب بالقتل لسكان المكان الذي حدث فيه هذا ؛ وقد أمرنا أن يكون التصرف هكذا ، لأن جلالته تفضّل بالمنّ بهذه الأرزاق [العقار والمنقولات المستحيل حملها] على الأسياد الذين كان الموريسكيون رعاياهم .

خامسا : ولكي يُحافَظ على الديار ومزارع السكر وغلات الأرز وأجهزة السقي ، وكذلك لكي يَطّلِع [على ما يصلح لها] السكانُ الجدد الذين لا بد أن يقدموا إلى هذه الأماكن ، فقد تفضل جلالته ، طبقا لمطلبنا ، فسمح بأن يبقى من كل مجموعة مائة دار ، ستةٌ من السكان [المسلمين] مع أبنائهم وأزواجهم ، كلما كان الأبناء غير متزوجين ، أو لم يتزوجوا قط ، إذ الأمر يتعلق هنا بصغار عُزب ما زالوا في كفالة أهليهم ورعايتهم ؛ وهكذا يُصنع تقريبا ، حَسَب هذه النسبة في كل مكان ، وإن زادت هنا أو هناك أو نقصت قليلا ، ولكن دون أن يُتَجاوز العدد المُعَيّن ؛ وللأسياد (Sènores) النظر في تعيين العائلات المسلمة التي ستبقى هنا ، ويجب عليهم أن يحيطونا علما بالأشخاص المعينين ؛ أما عن أملاك جلالته ، فعليّ أنا أن أعيّن السكّان المسلمين الذين سيبقون فيها ؛ وأنبّه الى وجوب اختيار كلّ من الصنفين من بين الأكبرين سنا ، الذين لا مهنة لهم سوى فلاحة الأرض ، [ص 24] والمُنتمين ، بعدُ ، إلى مجموعات الذين بدا منهم العددُ الأوفر من علائم نصرانيتهم ، وصدر عنهم القسطُ الأكبر من الضمانات باعتناقهم ديانتنا الكاثُوليكية المقدّسة .

سادسا : لا يجرأ أي امرء ، نصرانيا شيخا أو جنديا ، يقطن هذه المملكة أو غيرها ، على أن يلحق أذى ، بسلوكه قولا أو فعلا ، بأحد من المدعويين الموريسكيين ، وكذلك بأزواجه وأبنائه وبأي كان منهم .

سابعا : ليس لأحد أن يخفيهم في داره أو يحميهم أو يقدّم إليهم وسيلة لإعانتهم على الفرار ، دون أن يتعرض لعقاب بالسجن مع الأشغال الشاقة مدّة ست سنوات ، يُقَضّيها ، حتما ، كما يتعرّض لعقوبات أخرى لنا اختيارها .

ثامنا : ولكي يدرك هؤلاء الموريسكيون أن نيّة جلالته هي إجلاؤهم عن هذه الممالك فقط ، ولكن دون أن يُشفع بأي تعدٍّ ، طيلة السفر الذي

يرسون في نهايته في الأرض المكوّنة لشاطىء بلاد البربر ، سمحنا أن يرجع عشرة من المدعويين الموريسكيين الذين يُقلعون في السفرة الأولى ، حتى يؤكدوا هذا الأمر للآخرين ؛ وهكذا يقع في كل إقلاع يتلو .

تاسعا : لا يُجلى الأبناء ــ بناتا أو أولادا ــ القاصرون ، في سن الرابعة ، إن شاؤوا البقاء وعبّر أهلوهم أو أولياؤهم عن موافقتهم .

عاشرا : على الأبناء القاصرين ، في سن السادسة ، أبناء قدماء النصارى ــ بناتا أو أولادا ــ أن يبقوا هنا ، وكذلك يجب على أمهم ، وإن كانت موريسكية ، أن تبقى معهم ؛ ولكن إن كان الأب من الموريسكيين والأم ، فقط ، من قدماء النصارى ، فالجلاء واجب على الأب ، ويبقى إذ ذاك الأبناء القاصرون البالغون من السن ستة أعوام مع أمهم .

الحادي عشر : يبقى أيضا ، هنا ، من عاش بين النصارى دون أن يحضر اجتماعات الجوامع طيلة مدة يرجع عهدها إلى بعض الزمن ، أي عامين .

الثاني عشر : يبقى أيضا هنا من يتقبّل سر القربان المقدّس (El Santésimo Sacramento) مع إذن أحبارهم لهم بذلك ؛ وطبعا يؤيّد هذا المسؤولون بالأماكن حيث مقرّ سكناهم .

الثالث عشر : إن جلالته يريد ، معتبرا ذلك من العدل ، أن يتمكن البعض من هؤلاء المدعويين بالموريسكيين من تحقيق رغبتهم في الذهاب إلى غير أرض البربر ، على شرط ألاّ يجتازوا أية مملكة من إسبانيا وأن يغادروا ، مع ذلك ، مراكزهم في الآجال المقرّرة ، إذ هذه هي إرادةُ جلالته الملكيةُ النافذةُ ؛ والتنفيذ حتما كذلك لكل العقوبات التي ذكرت في هذا البيان .

بلنسية 22 سبتمبر 1609

مركيز دي كرثينا (1)

---

(1) يطيب لنا أن نعبر عن شكرنا لموظفة المركز الثقافي الإسباني بتونس الآنسة كبريني على ما وجدناه لديها من مساعدة لجمع الوثائق الإسبانية عن الهجرة الأندلسية الأخيرة إلى تونس وللاستفادة منها ؛ كما يلذ لنا أن نعبر عن نفس الشعور لصديقنا الإسباني ساستري أستاذ الاسبانية بتونس العاصمة إذ قبل أن يراجع ترجمتنا للوثيقتين الإسبانيتين من اللغة الأصل إلى الفرنسية .

رد فعل الشعب الإسباني النصراني على إجلاء المسلمين الموريسكيين

(أغنية شعبية ألفت قبل نشر بلاغ إجلاء الموريسكيين عن مملكة بلنسية في 1609) .

[ص 25] عن كيفية إجلاء الملك فيليب الثالث الموريسكيين عن إسبانيا وأسبابه وعمّا أدخل ذلك من الأسى في قلوب المجلوّين .

...تحيى مرغريت دي اوستريا [النمسا]
وليسعد معها طويلا
[الملك] ليون الذي كفى اسمه
لادخال الفزع في قلب التركي الكبير [السلطان] .

ليرتعد أعداؤنا
ليبكوا بملء أعينهم من الدمع
فالأحسن أن يبكوا هم
بدلا من الرعايا الأوفياء .

ولتكن المُدى الدامية
وكذلك الصفائح القاطعة
التي أعدوها لنا
سلاحا في نحورهم .

ليرحلوا سريعا إلى بلاد البربر
ليقيموا في مكان بعيد

إذ هم هنا قد أثْـروا
شيئا فشيئا على مر العصور .

ها هو الموريسكو الذي كان ينتعل
خِـفَـافا وضيعة من الحلفاء
يحمل الآن أحذية
خِـفَـافُـها من الفضة .

ويرتدون المُخمَل
والنسيـج الحريري المبطن في بترف
ويتسلحون بسيوف الفضة
والخناجر المحلاة بالذهب .

من ذاك الرّغام ، سادتي
نشأ هذا الوحـل !
وإن الفوضى لتخيم حتما
على من ليس يقرأ لها حسابا !

يرحلون جميعا في نفس الزمن
اذ قد أذنبوا جميعا في نفس الزمن !
الله يعلم كم ثقل علينا الأمر !
يكفـي أنهم نشأوا هنا !
وأنهم ولدوا في وطننا !
وأنّ إيمانهم توطّد في ديانتنا !

ويقول البعض منهم : « واها ! موطني !
« من أطردني منه ؟

[ص 26] لا جدوى في السؤال !
« إذ ذنوني هي السبب ! » .

والنساء الموريسكيات
يلوين أيديهن البيضاء
ويرفعن عيونهن إلى السماء
وبصوت عال يقلن باكيات :

« واها ! إشبيلية وطني !
« واها ! كنيسة القديس بطرس !
« والقديس أندراس والقديسة مرينا
« والقديس جوليان والقديس مرقس » .

« المكتبـة الافريقيـة »

سلسلـة :

من نصوص ودراسـات فى تاريـخ أفريقيـة والمغـرب

تحقيـق : فـرحـات الـدشـراوى

IV

فصل من « كتاب في الاموال والمكاسب »

للـداودي

كتاب فى الامـوال والمكاسب

من و : 34 الى و 15

قد اعتمدنا على النسخة المخطوطة الفريدة المحفوظة بمكتبة الأسكوريـال الأسبانيـة والمسجلة بفهرستهـا تحت رقم 1165 وكذلك على صورة منهـا يملـكها شيخنا العلامة حسن حسني عبد الوهاب .

وقد نشرنا فصلا آخر منه نقلناه الى الفرنسية وترجمة للمؤلف وتقديما للـكتاب مساهمة مع شيخنا في احياء ذكرى استاذنـا المستشرق الفقيـد ليفي بروفنصال فراجع ذلك في :

« Le Régime foncier en Sicile aux IXe et Xe siècles dans Etudes d'Orientalisme dédiées à la Mémoire de Lévi : - Provençal ; t : 2 PARIS 1962

ذكر الأموال التي لا يعرف أربابها والأموال المغتصبة وما جلى عنه اهله او بعضهم ومعاملة اهل الغصب والظلم ومن اكره على سكنى أرض مغصوبة وما يكره من المكاسب وما يجوز .

قيل لاحمد بن نصر : إن السلاطين يأخذوننا بمغارم يسمّونها الخراج فربما وضعوها على قيمة الارض والشجر وربما وضعوها على المياه والسابحة وربّما وضعوها على عود الشجر على ما قوم عليه كبراء كل موضع وتقادم ذلك واخذ به جيل بعد جيل ولا يدري كيف اصله هل كانت الارض والبلاد بلاد خراج او انّما هو ظلم اخذوا به **وذلك بأرض المغرب .**

فقال : قد قال سحنون إنه كشف عن ارض افريقية فلم يثبت عنده فيها خبر هل كانت عنوة او صلحا او اسلم اهلها عليها والذي تواطأ عليه اهل الامصار يرث علم ذلك قرن عن قرن ويحمل ذلك كافة عن كافة انهم يتملكونها بما تملك به الأموال ويجرون فيها من الاحداث ما يجريه أهل الأموال في أموالهم من البيع والصدقات والهبات والتحبيس والارهان والكرايا والاصداق وسائر التصرف ولا يتريبون في ذلك ولا يطعن فيه طاعن ولا يقف عنه ذو ورع الاّ أماكن تسمّى الأخماس قد لزمها ذلك الاسم وأماكن قد اغتصبت من أهلها وصارت صافية وطال زمانها حتّى لا يعرف من أهلها ؛ ومواضع قد جلى عنها أهلها لما اخذوا فيه من المظالم ومضت الدهور حتى لم يعرف أهلها ؛ وأماكن قد حدث ذلك فيها لحروب وقعت بين أهلها وبين جيرانهم فمنها ما نزل به قوم آخرون غير ان امرها مشهور قد علمه جميع من يعرف تلك الأرض ان أهلها خرجوا منها وان هؤلاء نزلوها ظلما ؛ ومنهم من يقول ان قوما نزلوا تلك الأرض ظلما فيما مضى فمن كان من هذا كله يعرف اصحابه ويحصون عددا غير أنهم لا يعرفون كيف كانت املاكهم فيه فإنهم يصطلحون فيه على ما شاؤوا فان أبوا وشاحوا ولم يدّع احدهم معرفة شيء يدعيه وقف ذلك حتى يصطلحوا فيه وان تداعوا فيه حملوا على سبيل التداعي وان ادّعى بعضهم معرفة ذلك وجهل آخرون وقالوا لا علم لنا كان

لمن ادّعاه ؛قيل لا إيمان عليهم ان لم ينازعهم فيها أحد . فان قال قوم : لنا حقوق ولا ندريها لطول اقامتنا عنها واقامة من قبلنا ممّن ورثناها عنه وليست بأيدينا وادّعى الآخرون علم ما يدعون ملكه فهي لمن ادّعى العلم مع إيمانهم : انها لهم لا يعلمون لهؤلاء حقا فيها . فإن عرف أهلها وجهل عددهم ولم يدر من غاب منهم ممّن حضر ولا من كان له فيها شيء ولا من لم يكن له شيء ولم يعلموا قلّة املاكهم من كثرتها ولا عرفوها باعيانها ولا كيف جرت المواريث بينهم لطول زمان ذلك فهذه كمال تركه رجل لا يعلم له وارث ولا يرجى علم ذلك يجرى في مصالح المسلمين . ولا يترك خراجا واختلف هل يجري مجرى الصدقات او مجرى الفيء والذي يصحّ في النظر انه يجري مجرى الفيء لاجماعهم أن من لم يعرف له وارث بالنسب انه يورث بالولاء فقد صرف إلى سبيل من سبيل الفيء لان الصدقات ليست للمعيّنين ولا للاغنياء ، وقد علم ان لكل هالك وارث وان جهل لا بد ان يلقاه وارث قد علمه الله . وان قيل : ربّما قد ينقطع النسب المجتمع عليه لما يكون لغير الفراش ؛ فيقال له : قولك هذا فاسد من جهات : احدها ان الاشياء انما تحمل على ظواهر هؤلاء يراعى فيها ما ذكرت ، وشيء آخر ان كل نفس سوى آدم وحواء وعيسى من البشر لا بد ان يكون لها أب وبهذا خاطبنا الله تعالى فقال : يا بني آدم ، وقد اجمع العلماء ان ولد الزنا يوارث امه ولا فرق بين الاب والأمّ وانما امتنع من رأى الاّ يرث العاهر ممّن ولد في عهده لانه لا يعلم حقيقة ذلك هل هو منه او من غيره فلما لم يكن له فراش وخفي امره لم يورثه من منعهم ذلك . وقد روي عن عمر انه كان يليط أولاد الجاهلية بمن استلحقهم أولاء الجاهلية لمن استحلفهم في الاسلام اذا لم يكن ثمّ فراش وبه يأخذ مالك واصحابه ومن حجتهم في قصة ابن وليدة زمعة انه كان له فراش فلما اجتمع الفراش والعهد كان الفراش اولى .

وقال النخعي والنعمان واسحاق : من استلحق ولد زنا في الاسلام يحق به اذا لم يكن له فراش ، واحتجّ اسحاق بأنّهم قد أجمعوا على توريث الأمّ ؛ وممّا يدلّ ايضا انه يجري به مجرى الفيء لاجماعهم ان من لم يعلم له وارث

بالنسب انه يورث بالولاء فقد صرف الى سبيل من سبيل الفيء لا من الصدقات ان النبـيء عليه السلام قال للسائل عن الشاة يجرها بالفـلاة قال : هـي لك او لأخيك او للذيب وانه وجد ثمرة ساقطة فقال : لو علمت انها ليست من الصدقة لأكلتها .

قيل له : فهل ترى لمن قدر ان يتخلص من غرم هذا الذي يسمّى بالخـراج إلى السلطـان ان يفعل **قال :** نعم ولا يحل له الاّ ذلك .

قيل له : فان وضعه ذلك السلطـان على اهل بلدة وأخذهم بمال معلـوم يؤدّونه على اموالهم هل لمن قدر على الخلاص من ذلك ان يفعل وهو اذا تخلّص أخذ سائر اهل البلد بتمام ما جعـل عليهم . **قال :** ذلك له ويدل على ذلك قول مالك في الشاكي يأخذ من غنم احد الخلطاء شاة وليس في جميعهـا نصاب انها مظلمة دخلت على من أخذت له ولا ترجـع على من اخذت منه ولا يرجـع على اصحابه بشـيء ولست يأخـذ في هذا بما روي عن سحنون لأن الظلم لا اسوة فيه ولا يلزم احدا ان يولج نفسه في ظلم مخافة ان يضاعف الظلم على غيره والله سبحانه يقول : إن السبيل على الذين يظلمون الناس .

قيل له : فان قوما كانـوا يؤخذون بهذا المغرم على شجرهم وهـي ممّا يشرب من ماء الانهار ولهم من تلك المياه املاك معروفة فمستقلّ من تلك المياه ومستـكثر بقدر ما رزقه الله منها ربّما تبايعوا الماء دون الشجر فيكون لأحدهم الـكثير من الشجر والقليل من الماء او الشجر بغير ماء او الـكثير من الماء والقليل من الشجر ولم يكن من الماء شـيء من المغارم فأجمع رؤساء أصل الموضع وساداتهم على ان قسموا جميـع مياه الموضع على عدد الشجر فصار لمن كان له الـكثير قليلا ولمن كان له القليل كثيرا ؛ واعطى من لم يكن له ماء ما وقع لقدر شجره من ذلك فتورع القوم عن أخذ ما صير اليهم وأخذ ذلك اكثرهم وأخذ من تورع عن ذلك بغرم ما يصير على من جعل له من ذلك

فطال الامر حتى لم يعرف كيف كانت املاكهم فيه ولا من كان له منه شيء ممّن لم يكن له ثم اراد القوم او بعضهم التحرّي في ذلك .

قال : ان كان القوم يحصون وليس منهم غائب ولا يتيم ولا سفيه فليصطلحوا في ذلك الماء على ما احبّوا ؛ فان وجد القائم في ذلك الى الانتصاف سبيلا فليوقف حتى يصطلحوا وان لم يحص أهلها وكان أهلها فيهم الغائب واليتيم ولم يحص الغيب منهم ولا عرفت مواضعهم فسبيل ذلك الماء سبيل ما ذكرت من مال لا يعرف أهله : ان شاء الامام ان يوقفه فيباع منه شرب يوم بيوم او شرب الشهر او شرب السنة ويختمس في ذلك ويجريه في مصالح المسلمين فعل وان رآى بيع اصله متفرقا لاهل تلك الاشجار ويجري منه في مصالح المسلمين فعل وان لم يكن سلطانا عدلا يجرى ذلك على وجهه فعدول المسلمين يقومون في ذلك مقام الامام من قام بذلك منهم اكتفى بفعله .

وسأله أهل موضع قالوا : انه يأتينا ماء من بعض جبالنا فنسقي به ارضنا وقد اخبرنا اباؤنا عن آبائهم ان اصله لم يكن لهم وانه لقوم لا يعرفون .

قال : وهذا بحال ما ذكرت ان رأى الامام او عدول المسلمين ان لم يكن اماما عدلا بيع ذلك أوقاتا فعل من ولي ذلك ويصرف الثمن في منافع المسلمين وان رأى بيعه من اصله فعل واى لم يكن من يقوم بهذا ولا بهذا فليتحرّ كل من أجرى منه شيئا فليتصدق بقيمته او بدخله في منافع المسلمين .

وسئل عن قوم أخرجهم السلطان من موضعهم واستصفى رباعهم ولهم حقوق في انهارهم فيها شركاء لم يدفعوا عمّا كان لهم في تلك الانهار والانهار مشاعة بينهم يقتسمونها على اجزاء معلومة ليس لاحد منهم يوم لا يعدوه ؛ هل لمن يمنع من حظّه ان يأخذه ولا يكون للممنوعين عليه تباعة .

قال : ليس ذلك له ؛ وان أخذ قدر حقه فليقتسمه مع الممنوعين على قدر شركتهم في النهر وينظر لهم قيه ان غابوا .

قيل له : فان كان النهر بين اهلـه لقوم يوم الجمعة ولآخرين يوم السبت ولآخرين الاحـد لـكل قـوم يوم من الجمعـة معلـوم فدفع بعض اهله النهـر عن حقوقهم منه وامكن بعض من لم يدفع عن حقه من أخذ يوم غير يومـه مكان يومه ودفع عن يومه هل يجوز له اخذه .

قال : لا ؛ إلا أن يجوز أخذ يومه بعينـه ولا يحل له أخذ غيره .

وسئل عن اصل بلد كان السلطان يغرمهم على رباعهم وكان بالموضع قوم لا رباع لهم فلما طال ذلك على اهل الرباع وكثر عليهم اجمع نفر منهم مـع سلطانهم على ان قسموا ما كان خارج مدينتهم من الارضين على رؤوسهم وجعلوا ما يؤخذون به من المظالم على الارضين التي قسموا ودخل في ذلك من كان له شـيء ومن لم يكن له شـيء وجعلوا ما كانت املاكه متفرقة مشاعا بينهم فأقاموا على ذلك إلى ان درس علم ما كان عليه اصله ولم يعرف من كان له شـيء ممن لم يكن له ثم أجلوا عن مدينتهم وخربت وخرب ما كان يقربها ممّا كانوا ابقوه على املاكهم فطال الزمان حتى جهل كل واحد منهم حقّه وجهل من كان له شـيء ممّن لم يكن له شـيء ومن غاب ممّن حضر لـكثرتهم وتفرّق كثير منهم في سائر البلدان .

فقال : وهذا مثل الذي وصفت فيما قبله مما قد جعـل اهله يصير سبيـل اللقطة يقوم فيه الامام او عدول المسلمين بما هو اصلح للمسلمين .

قيل له : فمن تقـدم له في هذه الارض حرث او ببعض هذه الاماكن انتفاع **قال :** يخرج قيمـة كراء ما انتفـع به ان كان له كراء أو بـكر الثمرة ان انتفع بثمرة ان عرف كيلها او قيمتها ان جهل كيلها مربوبة ولا يعرف ربّها ولا ترجـى معرفتهم فيتصدق به أو يجعل في مصالح المسلمين .

قيل له : فإن اهل هذا البلـد كان بينهم وبين جيران لهم حرب ووقع بينهم قتل فصالح شيوخ ذلك البلد القوم الذين حاربوهم على نصف الوادي الذي

يسقون به أرضهم وجميـع الوادي لخلـق كثير لم يستأمر اكثرهم ولا أخذ رأيه ولا رضاه . هل يجوز هذا الصلـح . **قال :** لا الا ان يشاء من اعطى ذلك ان يأخذوا حظوظ من عقد معهم الصلح ان صالحوا من غير ان يركبوا بظلم ولا قهر ولا عادوا إلى رأس أمرهم وكان كل واحد منهـم في مطلبه على ما يجـب له .

قيل له : فان دفع السلطان هؤلاء وهؤلاء عن جميع ذلك فطال زمانه حتى لم يعرف كيف كانت املاك اهل الاصل ولا كيف اقتسمه من صولح عليه . **قال :** فهذا مثل الذي قلتـه من الأموال التي لا يعرف اربابها ولا ترجى معرفتهم. **قيل له :** فقوم لهم نهر فوجدت عادتهـم فيه على ان يسقي القوي ويمسك النهر ما احتاج اليه فاذا استغنى عنه أتى قوي آخر فأخذ بعده فلا يصل الضعفاء الا إلى ما استغنى عنه الاقوياء ولا يعرفون ما كان لـكل واحد في الاصل ثم ارادوا التحري او رجا بعض القوم الانتصاف فـكيف العمل فيه . **فقال :** إن اخبرهـم من قبلهم انه كان ملـكا لجميعهم الا انهم تغلب قويهم على ضعيفهم حتى اخذوه على ما ذكرت ولا يعرفون كيف كانت املاكهم فيه فيصطلحوا فيه على ما شاؤوا فإن أبوا اجرى الاعلى فالاعلى يمسك الاعلى إلى الـكعبين في ارضه ثم يرسل على من بعده حتى يبلغ آخرهم .

وسئل عن قوم اجلوا عن مواضعهم واسكنوا بلدا كرها بذراريهم قد منعه أهله ان يسكنوه بذراريهم فأخذ عليهم ان لا يزول منه احد منهم وخاف من زال منهم وقوع السلطان به كيف يعمـل من أراد التحرّي . **قال :** ان وجد من يحلله من أهل ذلك البلد فليفعل ويحلل له ما حلل له من سكنى او حرث او غلـّه وان لم يجد ذلك والقوم معلومون فليسكن اقل ما يكفيه هو واهله ويودي كراء ذلك إلى أهله ان عرفهم او إلى المساكين ان يئس من معرفتهم ويكون اكثر مقامه في المساجد والمواضع التي لا يمنعها احد من الطرق المسلوكة والارض التي لا تملك ؛ وإن وجد ما يغنيه من هذه الأشياء لم يعرف شيئا من

مال احد الا بطيب نفس مالكه وما حلله اهله إلى مدّة معلومة او حياة اهله او حياة من حلل ذلك له فهو جائز وما أعطوه من أهله وقدر معطاه على أخذه قبل موت المعطي فهو له وإن لم يقس على أخذه إلاّ بعد موت المعطي ؛ فيقول ابن القاسم إنّ العطيّة تبطلُ ؛ وقول أشهب وأكثر أصحابنا : إنّ حوز الغاصب حوز للمعطي ولهؤلاء الّذين أنزلوا في مواضع غيرهم أن يسلكوا من طرقات ذلك البلد ومساجده وكلّ موضع كانت تملكه العامّة حيث شاؤوا ولهم الاحتطاب من محتطبه من المواضع الّتي تحتطب منها العامّة ولهم أن يرعوا فيما لم يزدرعه أهل ذلك الموضع حسب ما لمن سكن بين أظهر قوم وكذلك في شربة من مائهم وشرب أهله وكلّ ما لم يكن يمنعه بعض القوم من بعض فله من ذلك كما كان لهم ومتى وجد السّبيل ولم يكن في مسكن يطيب له سكناه لم ينبغ له أن يقيم بذلك الموضع .

وسئل عن قوم غصبوا أرضهم ثمّ قدروا على الانتصاف وقد زرعها الغاصب زمانا ووجدوا فيها زرعا قائما ، **قال :** أمّا ما وجدوه في إبان الزّراعة فلهم أخذه بغير شيء يعطونه الغاصب إلاّ أن يكون له إذا قلع ورمي بالأرض قيمة فيعطي الغاصب قيمته مقلوعا بعد طرح أجرة قالعه ويُحاسب بتلك القيمة إن تقدّمت له في تلك الأرض زراعة وإن لم يدرك وإلاّ وقد فات إبّان الزّراعة ؛ فقد اختلف قول مالك في ذلك واختلف العلماء فيه ؛ **فقيل :** على الغاصب الكراء والزّرع له ؛ وقيل : الزّرع لربّ الأرض ؛ وهذا أولى الحديث الموضوع : ليس لعرق ظالم حقّ ولإجماع العلماء أنّ من أولد أمة مغصوبة فسيّدها أحقّ بولدها ؛ وما تقدّم ممّا ناله الغاصب ممّا زرع في هذه الأرض فهو بهذه المنزلة ؛ **قيل له :** فهل المساكين أن يأخذوا من عشر هذه الأرض إن أخرجه الغاصب ؟ **قال :** ذلك لهم لأنّه لا يعدو أن يكون الحبّ لزارعه أو لربّ الأرض فأيّهما كان له فعليه فيه الزّكاة وهو حقّ المساكين وأهل الزّكاة فلهم أخذه كيف وجدوه . **قيل :** فهل يشترى ذلك الطّعام من

الغاصب ؟ **قال :** قد أخبرتك أنّ الذي أقول به إنّ الزّرع لربّ الأرض فيجوز أن يشترى منه ما غيره أولى به منه إلاّ إن صلح أمره مع ربّ الأرض على أمر جائز فيجوز حينئذ أن يشترى منه ومن يرى من أصحابنا أنّ الزّرع للغاصب وأنّ عليه كراء الأرض فهم يكرهون أن يشتري من الغاصب حتى يؤدي ما عليه لربّ الأرض أو يتحلّل منه . **قال :** وما أحدثه الغاصب من غرس فما اغتلّ منه بمنزله ما رفع من الحرث على اختلاف قولهم وإذا ردّت الأرض على ربّها فعليه للغاصب قيمة الشّجر مُلقى بالأرض بعد طرح أجرة قالعه يُحاسب من ذلك بما وجب عليه فيما مضى ؛ وكذلك فيما بنى فيما غصب من الأرض فإن باع الغاصب شيئا ممّا غصبه بعينه واشترى به ماشية فنتجت أو أمة فولدت أولادا فإذا أخذ بما يجب عليه فيما غصب وأدّاه ساغ له ما اشترى بثمنه إن كان باع ما غصب بالعين وكان عقدة ما اشترى في اللّفظ ثمّ دفع ذلك العين فيه وإن باع ما غصب بعرض ثمّ باع ذلك العَرض بعرض آخر فالمغصوب منه مخيّر في قبض عرضه إن وجده ويفسخ البيعتان إن كان العرضان قائمين أو يأخذ ما بيع به عرضه وتفسخ الصّفقة الآخرة أو يجيز البيعات كلّها ويأخذ العرض الآخر فإن لم يجد عرضه فهو مخيّر في أخذ قيمة عرضه في قول أصحابنا يوم غصبه .

وقيل له : أيوفر ما كانت عليه قيمته من يوم اغتصبه إلى يوم أفاته وإن شاء أخذ العرض الّذي أخذ في عرضه وفسخ البيع الثّالث ومضت البيعات كلّها لأنّ بعض العلماء لا يرى له إلاّ أخذ عرضه إن وجده أو قيمته إن فات ولا يرى له أن يجيز بيعه في شيء من الصّفقات وإن باع ما اغتصب بدنانير بأعيانها ثمّ اشترى بها عرضا على أن يعطيها بأعيانها ثمّ استحقّ ذلك العرض فقول أصحابنا أنّ المستحق مخيّر في أخذ عرضه ويرجع مشتريه على الغاصب بالثّمن وإن شاء أجاز بيع عرضه وأخذ مثل الثمن الذي بيع به وليس له عندهم ولا عند غيرهم أن يأخذ ما اشترى بثمنه إن كان الثّمن عينا وقول مخالفنا أن ليس له

إجازة بيـع عرضه على أن يأخذ ثمنه وليس للّذي اشترى عرضا بثمنه ان يملك ما اشترى ، ويرون الصّفقات كلّها مفسوخة لأن استحقاق العين عندهم كاستحقاق العرض إذا اشترط أخذ العين بنفسه ولم تقع الصّفقة باللّفظ ثم دفع ذلك العيـن .

وسئل عمّن اغتصب بقرا وعبيدا فحرث بأولئك العبيد وتلك البقر أرضا حلالا بزريعة حلال هل يجوز أن يشترى منه ما رفع من ذلك الحرث ؟

قال : اشتراؤه منه مكروه حتّى يصلح شأنه في العبيد والبقر وليس قوته في الـكراهيّة كمن اغتصب حبّا فزرعه لأنّـي لا أعلم قائلا يرى أنّ الزّرع لمالك البقر والعبيد له وليس قوّة الـكـراهيّـة فيمـن اغتصب أرضا فـزرعهـا فالاشتراء من حبّها أشدّ في الـكراهيّة ممّا رفع من زراعة الحبّ المغصوب لقوّة الاختلاف في هذا وقلّة القائلين إنّ من زرع حبّا مغصوبا يكون ما رفع من ذلك الحبّ المغصوب منه غير أنّه يكره في هذه الوجوه كلهما أن يشترى من الغاصب حتّى يصلح أمره مع من غصبه . ومن غصب صوفا أو كتانا أو قطنا أو وبرا فجعل منه ثيابا فقول أصحابنا جميعا وأهل الـكوفة إنّ عليه مثل ما اغتصب إن عرف وزنه ومذهب أصحابنا أنّه لا يشترى ما صنع منه حتّى ينتصف ربّه . وبعض العلماء يرى لمن غصب ذلك منه أخذ ما صنع به إن شاء أو قيمته على أوفر ما كانت عليه . وكذلك من غصب ذهبا أو فضّة فقرية أو صناعة أو نحاسا أو حديدا فصنع منه آنية أو سيوفا أو سكاكين على اختلافهم وكذلك سائر الأشياء إذا غيّرت عن حالها فمن رأى لأربابها أخذها لا يجيز اشتراها ولا يفسخه إن نزل إلاّ من الغاصب ، ويفسخ ذلك إن نزل ؛ ومن لا يرى لهم أخذها يـكره اشتراها ولا يفسخه إن نزل إلاّ أنّ أصحابنا يشدّدون الـكراهيّة في ذلك ويرونه عيبا يرد به المشتري إن لم يعلم ، وقول أصحابنا : ان من اغتصب شيئا من الحيوان الّذي يجوز أكله فذبحه وأدركه ربّه لحما لم يُطبـخ إنّ ربّه مخيّر في أخذ اللّحم أو قيمة شاته وغيرنا يرى أنّ له

أخذ اللّحم وما نقص من ثمنها وان صنع اللّحم فقول أصحابنا وأهل الكوفة : إن ليس لمستحقّه ولا قيمة ما غصب منه ، وبعض العلماء يرى أن له أخذ عيش شيه ولا أعلم خلافا أنّ ما ذبحه السّارق ووجده ربّه أو أخذ قيمته أنّ ذلك الزّكاة فيه زكاة إلاّ قولا طاوس وعطاء فإنهما قالا : ليس ذلك بزكاة وما على الغاصب أو المتعدّي أو السّارق من ثمرة أو لبن أو صوف أو اكتراء أرض أو دار أو سكن فذلك غرم عليهم .

وقد اختلف في هذا قول مالك وقول أصحابه ، وهذا أصحّ ما قيل فيه وإذا أنتجت إناث الدّواب وسائر الأنعام عند الغاصب ثمّ ماتت الأمّهات وبقي الأولاد أو مات الأولاد وبقيت الأمّهات فقول أكثر أصحابنا أن ربّها مخيّر في أخذ ما بقي ولا شيء له فيما مات أو أخذ قيمة ما غصب منه يوم غصبه وقيل : له أخذ ما بقي وقيمة ما فات وهذا أصحّ في النّظر وما أكل من أولادها ومن الأمّهات أو وهب أو انتفع فلم يختلفوا أنّ ربّها أخذ ما وجد وأخذ قيمة ما هلك بسبب الغاصب .

قال : ومن غصبت منه دنانير أو دراهم أو طعام أو ما لا يعرف إذا غاب عليه فاختلط بمثله قبل أن يزول من يد الغاصب فلربّه أخذ مثل كيل شيه أو وزنه اغتصب ذلك مغترق الذمة أو من له وفاء بما عليه من المظالم لأنّه لم يدخل بما أخذ على آخر نقصا ؛ وقد اختلف أصحابنا في معاملة من يخالط ماله الحرام والغالب عليه الحلال : فأجاز ابن القاسم معاملته الضّرورة إلاّ أن يعلم حراما فيجتنبه وكذلك لاكل طعامه وقبول هديّته ما لم يفترق ما عليه حلاله وحرامه إذ لا يكاد ينجو من معاملة مثل ذلك إلا القليل وأبى ذلك ابن وهب وقال لا يبتاع ولا تقبل هبته وأجمع أصحابنا أن متى غلب الحرام على ما بيده أنه لا يبايع إلاّ أن يبتاع سلعة حلالا فلا بأس أن يشترى منه ؛ وإن وهبها لرجل وعلم أنّه قد بقي بيده ما يفي بما عليه من التباعات فلا بأس بقبولها منه إذا علم أن أصلها حلال لأنّه لم يدخل بما أخذ نقصا .

قيل له : روى أبو العافية عن فضل بن سلمة عن ابن أبي عيسى وابن مدين وابن حبيب أنّ من اشترى سلعة حلالا بمال حرام انّه لا بأس أن تقبل منه هديّته وإن كان معترق الذّمّة لتبديل الملك .

قال : أبو العافية رجل مجهول لا يلتفت إلى روايته ولو ثبت هذا عمّن ذكرت لم يتبعوا على ذلك ولم تقم بقولهم حجّة وهذا مضارع لقول أهل العراق أنّهم يجيزون هبة المديان وإن لم يبق بيده ما يفي بدينه . وقد ثبت أنّ رجلا دبر عبدا فباعه النّبيء عليه السّلام وأعطاه ثمنه فقيل إنّه كان عليه دين فأمره بقضاء دينه ولو كان إنّما باعه لغير دين عليه لكان بيعه في الدّين أوكد لأنّ أموال النّاس ممنوعة إلاّ بحقّها وقولهم إنّ الملك تبدّل محال من اللّفظ لأنّ الأموال إذا أخذت بغير وجهها فهي على ملك مالكها حيث ما وقعت إذ لا خلاف بين العلماء أنّ من أثبت عين شيء كان له أخذه حيث ما وجده لا ينظر إلى ما صار به إلى من صار بيده.وقد سأل رجل النّبي عليه السّلام شيئا لم يكن ينبغي له أن يأخذه فغضب صلّى الله عليه وسلّم وقال : يسألني ما لا يصلح لي ولا له فان منعته كرهت المنع وان أعطيته أعطيته مالا يصلح لي ولا له فقد أخبر أنّ مالا يصلح لمن هو بيده أن يعطيه لم يصلح لأحد أخذه وهذا يردّ ما احتجوا .
قال السائل : ومن حجتّهم أنّ بيوت الأموال التي كانت قبل عمر بن عبد العزيز صارت إليه فكان يُعطي منها وكان أهل الورع يأخذون منه وهذه غفلة فمن احتجّ بها لأنّ عمر بن عبد العزيز ردّ المظالم وطاب ما بقي من بيت المال إذا لم يبق فيه شيء من المظالم وأخذ مثل ذلك جائز إذا صُرف في وجهه ؛ **قال :** وذكر ابو العافية عن فضل عن رجل سمّاه أنّ سحنون أتى بدنارين من موضع كرهه فأرسل بهما إلى من أبدلهما منه قال : هذا لا يصحّ على سحنون ، سحنون كان أنزه من هذا وقد أخبرتك أنّ رواية أبي العافية لا يُلتفت إليها ولو ثبت لكان إنّما كره سكّتهما لرنّاتها فأبدلهما من بعض إخوانه بأجوّد ذهبا على وجه المعروف لا على أنّها حرام ؛ ولقد روي عنه أنّ رجلا من ثقات أصحابه يسمّى أبا داوود شهد عنده شهادة

فأخرج كشفا بيد حمديس القطان بأسماء شهود منهم أبو داوود فكتب عليه حمديس غير ثقة فهال ذلك سحنون لما رآه وقيل لحمديس من قال فيه هذا قال : أنا قال : من أين قال : كنت معه عند غلام له حتّى **أتى شرطيّ** فاشترى منه الغلام ثوبا فذكر ذلك لأبي داوود فمرّ به حمديس فقال له اخرج القاضي بيدك كشفا قال : نعم قال : وفيه اسمي قال نعم قال : فماذا أدخلت عليه قال : إنّك غير ثقة قال : ومن أين ذلك قال : لأنّي كنت معك يوم كذا عند غلامك **فأتى شرطيّ** فاشترى منه ثوبا قال : يا هذا إنّ الغلام **ليس لي هو حرّ** ولا لي ممّا بيده شيء فسرّ بذلك حمديس وعاد إلى سحنون فذكر له قوله ففرح بذلك وحمد الله عليه لما كان يعلم من ثقة ابن داوود . **قال :** ومن غصبه معترق الذّمّة شيئا له أجبره على أنْ باعه منه أو ابتدأ مبتدىء فباع من معترق الذّمّة ومن لا يجوز قبول عطيته لكثرة ما عليه من المظالم فأخذ بذلك حميلا والحميل ممن تجوز معاملته أو اشترى سلعة حلالا وأحال على معترق الذّمّة بذلك فذلك جائز لأنّه لم يدخل على أهل دين معترق الذّمّة نقصا إنّما ردّ ذمّة على ذمّة أو أخذ ذمّة بذمّة .

قيل له : فما ذكر عن أبي الزّهراء والحسن في الرّجل يموت ويترك مالا فيه بعض ما فيه أن لورثته أخذ ذلك **قال :** ما أرى هذا يثبت عنهما ولو ثبت هذا لكان ظاهر القرآن يردّ هذا القول لأنّ الله سبحانه يقول : من بعد وصيّة يوصي بها أو دين » ؛ ولا خلاف أن كلّ من صار إليه مال غيره بغير وجهه إمّا بغصب أو عداء أو رباء أو وجه لا يجوز له أخذه به أنه دين عليه بقول الله سبحانه : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » وقال في الرّباء : فإن تبتم فلكم رؤس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون فما كان دينا على من هو بيده لم يكن وارثه أحقّ به من أهل الدّين لأنّ الدّين أوجب من الميراث بالكتاب والسّنّة والاجماع فلا تجعل خطرة رما بها قابلها لم يتدبرها أصلا ينقل الأملاك عن أهلها ولاخلاف أن هذا الميْت لو طلب في حياته لأحرى عليه من ظلمه بشيء

أو رابـى عليه به فليس موته بالذي يسقط ذلك عن ماله ولا كثرة ما عليه من التبعات وإن أهل تلك التّبعات لا يعرفون لـكثرتهم فما يبيـع ما كان بيده من ذلك لورثته ؛ ومن كانت هذه سبيله وأيس من إحصاء أتباعه فما ترك كاللّقطة التي يئس من مجـيء ربها ويبرأ منها ملتقطها ؛ وكسبيل مال ميْت لا يعرفون له وارثا .

قيل له : فمن كان عليه من التّباعات ما لا يحصيه ثمّ ورث مالا حلالا هل يجوز لمن وهبه شيئا من ذلك المـال قبوله وهل يجوز اشتراء ذلك المـال منه وهل يجوز له أكله . **قال :** أمّا اشتراؤه منه فجائز لأنّه لو اشترى سلعة حلالا بمال حرام لجاز أن تشترى منه ، وهذا بيّن في الصّحة وأمّا هبتـه إياه أو أكله منه فـلا يجوز لأنـه ممتنـع من الإنصاف من نفسه . **قيل :** فلو تزوّج به أو أعطاه في دينه هل يجوز لآخذه . **قـال :** لا . **قيل :** أليس هو قـائم الوجه وقد علم أنّ هذا المال حلال بعينه ؟ **قال :** إنّما يكون قائم الوجه الّذي تجوز أفعاله ما لم يوقف ويؤخذ على يديه ومن هو غير ممتنع من أداء ما عليه ومن يستطع الانتصاف منه وأمّا من أزال بالسلطان حكم الحق بالظلم والامتناع وهو في الحال الّذي كان يحكم به عليه لو قدر عليه فسلطان الله فوق سلطان العباد .

قيل له : فـكيف سبيـل من أراد التّوبة ممّا بيده من الأموال الحرام ؟ **قـال :** إن اكتسبـــه من ربـى فليرد على من أربـى عليـه ما أربـى به عليـه ويطلبه ان لم يكـن حاضرا فـإن يئس من وجوده فليتصدّق بذلك عنـه وإن أخذه بظلم فليفعل كذلك في أمر من طلبه **قيل :** فإن التبس الأمر عليـه ولم يدرك الحرام من الحـلال مما بيده كيف يصنع ؟ وهل يجزيه جزءا من ماله فيتصدّق به فلا وجه لهذا ولاكن يتحرّى فيه **قال :** أمّا أن يكون يجزي كلّ من هذه حاله جزء معلوم ممّا بيده فيتصدق به فلا وجه لهذا ولـكن يتحرى قدر ما بيده ممّا يجب عليه ردّه حتى لا يشك ان ما يبقى قد خلص له فيرد من ذلك الذي أزال عن يده الى من عرف ممن ظلمه أو أربـى عليه ويطلب بما

بقي من بقي له فان يئس من وجوده تصدق به عنه . **قيل له :** فما تصدق به من احاطت المظالم بذمته مما يعلم انه لا يعرف مالكه لانه لا يعرف عينه اذا غيب عليه وعلم ان هذا المتصدق لا ينتصف منه ابدا لكثرة ما عليه وكثرة مطالبيه وانه لا يحاط بذلك ولا يوصل إلى الانتصاف منه . **قال :** أما ما تصدق به عن اهله على وجه التوبة والتبري فجائز اخذه لمن تصدق به عليه واما ما أراد بالصدقة به عن نفسه فليس له ان يتصدق به عن نفسه ولا أجر له في ذلك ولا حق لمن تصدق به عليه ان لا يقبله ولو اعتقد أخذه انه حق وجب للمساكين فأخذه من أي يد صيّرته اليه لكان وجها محتملا ولو أخذ ذلك من لا تجوز له الصدقة على امر يقوم به للمسلمين ويسوغ به له الأخذ من بيت مالهم لكان هذا سبيله لأنه لو تاب من ذلك بيده لأمر ان يصرفه في ذلك فليس فعله ايّاه من تلقاء نفسه بأسوأ حالا ممّا يؤمر به .

قيل : كيف تكون توبة من أحاطت المظالم بذمته وعلم انه وجب عليه من ذلك ما لا يطيق أداه أبدا لكثرته ومتى تجوز شهادته وتصير إلى العدالة .

قال : توبته إن يزل ما بيده إما إلى المساكين أو إلى من فيه صلاح للمسلمين حتى لا يبقى بيده إلا أقل ما يجزيه في الصلاة من اللباس وهو ما يستره من سرّته إلى ركبته وقوت يومه لأنه الذي يجب له ان يأخذه من مال غيره اذا اضطرّ اليه وان كره ذلك من يأخذ منه وفارق هاهنا المفلس في قولنا لأن المفلس لم تصر اليه أموال الناس بالاعتداء هم الذين صيّروها اليه فيترك له في قولنا ما يواريه وما هو هيئة لباسه ؛ وأبو عبيد يرى ان لا يترك للمفلس من اللباس الا أوّل ما تجرى به الصلاة وهو ما يواريه من سرته إلى ركبته ثم كلما وقع بيده هذا شيء أخرجه عن يده ولم يمسك منه الا ما ذكرت حتى يعلم هو ومن علم حاله انه قد أدى ما عليه ومن أصاب الاشياء المكروهة من الاموال سرا فله ان يخرجها عن يده سرا ؛ وأما ما ظهر منه وعلمه الناس فلا يزيل الخرجه عنه فيه الا الاشهاد بأداء ما عليه وما قدر ان يتحلل منه ووجد ذلك من

أصله عن طيب انفسهم من غير خوف ولم يكن اصله من رشوة في حكم ولا في جمع حق على اهله ولا حُلُوَان كـاهن ولا مهر بغي ولا اجارة مغنّ ولا نائحة وانما كان من اعتدى او أربى فتحليل أهله يخرجه من اثمه .

وسئل عمّن صحب حدثا فكان يأخذ عليه دراهم في الفساد ثم اراد أحدهما التوبة . **فقال :** لمن أراد ذلك ما توليت قبضه وانتفعت به فعليك غرمه وردّه إلى من اعطاكه وما لم تتولّ قبضه ولا انتفعت به فهو على الآخر وان لم يوجد أربابه ولا عرفوا أو ايسر من ذلك تصدق به . **وسئل** عمن هذه صفته يوهب شيئا هل يشترى ذلك الشـيء منه وانما وهبوه للمعنى الذي هو عليه . **قال :** هو حرام لا يحـل لاحد لا باشتراء ولا بهبة . **قيل :** فان حلل الفاعل المفعول به ممّا اعطاه ثم تاب المفعول هل يجوز ذلك له ؟ **قـال :** لا وليتصدق به ولا يردّه إلى معطيه فان فـات بيد معطـاه كان عليه ان يتصدق بمثله إن كان له مثل او بقيمته وان لم يكن بيده شـيء كان دينا عليه يتصدق به الا ما املك مما اخـذ قبل بلوغـه فلا شـيء عليه فيه . **وسئل** عمّن اودع وديعة فاتجر بها فربـح . **قال :** قول مالك وابن القاسم واكثر أصحابنا : إنه يومن مما صنع في استقراضه منها والرّبـح له واستحب له أشهب ان يتصدق بالربـح وقول ابن عمر ونافع مولاه : إن الربـح لربّ الوديعة ؛ وقول ابـن ادريس المرودي وابن المنذر . إنه ان اشترى بعين المال فالبيـع مفسوخ ولا تنعقد به صفقة وان اشترى باللّفظ بغير عين معين وتمّ البيـع ثم دفع ذلك المال فالرّبـح له .

وسئل عمّن بيده مال لا يرضاه هل لمن هو في يديه أن يحج به أو يغزو فنهـاه عن ذلك .

وسئل عمن ظلم بظلامة فدفعها عنه رجل ثم وهب المدفوع عنه الدافع شيئا هل يسوغ ذلك له ؟ **قال :** إن كان من أجل دفعه عنه لم يسغ له أخذه . **وسئل** عن القاضـي يقسم بين قوم على أن يـأخـذ أجرا ، **قـال :** ان كان هو

الذي يقضى بينهم لم يجز له ذلك ، وان كان القاضي غيره وانما يأخذ لعنائه في الحساب فذلك جائز ؛ **وسئل** عمّن بيده مال يقع في نفسه أنه قد وقع في تباعاته بعض الاشياء المختلف فيها وأراد أن يتصدق بماله وهو ذو عيال أو لا عيال له ؛ **قال :** إن كان وقع فيما فيه تحريم نصّ من كتاب الله او سنّة ثابتة او اجماع فليخرج ذلك عن يده وان كان له اهل ردّه عليهم والا تصدّق به ، وان لم يكن له في ذلك نصّ ولا اجماع وكان ما بيده كثيرا أو أراد اخراج بعضه فليفعل وان كان مقلاّ وله عيال فليمسكه عليهم كي لا يخرجه ولعلّه الا يصير فيقع فيما هو أسوء منه . وان كان عازبا سويا وامن من حوالة نيته فله ان يفعل وأحسن له أن يبقي بعضه ؛ قال سفيان الثوري رحمه الله وكان من المجتهدين مكسبة فيها بعض الشيء خير من مسألة بعض الناس ومن دعته نفسه الى خير لا يشك فيه لئلا تنزع نفسه عن ذلك وان دعته إلى ما يخشى هو عاقبته وان كان فيه في الوقت بعض الصلاح فليقف عن ذلك ما استطاع الا ان يعلم من يقينه انه لا يتغير لتصرف الاحوال ويدعوه إلى خطّة رشد أو ما فيه الاحتياط فليبادر اليه ؛ ومن اودع شيئا يعلم انه صار إلى من أودعه ايّاه بالتعدي او ان ما اودعه اياه معترق الذمّة فعليه ان يردّه إلى أهله إن قدر والا فعليه قيمته لأهله إن عرفهم او يتصدّق بها ان لم يعرفهم اذا ردّها إلى من أودعه . ولقد جلس رجل من اصحاب سحنون عند اسماعيل القاضي ببغداد فأتى رجل بجوهرة نفيسة ممّا خرج من خزانة الملك فجعل القوم يقلبونها وقيل لصاحب سحنون : الا تنظرها ؟ قال : لا ! قال له اسماعيل : هات برميتك قال : انها ان وصلت في يدي صارت في ضماني . فاعجب ذلك اسماعيل واستحسنه ، وروى ان رجلا وجد حبّة بيد ناهب فظنها من جيد امرأته واشتراها من الناهب بسبعة دنانير دفعها اليه وجعلها في بطاقة ثم تبيّن له ان الحبّة ليست لامرأته فاستقاله فأقاله فردّ له الدنانير وأخذ الناهب الحبّة فأفتى من حضر من فقهاء القيروان ان القيمة تلزمه يتصدق بها

ويلزمه ان يتصدق بالسبعة دنانير ايضا ولم يحتالوا في ذلك وكان ذلك حين فتح ابراهيم بن احمد تونس . **قال أحمد :** هذا جواب لم يتدبّر ولم يلزمه شيء في الحبّة ولا الدنانير ولو كان هذا يلزم كان من اشترى شيئا في سوق المسلمين على وجه الحلال ثم تبيّن له انّه مغصوب فهلك بغير سببه او كانت جارية فوطئها ان تلزمه القيمة فيما هلك او الحدّ فيما وطئ . ومن اختلط له مال في مال حرام فله فيه أخذ وزن ماله وقال النبي عليه السلام من تقلّد شيئا من الارض طوقه يوم القيامة من سبع ارضين وقال الظلم ظلمات يوم القيامة وقال من كانت عنده مظلمة فليتحلل منها قبل يوم لا دينار فيه ولا درهم . وروى انه قال : أيعجز أحدكم أن يكون كأبي صمصم كان اذا خرج من منزله قال : اللّهم انى قد تصدقت بعرضي على الناس ؛ وان اختلاف العلماء في التحلل : فكان ابن المسيب لا يحلّل احدا من عرض ولا مال وكان سليمان بن يسار يحلّل من العرض والمال وعن مالك : التحليل من المال دون العرض وثبت الحديث ان الناس اذا جاوزوا الصراط يوم القيامة وقفوا حتى ينتصف بعضهم من بعض وقد قال بعض العلماء والاعمال كلها السيئة تعود فيما بين العبد وبين الله سبحانه ، أمّا أن يأخذ المظلوم من حسنات الظالم أو يلقي عليه من سيئاته أو يعفو عنه او يرضي الله المظلوم ويعفو عن الظالم المسلم ثم يرجع امر العباد إلى الله تعالى . وقال بعض العلماء ان من ظلم وأخذ له مال فانما له ثواب ما احتبس عنه إلى موته ثم يرجع الثواب إلى ورثته ثم كذلك إلى أحق منهم لان المال يصير بعد الوارث وهذا صحيح في النظر وعلى هذا القول ان مات الظالم في المال قبل من ظلمه ولم يترك شيئا او ترك ما لم يعلم وارثه فيه بظلم لم تنتقل تباعة المظلوم إلى ورثته لأنه لم يبق للظالم ما يستوحيه ورثة المظلوم واذا كان على المظلوم تباعات في المال لم يورث ماله من التباعات الا بعد أن يوفي ما عليه لان الذي عليه أحق بماله من الدين الذي له من الوارث وقد احصى الله ذلك وعلمه وعلم من يصير اليه .

مشكلة الدوائر الخليلية وصلتها بحقيقــة الوزن في الشعــر العــربى

بقلم : محمـد اليعلاوي

جمع الخليل بن أحمد الفراهيدى بحور الشعر الخمسة عشر او الستّة عشر على خمسة أشكال مستديرة تسمّى عند العروضيّين **الدوائر الخليليّة .** وتبعه العروضيّون العرب في جميع العصور فأثبتوا في مدوّناتهم ومتونهم هذه الأشكال او ذكروا أسماءها وبحورها ، قبل التبسّط في دراسة الأوزان . ولكنّهم لم يذكروا قطّ سرّ هذه الدوائر ، ولا رأيناهم مرّة يتساءلون عن قصد الخليل من اختراعها وتبويبها وتسميتها . ولعلّ أوّل من اهتمّ بهـذه المشكلة هم الباحثون الغربيّون ، وعلى الخصوص المستشرق الألماني قوتهولد فـايل Gotthold Weil في مقـال قيّم نشره بالطبعة الجديـدة من دائرة المعارف الإسلامية بعنوان « **عروض** » (1) .

استقرى هذا الباحث جميع محاولات سابقيه لشرح أركـان الـوزن في الشعر العربيّ ، فوازن بين النظريّات التي تجعله قائما على تتابع حركات وسواكن في نسبة معيّنـة والافتراضـات التي تضيف الى هـذا الأساس من الكمّية الصوتيّة **وقعـا** خاصّا شبيها بالوقع الموسيقي في سلّم الموسيقى المعروف،

(1) دائرة المعارف الاسلامية ـ الطبعة الفرنسية ـ ج 1 ـ ص 688/698

وانتهى به البحث الى افتراض جديد مدعّم بحجج ، وهو أنّ أساس الوزن في الشعر العربيّ ليس تتابع مقاطع صوتيّة على نسب معيّنة فحسب ، بل هو أيضا تتابع **إيقاع** خاصّ في مواضع معيّنة من كلّ بحر . فالوزن في الشعر العربيّ يعتمد الكمّية الصّوتيّة من جهة ، ويعتمد **وقعا عروضيّا** مضبوطا من جهة أخرى . وانّما أوحى اليه بهذا الاكتشاف درسه المدقّق للدوائر الخليليّة .

وقصدنا في هذا المقال هو أن نشرح نظريّة هذا الباحث في خصوص علاقة الدوائر بمفهوم الوزن في الشعر العربيّ ، فنفيد بها من يهتمّ بدراسة العروض او تدريسها . ثمّ ، في قسم ثان ، أن نتوسّع في الاستنتاج ، فنحاول ضبط مفهوم **العلّة والزّحاف** بالرّجوع الى هذا الوقع العروضيّ الذي ثبت وجوده في البحور الشّعريّة .

الدّوائر الخليليّة :

هي خمسة أشكال اصطلاحيّة يجمع فيها العروضيّون كافّة الأوزان الشّعريّة على ترتيب معيّن ، وعلى أساس الكمّيّة الصّوتيّة . وجَمْعُ البحور في دائرة ما ، يتمثّل في ترجمة الأصوات التي تتركّب منها أجزاء تلك البحور ، الى رمزين : ـــ و ٥ ، ينوبان عن المقطع الطّويل (لُنْ = ـــ) ، أو القصير (عَـ = ٥) ، ثمّ رسم هذه الرّموز على خطّ الدّائرة . وانّما ترسم حول خطّ الدائرة رموز البحر الأوّل من تلك الدائرة . فيكفي بعد هذا أن نبدأ قراءة الرّموز من موضع آخر من الدائرة حتّى نظفر بالبحر الثّاني ، ثمّ الثالث الخ... (ونكتفي ، تسهيلا للعمل المطبعيّ ، برسم الدوائر على سطور مستقيمة ، أي ، باسقاطها اسقاطا خطّيّا كما يقول الرّياضيّون) .

فالدّائرة الأولى — واسمها دائرة المختلف — تجمع ثلاثة بحور متركّبة من أربعة عشر مقطعا ، وأربعة وعشرين حرفا (متحرّكا وساكنا) :

1 — الطّويل :

فعولن مفاعيلن فعو لن مفا عيلن × فعو لن مفا عيلن فعولن مفاعيلن

ه — — ه — — — ه — — ه — — — ه — — ه — — — ه — — ه — —

2 — البسيط :

مستفعلن فا علن مستفعلن فا علن

3 — المديد :

فا علا تن فا علن فا علا تن فاعلن

هذه الدائرة توحي الينا بملاحظتين : أوّلا ، انّ بحورها متركّبة من أجزاء مختلفة : فاعلاتن/فاعلن ، ومستفعلن/فاعلن وفعولن/مفاعيلن . ولعلّ هذا هو سبب إطلاق الخليل اسم « المختلف » عليها . وثانيا ، انّ هذا الوضع للأجزاء حول الدائرة ، جعل الأسباب مرسومة تحت الأسباب ، والأوتاد تحت الأوتاد ، وبالخصوص انّ الأوتاد المجموعة فعو/علن ، مفا/علا ، مرتّبة تحت بعضها بعضا ترتيبا طبقيّا .

والدائرة الثانية — دائرة المؤتلف — تجمع الوافر والكامل ، ولهما خمسة عشر مقطعا ، وواحد وعشرون حرفا :

4 — الوافر :

مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن × مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن

ه — ه ه — ه — ه ه — ه — ه ه — ه — ه ه — ه — ه ه — ه — ه ه —

5 — الكامل :

متفا علن متفا علن متفا علن

ونلاحظ هنا أيضا ترتيب الأوتاد المجموعة مفا/علن تحت بعضها بعضا . أمّا اسم الدائرة ، فقد يفهم من تشابه (= ائتلاف) الأجزاء في كلا البحرين .

والدائرة الثالثة تجمع الهزج والرّجز والرمل ، وكلّها له اثنا عشر مقطعا ، وواحد وعشرون حرفا :

6 — الهزج :

مفاعيلن مفاعيلن مفاعيلن × مفاعيلن مفاعيلن مفاعيلن

ه — — — ه — — — ه — — — ه — — — ه — — —

7 — الرّجز :

مستفعلن مستفعلن مستفعلن

8 — الرّمل :

فا علاتن فاعلاتن فا علاتن

هنا أيضا ، رتّبت الأوتاد مفا/علن/علا ترتيبا طبقيّا . امّا اسم الدائرة — المجتلب — فلا وجه عندنا لتأويله ، ولا حديث للعروضيّين عن هذه الأسماء. ولنلاحظ مبدئيّا أنّ كافّة هذه الأجزاء التي تركبت منها البحور الثمانية المذكورة ، أجزاء ذات أوتاد مجموعة : فعو/متَفا/علن/علا/مُفا .

أمّا الدائرة الرابعة ، فهي الأخرى تتركّب من بحور ذات اثني عشر مقطعا وواحد وعشرين حرفا ، شأن الدائرة الثالثة ، وبحورها ستّة :

9 — السّريع :

مستفعلن مستفعلن مفعولات × مستفعلن مستفعلن مفعولات

— — ه — — — ه — — — ه — — — ه — — — ه — — — ه — — —

10 — المنسرح :

مستفعلن مفعولات مستفعلن

11 — الخفيف :

فا علا تن مستفع لن فا علا تن

– – ه – – – ه – – – – – – ه × – – ه – – – – ه – –

12 — المضارع :

مفا عيلن فاع لا تن مفا عيلن

13 — المقتضب :

مفعولات مستفعلن مستفعلن

14 — المجتثّ :

مستفع لن فاعلا تن فاعلا تن

وهذه الدائرة لها شأن خاصّ ، يظهر لنا من تأمّل ترتيب بحورها : فلئن رتّبت الأوتاد المجموعة تحت بعضها بعضا في الأجزاء الأولى والأخيرة من السريع والمنسرح ، والخفيف والمضارع . فانّ البحرين الأخيرين — المقتضب والمجتثّ — يبدآن بجزء مرتّب تحت « مفعولات » من البحر الأوّل . ومفعولا ت هذا ليس له وتد مجموع . وانّما له وتد مفروق « لات »، فتعيّن علينا ان نكتب الجزء الواقع تحته ، مستفعلن وفاعلاتن ، بكيفيّة تظهر ذلك الوتد المفروق ، أي ان نقطّع هذين الجزءين على أساس : مستفع لن . وفاع لا تن . ومن هنا نفهم لماذا يكتب العروضيّون هذين الجزءين على شكلين مختلفين ، فيرسمون تارة : مستفعلن وتارة مستفع لن

وفاعلاتن وتارة فاع لاتن

فهذه الدائرة تتركّب من بحور ذات أجزاء مشتملة على وتد مجموع ، وجزء آخر مشتمل على وتد مفروق . ولعلّ هذا هو السّبب الذي جعل الخليل يُفرد هذه البحور في دائرة خاصّة ، بالرّغم من تماثل الكمّيّة الصّوتيّة بينها

وبين الدائرة الثّالثة ، ثمّ جعله يطلق عليها اسم « المشتبه » : فانّ تقطيع بحورها فيه « شبهة » او التباس .

بقيت الدائرة الخامسة — دائرة المتّفق — ، فهي تجمع المتقارب والمتدارك اي اثني عشر مقطعا وعشرين حرفا . والأجزاء في كلّ واحد متماثلة : فعولن وفاعلن ، ولعلّ في هذا شرحا لاسم « المتّفق » :

15 — المتقارب :

فعولن فعولن فعولن فعولن فعولن فعولن فعولن فعولن

ه — — ه — — ه — — ه — — ه — — ه — — ه — — ه — —

16 — المتدارك :

فا علن فا علن فا علن فا علن

وهنا أيضا ، وقع الوتد المجموع علن تحت فعو ، ولم يظهر وتدمفروق .

وبعد هذا التّفصيل للدّوائر الخليليّة ، يمكن أن نستنتج بعض الاستنتاج :
أوّلا ، انّ هذه الدوائر ، وان اتّفقت أحيانا في عدد المقاطع — شأن الثالثة والخامسة — ، او في عدد الحروف — مثل الثانية والثالثة — ، فهي لا تتّفق فيهما معا ، الاّ الرابعة والثالثة ، وقد بيّنّا انّ سبب فصلهما هو وجود الوتد المفروق « مفعولات » وما يتبعه في مُسْتَفْعِ لُنْ وفاع لاتن ، في الرابعة . فلا يوجد حينئذ دائرتان متّفقتان تماما في عدد المقاطع وعدد الحروف ، وجنس الأوتاد التي تتركّب منها بحورها . فيفضي بنا هذا الى استنتاج آخر : وهو انّ أساس ترتيب البحور عند الخليل مزدوج : الكمّيّة الصّوتيّة أوّلا ، وجنس الأوتاد ثانيا . فالبحور تتفاوت بكمّياتها الصّوتيّة — بمقاطعها — وبتنوّع أوتادها ، فكأنّ للأوتاد شأنا خاصّا في تكييف الأوزان واعطائها النغمة الخاصّة بكلّ بحر . فلندقّق النظر في هذه الأوتاد .

الأوتاد المجموعة والأوتاد المفروقة ــ الوقع العروضيّ :

يتركّب الوتد من مقطعيْن : قصير ثمّ طويل ، ويسمّى عند العروضيّين وتدا مجموعا (ه ــ) ، أو عكسه : طويل ثمّ قصير ، ويسمّى عندهم «مفروقا» (ــ ه) . ولئن ميّز العروضيّون بين النّوعين ، فانهم لم يروا فرقا كبيرا بينهما ، او ، بالأحرى ، لم يفهموا الفرق الذي لاحظه الخليل ، اذ اكتشف انّ بعض الأجزاء ، كمُستفعلن مثلا ، قد تقطّع بكيفيتين . الأولى تظهر وتدا مجموعا : مستفــعلن ، والثانية تبرز وتدا مفروقا : مستــتفــع لن ، فكتبها على هذين النحوين ، وتبعه العروضيّون في طريقة الرّسم هذه دون انتباه الى القصد منها . على انّ هناك أجزاء أخرى تقطّع بهاتين الطريقتين :

	1	2
1 ــ فاعلن	فـا علـن	فاع لن
2 ــ مستفعلن	مستفـعلـن	مس تفـع لن
3 ــ فاعلاتن	فـا عـلا تن	فاع لا تـن
4 ــ متفاعلن	متفـا علـن	مـتـفـاع لن

فهذه أربعة أجزاء ــ من ثمانية ــ تدخل بمفردها أو تشارك في تركيب اثني عشر بحرا ، ولا تظهر في تركيب البحور الأولى من الدوائر الأولى والثانية والثالثة والخامسة ، أي لا تشارك في الطّويل ، ولا الوافر ، ولا الهزج ولا المتقارب . وانّما تتركّب هذه الأبحر الأربعة من الأجزاء الأربعة الأخرى (ما عدا مفعولات «المخصوص بالدائرة الرابعة») ، وهي :

5 ــ فعولن	فـعــو لن	
6 ــ مفاعيلن	مـفـا عيلن	
7 ــ مفاعلتن	مـفـا علتن	
8 ــ مفعولات		مفعولا ت

فهذه الأجزاء الأربعة لا يمكن تقطيعها الا بالكيفيّة الأولى ، التي تبرز وتدا مجموعا لا غير ، او مفروقا لا غير في مفعولات ، فلا التباس في تقطيعها ، اذ لا يمكن ان نقرأ « فعولن » باظهار « ـعول » فقط ، ولا مفاعيلن باظهار « فاعـ » فقط ، اذ لا يستقيم الباقي مع تقسيم الجزء الى مقاطع طويلة أو قصيرة ، او الى أسباب خفيفة او ثقيلة حسب عرف العروضيين . أمّا مفعولات ، فمن الواضح انّه لا يتضمّن الا وتدا واحدا ، وانّ هذا الوتد مفروق .

بقي انّ الأجزاء « فعولن » و « مفاعيلن » و « مفاعلتن » ليس فيها الا وتد مجموع فعو/مفا/مُفا ، وانّها هي وحدها التي تركب البحور الأولى من الدوائر الأولى والثانية والثالثة والخامسة ، بل انّها لا تظهر الا في هذه البحور الأربعة التي ترد في صدارة الدوائر . ولا شكّ انّ وضعها في صدارة هذه الدوائر مقصود لدى الخليل ، ومقصود لهذه الخاصيّة التي أثبتناها ، أي كون أجزائها لا تقطّع الا بكيفيّة واحدة تبرز الوتد المجموع لا غير ، فصار لها ، بهذه الخاصيّة ، وظيفة « الدليل » دليل التقطيع ، ازاء البحور الموالية ، تلك البحور التي يحتمل تقطيعها طريقتين ، باظهار الوتد المجموع او المفروق . ومن هنا نفهم لماذا كانت الأوتاد المجموعة في هذه الدوائر الأربع (خلا الرابعة) مرتبة ترتيبا طبقيا تحت الوتد المجموع من البحر الدليل : فالطويل دليل للبسيط ثمّ للمديد ، يمنع تقطيع أجزاء هذين البحرين بالطريقة الثانية ، وكذلك شأن الوافر مع الكامل ، والهزج مع تابعَيه ، والمتقارب مع المتدارك . وكذلك الشأن أيضا في الدائرة الرابعة : فالسريع دليل تقطيع بالطريقة الأولى (في جزءَيْهِ الأوّلين) والثانية (في جزءه الثالث مفعولات) معا . فالنتيجة الأولى لدراستنا للدوائر الخليليّة هي هذه : **انّ وظيفة البحر الأوّل من كلّ دائرة هي أن يرشد الى طريقة تقطيع البحور الموالية له ، وذلك باظهار الأوتاد المجموعة وحدها في عشرة بحور والأوتاد المجموعة مع وتد مفروق في البحور الستّة التي تتركب منها الدائرة الرابعة .**

واذا دقّقنا النظر في الوتد المجموع ، لاحظنا أنّه يأتي في صدارة الأجزاء التي تتركّب منها البحور الأولى في الدوائر (ما عدا الرابعة) ، وانّه يأتي في آخر أجزاء البحور الثّانية — البسيط والكامل والرّجز والمتدارك — وانّه يتوسّط أجزاء البحور الثالثة — المديد والرّمل — ولا شكّ انّ هذا الترتيب بحسب موقع الوتد المجموع في الجزء مقصود أيضا لدى الخليل . فكأنّ هناك سرّا او قرابة خاصّة تجمع بين البحور الأولى من جهة ، والبحور الثانية من جهة أخرى ، والبحرين الواقعين في مرتبة ثالثة من الدائرة ، من جهة ثالثة . هذا السرّ هو الاكتشاف الثاني — بعد اكتشاف البحر الدليل — الذي اهتدى اليه الباحث قوتهولد فايل ، وهذا تفصيله :

انّ الأبيات في الشّعر العربيّ تحمل ايقاعا خاصّا على أجزائها العروضيّة. وهذا الإيقاع او التوقيع الخاصّ ، يستقرّ ، حسب علماء الأصوات ، على الأوتاد في الكلمة ، و « الكلمات العروضيّة » ، أي الأجزاء ، لا تملك الاّ وتدا واحدا ، مفروقا ، او مجموعا كما رأينا . ويقول علماء الأصوات أيضا : انّ الأوتاد المجموعة تحمل توقيعا قويّا اصطلحوا على تسميته بـ « التوقيع الصّاعد » . امّا الأوتاد المفروقة ، فالتّوقيع فيها ضعيف خافت ، فسمّوه « توقيعا منخفضا أو نازلا » . وهذا التوقيع يحلّ على الخصوص بالمقطع الطّويل من الوتد : فكلمة « لقد » مثلا تحمل التوقيع على مقطع « قد » (توقيع صاعد) . أمّا كلمة « جئت » ، فمقطعها الموقّع هو « جئـ » (توقيع نازل) . وبقدر ما تكون نواة البحر، أي جُزْؤُهُ ، متركّبة من أوتاد مجموعة أو مفروقة، يكون وزنه ، أي نغمته وتوقيعه ، « صاعدا » قويّا ، أو « نازلا » منخفضا . على أنّ التوقيع الصّاعد نفسه تتفاوت قوّته بحسب موضع الوتد المجموع في الجزء : فاذا تصدّر الوتد المجموع الجزء ، كان للجزء ، وبالتالي للبحر ، أقوى وقع ، وهو الذي اصطلح فايل بتسميته « شتامفوس » ، Stammfuss أي ، تقريبا ، « التوقيع المستقرّ الثّابت » . واذا كان الوتد المجموع في آخر الجزء ، صار له

ولبحره توقيع أقلّ قوّة ، وهذا النّوع سمّاه فايل « شبرينقفوسّ » Springfuss أي ، « التوقيع القافز » . أمّا اذا كان الوتد المجموع في وسط الجزء ، فانّ الوقع يكون مستضعفا ، دون النوعين السابقين في القوّة ، واسمه عند فايل « هامفوسّ » Hemmfuss أي « التوقيع المُعرقل » . على أنّ هذا النوع الثالث ، مهما ضعف ، يفوق التوقيع المكتسب من الوتد المفروق ، أي التوقيع النّازل . فاذا رتّبنا الأجزاء بحسب قوّة التوقيع فيها ، وصلنا الى الجدول التالي :

صاعد 1	فعولن و مفاعيلن و مفاعلتن
	أقوى من
صاعد 2	متفاعلن و مستفعلن و فاعلن
	أقوى من
صاعد 3	فاعلاتن
	أقوى من
نازل	مفعولات

ومنه وصلنا الى ترتيب للأوزان الشّعريّة ، بحسب قوّة توقيعها : فأقوى البحور توقيعا ، وأشدّها « تنغيما » هي : الطّويل والوافر ، والهزج ، والمتقارب ، : وهذا سبب ثان لجعلها في مرتبة رؤساء الدّوائر (والسّبب الأوّل، كما سبق ، هو أن يقاس عليها البحور التّالية لها ، الملتبسة التقطيع) . يلي هذه البحور ، أوزان المرتبة الثانية : البسيط ، والكامل ، والرّجز ، والمتدارك . ثم ، من بعدها ، بحور المرتبة الثالثة : المديد والرّمل ، وأخيرا ، بحور الدائرة الرّابعة التي أضْعَفَهَا جزء « مفعولات » وما يقاس عليه . وممّا يدعّم هذا الترتيب انّ البحور « الضعيفة » التوقيع نادرة الوجود في الشّعر العربيّ القديم، مثل المديد والرّمل وكثير من بحور الدائرة الرّابعة . وعلى سبيل الاستدلال ، نقول : انّ المعلّقات العشر نظمت في معظمها على أوزان الدائرة الأولى والثانية

(ثـلاث من الطّويل ، وثـلاث من البسيط ، واثنتـان من الـكامل وواحد من الوافر) ، ونظمت واحدة فقط على الخفيف من الدائرة الرّابعة . وأنّ ديوان المتنبّـي فيه 129 قصيدة من الطويل والوافر والمتقارب (رؤساء الدوائر) ، و97 قصيدة من البحور الثانيّة ، واثنتان فقط من البحور الثالثة . فالنتيجة الثانية من درسنا للدوائر الخليلة هـي اذن : انّ الخليل بن أحمد تفطّن الى حقيقة الوزن في الشّعر العربـي وفهم الطّريقة المثلى لإنشاده ، لا بوحـي من مطارق النحاسين في أسواق البصرة ، كما تقول الأساطير ، بل بالاستماع المدقّق الى الأعراب في المربد او في بواديهم عند انشادهم ، فاكتشف انّ أساس الوزن والنغمة في الشّعر ليس تتابـع المقاطع الصّوتية الطويلـة والقصيـرة فقط — اى الـكميّـة الصوتية — بل هو أيضا توقيـع خاصّ — التوقيـع العروضي — (accent prosodique) يحلّ بالخصوص بالأوتاد المجموعة من الأجزاء ، فيكيّف سير نغم البيت ، بحسب موضع الوتد الموقّع من الجزء — في صدره او وسطه او ذيله — ويُضفي عليه « ترنيمة » خاصّة . كما اكتشف بحورا قليلة ذات وقع مزدوج : بعض أجزائها موقّع توقيعا قويّا ، وجزء منها توقيعه خافت « نازل » ، وهـي بحور الدائرة الرابعة ، فنبّه الى خاصيتها هذه باطلاق اسم « المشتبه » على هذه الدائرة.

والخلاصة انّ : الدوائر الخليليّة صور ايقاعيّة استنبطها الخليل لاظهار موضع التوقيـع في كلّ جزء واظهار درجة ذلك التوقيـع في القوّة ، بحسب موضع الوتد المجموع من الجزء . والدليل على أنّ الوتد المجموع هو النقطة الحسّاسة في البحر ، انّ كلّ تغيير يصيبه ، وهو ما سمّاه العروضيّون « العلّة » ، لا بدّ ان يتكرّر في كامل أبيات القصيد . ومن هنا نصل الى بحث مشكلة عروضيّة أخرى ، وهـي مسألة « الزّحافات والعلل » .

الزّحافات والعلل :

انّ البحور التي وضعها الخليل ورتّبها على الدّوائر ، بحور « نظريّة » لا توجد في الشّعر العربـيّ على هذا الشـكل الذى بسطناه . فالأوزان المستعملة

حقا ، تخالف هذه البحور النظرية بنقص في الغالب . وهذا النقص هو ما سماه العروضيون « زحافا » و « علة » ، وان كانوا يذكرون ، من بين العلل ، « علل زيادة » كالترفيل والتسبيغ .

فالزحاف ، حسب تعريفهم ، هو تغيير يلحق الأسباب بتسكين الحرف الثاني منها او حذف الثاني الساكن (فهو من ناحية الكمية الصوتية ، يعمل بنقص اذن) ، لا يعدو عمله حشو البيت ، أي لا يلحق الضرب ولا العروض (حشو البيت هو مجموع التفعيلات من البيت غير العروض والضرب) . على أن بعضهم يقول : « هو تغيير مختص بثواني الأسباب مطلقا « بلا لزوم » (2) ، فكلمة مطلقا توهم بأن الزحاف قد يلحق أسباب العروض والضرب أيضا ، ولهذا التأويل أهميته في التمييز بين الزحاف والعلة . أما عبارة « بلا لزوم » ، فهي متكررة عندهم في شأن الزحاف ، ومعناها أنه غير واجب التكرر في كامل أبيات القصيد الواحد . ولا غرابة في هذا ، ما دام الزحاف لا يلحق الا الأسباب ، فلا يمس الأوتاد الموقعة التي تعطي للبيت وزنه ونغمته .

أما العلة ، فهي « تغيير غير مختص بثواني الأسباب ، واقع في العروض والضرب ، لازم لهما (3) ، وعبارة « غير مختص بثواني الأسباب » ، مبهمة ، أي لا تأتينا بحل في أمر التغيير الذي يلحق الأسباب في العروض والضرب — وإنها لتتغير فعلا فيهما — هل هو من عمل الزحاف ام من عمل العلة . فلئن اتفق العروضيون على لزوم العلة في العروض والضرب ، أي تكررها فيهما ، فانهم سكتوا عن عملها فيهما ، أهي تصيب الوتد وحده ، ام تصيب الوتد والسبب معا ؟ هذا ، وانهم ذكروا عللا غير لازمة ، تصيب أول البيت ، وانها لا تهمنا في هذا البحث الذي ركزناه على أواخر الأشطار ، وعلى أوتادها الحاملة للوقع . ثم انهم ذكروا عللا تعمل بالزيادة كما سبق ،

---

(2) متن الكافي للقناعي — ضمن مجموع المتون ص 552 — نشر مصطفى بابي الحلبي بمصر

(3) ميزان الذهب في صناعة شعر العرب لاحمد الهاشمي — مطبعة حجازي 1951 — ص 13

ولكنّهم أضافوا : « لا تلتحق هذه الزّيادة الاّ بالبحر المجزوء ، وهو الذي حُذف جزء من صدره ، وجزء من عجزه (4) ، ومعنى هذا أنّ العلّة تعمل هي الأخرى ، بنقص دائما في السّبب ، بالنسبة الى البحر النظري . فجزء « متفاعلن » مثلا ، يصير « متفاعلاتن » بالترفيل ، ولكنّ هذا السّبب الخفيف « تن » الذي زيد اليه ، انّما هو ما تبقّى من « متفاعلن » الموالي له . والنتيجة الأولى التي نصل اليها في بحثنا للزحافات والعلل ، هي توضيح او تنقيح لقول العروضيّين : وهو أنّ

العلّة والزّحاف يعملان بنقص دائما ، بالنسبة الى بحر الدائرة.

بقي أمر لزوم العلّة ، وعدم لزوم الزّحاف ، فهو متّفق عليه عند العروضيّين ، ويمكن تدعيمه عمليّا بتقطيع بعض الأبيات :

8 وان مُدْدَت الأيدي الى الزْزَاد لم أكن
بأعجلهم اذ أجشع القوم أعجل

14 ولست بمهياف يُعَشْشِي سوامه
مُجَدْدَعَة سقبانها وهي بهَل

(لامية العرب) (5)

فالزّحاف في فعولن/فعولُ لم يتكرّر بين البيتين في الصّدر . أمّا الذي أصاب العروض والضرب : مفاعيلن/مفاعلن ؛ فمتكرّر . ولكنّ الأوتاد الموقّعة » فَعُو/مَفَا بقيت سالمة من كلّ تغيير . وهذه أبيات من أوزان أخرى :

10 فوقفت أسألها وكيف سؤالنا صمّا خوالد ما يبين كلامها
33 فمضى وقَدْدَمَها وكانت عادة منه اذا هي عَرْرَدَت اقدامها

(معلّقة لبيد وهي من الكامل الاول) (6)

(4) تحفة الادب في ميزان اشعار العرب للشيخ محمد بن ابي الشنب ـ طبعة ميزنّوف 1954 ـ ص 12
(5) لامية العرب ضمن مجاني الادب للاب شيخو ـ الجزء السادس ـ ص 201
(6) شرح القصائد السبع الطوال لابن الانباري ـ تحقيق عبد السلام محمد هارون ـ دار المعارف 1963 ص 528 و 550

الزّحاف هنا من متفاعلن الى مستفعلن غير متكرّر بين الصّدر والعجز ، والأوتاد على سالمة من التغيير .

ومن معلّقة عمرو بن كلثوم (وافر أوّل) :

18 أبا هند فلا تعجل علينا وأنظرنا نُخَبِّرْكَ اليقينا
49 عشوزنة اذا انقلبت أَرَنَّتْ تَشُجُّ قفا المُثَقِّفِ والجبينا (7)

الزّحاف بين مفاعلتن/مفاعيلن غير متكرّر في الصّدر من البيتين ، والأوتاد المجموعة كذلك سالمة . ومن هذا التقطيع نضيف الى تعريفات العروضيّين نتيجة ثانية ذات علاقة بمسألة التوقيع العروضيّ ، وهي أنّ :

الأوتاد في حشو الأبيات لا يلحقها التغيير .

ولا غرابة في سلامة الأوتاد من التغيير في حشو البيت : فهي التي تحمل الوقع المكيّف لنغمة البيت كما قلنا ، وعليها هي المعوّل في تحقيق تلك النغمة ، فأهمّيّتها لوزن البيت كانت لها بمثابة الوقاية من التغيير . وقد فهم العروضيّون انّ العلل لا تلحق الحشو ، ولكنّهم لم يَعْزُوا ذلك الى سبب ، فيقول ابن عبد ربّه في أرجوزته العروضيّة (8) :

« والعلل التي تجوز أجمع وليس لهنّ في الحشو موضع
« ثلاثة الخ.... »

لو عدنا بالنّظر الى بيتي لبيد من الكامل ، وتأمّلنا بالخصوص ضربهما ، لرأينا انّ الضّرب الأوّل « ـــنُ كَلاَمُهَا » موافق للجزء متفاعلن ، أي سالم، وانّ الضرب الثاني « إِقْدَامُها » لحقه الزّحاف فصار « مستفعلن » ، وهذا دليل عمليّ أوّل ، على أنّ بعض التغييرات التي تصيب العروض والضّرب قد

(7) المرجع نفسه ص 387 و 404
(8) كتاب العقد ـ طبع المطبعة الازهرية سنة 1928 ـ ج 4 ص 40

لا يشترط تكرّرها او لزومها كما يقول العروضيّون ، أي قد تعتبر زحافا رغم وقوعها في العروض والضرب (وقد أصيبت العروض أيضا في أحد هذين البيتين) ، ونزيد تدعيما لفكرتنا هذه ، بالنظر في هذه الأبيات للأعشى ميمون (9) ، وهي من الرّمل الثالث :

33 وشمول تحسب العين اذا (فعلن)
صفقت ورْدَتَهَا نور الذّبح (فاعلن)

36 ذات غور : ما تبالي يومها (فاعلن)
غرف الابريق منها والقدح (فاعلن)

38 واذا مكّوكها صادمه (فعلن)
جانباها كرّ فيها فسبح (فعلن)

فهذه أعاريض وأضرب تختلف عن بعضها بعضا ، فتخالف ما يذهب اليه العروضيّون من وجوب تكرّر التغيير الذي يصيب هذين الجزءين ، والتغيير الذي أصابهما هنا انّما هو زحاف خبن فاعلن/فَعِلن . فوجب علينا اذن أن ننقّح قولهم باخراج الأسباب الواقعة في الضرب والعروض من حكم التكرّر واللزوم ، فنقول — وهي نتيجتنا الثالثة — :

انّ أسباب العروض والضّرب يلحقها زحاف غير لازم .

مع الاعتراف بأنّ عبارة « مطلقا » من متن الكافي (10) التي أشرنا اليها وأوّلناها ، قد تؤدّي الى هذه النتيجة أيضا . وفي هذا ، نخالف ما يقوله فايل في مقال دائرة المعارف الاسلامية من أنّ الأوتاد والأسباب معا تلحقها العلّة . فإذا أخرجنا الأسباب من حكم العلّة ، صارت العلّة مختصّة ، لا بالعروض والضّرب فحسب ، بل بأوتادهما لا غير ، وهذا دليل عمليّ : فلنأخذ مثلا

(9) ديوان الاعشى الكبير — شرح محمد حسين — مكتبة الآداب 1950 — ص 241 و 243
(10) راجع التقييد رقم 2

الكامل الثاني : متفاعلن متفاعلن متفاعلن × متفاعلن متفاعلن فعلاتن ، الذي أصيب الوتد المجموع في ضربه بالقطع ، وهي علّة : متفاعلن/متفاعلْ / فَعِلاتن . فهذه علّة تكرّرها واجب حسب القاعدة ، أي ، ينبغي أن تكون جميع أضرب القصيد المبني على الكامل الثاني ، فعلاتن كما في هذين البيتين للأعشى (11) :

1 واذا أردت بأرض عكل نائلا (مستفعلن)
فاعمد لبيت ربيعة بن حذار (فعلاتن)

2 يهب النجيبة والنجيب بسرجه (متفاعلن)
والأدم بين لواقح وعشار (فعلاتن)

والى هذا الحدّ ، نحن محمولون على تعريف العلّة بأنّها « تغيير يلحق الأوتاد الحاملةَ للوقع في العروض والضّرب ، وأنّها لا تلحق الاّ الأوتاد ، وانّها لازمة » . ولكنّ هذا التعريف ، ان صحّ في حكميْه الأوّلين ، فَهْوَ لا يصحّ في الثّالث ، اذ نجد في الشّعر العربيّ ، وفي هذا الوزن الكامل الثاني نفسه ، أضربا معلولة من متفاعلن الى فعلاتن ، تصاب بتغيير في حرفها الثاني ، أي بزحاف ، فتصير « مفعولن » ، مثلما في القطعة 59 للأعشى (12) :

1 أبلغ بني قيس اذا لاقيتهم (مستفعلن)
والحيّ ذهلا هل بكم تعيير (مفعولن)

2 زعمت حنيفة لا تجير عليهم (متفاعلن)
بدمائهم وأظنّها ستجير (فعلاتن)

3 كذبوا وبيت الله يفعل ذلكم (متفاعلن)
حتّى يوازي حزرما كندير (مفعولن)

---

(11) ديوان الاعشي الكبير – شرح محمد حسين – مكتبة الآداب سنة 1950 ص – 245

(12) ديوان ص 305

4 أو أن يروا جبّارها وأشاءها (متفاعلن)
يعلو دخان فوقها وسعير (فعلاتن)

فهنا أضرب « مفعولن » وأخرى « فعلاتن » في نفس المقطوعة ، موزّعة توزيعا عادلا . ونجد نفس الازدواج في الضّرب في قصيدة أبـي نواس في مدح الرشيد ، وهـي أيضا من الكامل الثاني :

حـيّ الديار اذ الزمان زمان واذ الشباك خوى لنا ومعان

ولكنّ هذا الإزدواج غير خاصّ بالكامل ، بل يوجد في بحور أخرى : فالخفيف الأوّل مثلا (فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن) 2 ، يحدث فيه ، الى جانب الضّرب الأصلي « فاعلاتن » ضربان آخران « فعلاتن » و « مفعولن » ، وذلك في القصيد الواحد . وقد انتبه العروضيّون الى هذه الخاصيّة من الخفيف ، فنبّهوا اليها ، دون أن ينتبهوا الى تضاربها مع قاعدة النزوم في العلّة ، التي طالما كرّروها : « يدخل الخبن جميع أجزاء الخفيف ، حشوا ، وعروضا وضربا... ويدخل التشعيث الضرب الأوّل من العروض الأولى » — أي الخفيف الأوّل (13) — . وهذه معلّقة الحارث بن حلّزة من الخفيف الأوّل (14) :

1 آذنتنا ببينها أسماء (مفعولن)
ربّ ثاو يملّ منه الثّواء (فاعلاتن)

2 بعد عهد لها ببرقة شمّا (فعلاتن)
ءَ فأدنى ديارها الخلصاء (مفعولن)

5 لا أرى من عهدت فيها فأبكي الـ (فاعلاتن)
ـيوم دلْها ، وما يردّ البكاء (فاعلاتن)

(13) ابن ابي الشنب — المرجع المذكور — ص 76

(14) شرح القصائد السبع الطوال لابن الانباري — تحقيق عبد السلام هارون — ص 433/436

فالضّرب فيها موزّع بين فاعلاتن (30) ، وفعلاتن (9) ، ومفعولن (14) ، وكذلك العروض ، تزدوج فيه فاعلاتن (32) مع فعلاتن (21) . ونجد هذا الازدواج أيضا في مخلّع البسيط – البسيط السادس – بين فعولن ومفعولن ، مثلما في معلّقة عبيد بن الأبرص (15) :

1 أقفر من أهله ملحوب (مفعولن)
فالقطّبيّات فالذّنوب (فعولن)

5 أرض توارثها الجدوب (فعولن)
فكلّ من حلّها محروب (مفعولن)

14 فكلّ ذي نعمة مخلوس (مفعولن)
وكلّ ذي أمل مكذوب (مفعولن)

28 ريش الحمام على أرجائه (مستفعلن)
للقلب من خوفه وجيب (فعولن)

بل انّ في بعض أبياتها القليلة عروضا أصليّة « مستفعلن » محافظة على وتدها المجموع الموقّع . كما نجده أيضا في الرمل الثالث ، وقد رأينا نموذجا منه في أبيات الأعشى الحائية .

وبعد ، فما هو موقفنا من هذه العلل التي تصيب الأوتاد الموقّعة في الأعاريض ، وخاصّة في الضّروب . فلا تتكرّر خلافا للقاعدة العامّة في لزوم العلّة ؟ فهل يتغيّر تعريفنا لها ، فنجعلها كالزّحاف في الحدوث والزّوال ؟ الرّأي عندنا أنّ لزومها أو عدم لزومها موكول الى نوع الجزء الذي تقع فيه العلّة ، او بالأحرى ، الى نوع التوقيع الحاصل في ذلك الجزء : فاذا كان توقيعا قويّا ، من النوع الذي سمّيناه « ثابتا » شتامفوس Stammfuss ،

(15) المعلقات العشر واخبار شعرائها للشيخ الامين الشنقيطي – المكتبة التجارية الكبرى سنة 1353 هـ – ص 171/175

فالعلّة لازمة التكرّر لا محالة ، فلذلك لا نعدم أبدا الوتد الموقّع مَفَا في الطّويل، ولا مُفَا في الوافر ، ولا مَفَا في الهزج ، ولا فَعُو في المتقارب ، وأقصى ما يصيب هذه الأوتاد انّها تنقلب مِن مَفَا(عيلن) الى فَعُو(لن) في الطويل الثالث او من مُفَا(علتن) الى فَعُو(لن) في الوافر . أمّا في المتقارب ، فتبقى « فعو » او يزول الوتد فيصير « فَعْ » . فكأنّ الوزن في هذه البحور الأربعة التي ذكرناها محتاج بصفة خاصّة الى أوتاده ، فلا يدعها تتغيّر أو تزول . أمّا البحور الأخرى ، بحور المرتبة الثانية ، ذات الوقع الصاعد المتوسّط « شبرينقفوس Springfuss » ، وخصوصا بحور المرتبة الثالثة أو بحور الدائرة الرابعة ، ذات الوقع الصاعد الضّعيف « هامفوس Hemmfuss » او ذات الوقع النازل ، فكأنّ فقدان الوتد المجموع لا يضيرها ، فلذلك نراه يتغيّر وقعه بتغيّر الكمّيّة الصّوتيّة مثلما في « فاعلاتن/فعلاتن او « فاعلن/فعلن ، او يزول تماما مثلما في فاعلاتن/مفعولن

فنتيجتنا الرابعة من هذا البحث في مسألة الزحاف والعلّة هي اذن هذه :

العلّة تغيير يلحق الأوتاد الحاملة للوقع العروض والضرب ، ولا يلحق غيرها .

وهي نتيجة قد أبصرها العلاّمة بلاشير (16) اذ قال : « على عكس الزحافات التي لا تصيب الأوتاد قطّ ، فانّ العلل تُلحِق تغييرا بالأوتاد المتركّبة من ثلاثة أحرف ، على الخصوص ، وتظهر دائما في آخر المصراع » ، الاّ أنّنا نزيد حصرا ، فنقول انّها لا تصيب الاّ الأوتاد . ولكنّ تعريفنا للعلّة كما أثبتناه منذ قليل يحتاج الى استدراك في مسألة لزومها او عدم لزومها ، فنقول ، وهي نتيجتنا الخامسة :

انّ تكرّر العلّة او عدم تكرّرها موكول بقوة التوقيع في الجزء .

---

(16) ر. بلانشير : علم العروض العربي . على ضوء بحوث حديثة ــ مجلة ارابيكا ــ ج 7 ــ 1960 سفر 3 ــ ص 232

فلا تتكـرّر في الأجزاء ذات الوقـع المتوسّط او الخافت ، ويشتـرط تكرّرهـا في الأجـزاء ذات الوقـع القويّ الثّابـت كـفعولن ومفـاعيلـن ومُفَاعَلَتُنْ ، وهـي أجزاء البحور الأولى من كلّ دائرة (عدا الرابعة) .

والخلاصة انّ التوقيـع في الأوزان الشّعريّة له علاقة وثيقة بالزّحاف والعلّة : فأوتاد التوقيـع لا يلحقها تغيير في حشو البيت . امّا في العروض والضّرب ، فقد تعتلّ هذه الأوتاد ، فتلزم علّتها كامـلَ الضّروب اذا كان الجزء ذا وقع قويّ (طويل — وافر — هزج — متقارب) ، ولا تلزم الضّروب ذات الوقع المتوسّط القوّة او ضعيفها .

علائق رشيد رضا ، صاحب مجلة المنار مع التونسيين (1898 ـ 1935)

بقلم : المنصف الشنوفي

إنّ علائق السيّد رشيد رضا مع التّونسيّين هي في الحقيقة امتداد لعلائق هؤلاء مع الحركة الإصلاحية التي تزعّمها في الشّرق المجدّدان الأفغاني وعبده وكانت مجلّة العُروة الوُثقى لسان حالها (1) .

ولئن لم يزر صاحب مجلّة المنار البلاد التّونسيّة فإنّ علائقه مع رجال الإصلاح بها ، عن طريق مجلّته من جهة (2) وعن طريق التّراسل من جهة اخرى ، كانت متصلة متينة ، وإن عكّر صفوها أحيانا شوائب من توتّر كاد يشرف بها على القطيعة وتنافر كاد يؤدي بها إلى التأزّم لولا ثبات صاحب المنار على منهجه في الإصلاح ، منذ صدور مجلّته (15 مارس 1898) إلى توقّفها يوم وفاته (22 اوت 1935) ممّا يجعلنا نتساءل عن مدى تفاعل « مدرسة المنار » مع الحركة الإصلاحية التّونسيّة ، طوال الثّلث الأول من القرن العشرين .

---

(1) انظر دراستنا : مصادر عن رحلتي الشيخ محمد عبده الى تونس (6 ديسمبر 1884ـ4 جانفي 1885 و9ـ24 سبتمبر 1903) حوليات الجامعة التونسية 1966 ، العدد 3 ، ص : 71ـ102 .

(2) صدرت المنار أول الامر أسبوعية وأصبحت شهرية ابتداء من عامها التاسع (1906) وقد كان مراسلوها في أول عهدها البشير صفر والهادي السبعي والشاذلي درغوث وأما وكيلها بتونس والجزائر والمغرب فكان علي بن الحاج محمد زنين ، المقيم في حاضرة تونس في شارع القصبة عدد 35 . وقد شكا صاحب المنار تلكؤه أكثر من مرة .

ولعلّ أهمّ توطئة لتحديد هذه العلائق هي الإشارة إلى أنّ بذور التّناقض التي ظهرت في الحركة التي تزعّمها الشيخ عبده في اقتصارها على الإصلاح الديني والاجتماعي دون خوض أصلاً في السّياسة قد نمت وتأصّلت بل تغلّبت وسيطرت على بقيّة المقاصد في مجلّة المنار ممّا جعل صاحبها يرخي العنان للسّياسة (3) ، فكانت حركته — فيما نعتقد — ليست فقط سلفيّة منافحة عن الإسلام (apologétiqu) كما ذهب الى ذلك عدد من المستشرقين (4) بل ، الى جانب ذلك ، سياسيّة ملتزمة باختيارات معيّنة ، تطوّرت بتطوّر الاحداث التّاريخية السياسيّة ، وصدر فيها صاحب المنار عن إيمان وتبصّر ، ممّا ألّب عليه الخصوم وكثّر سوادهم .

لذلك ، فقضيّة هذه العلائق تتنزّل في محيط سياسيّ ، ممّا يجعلنا نقسّمها إلى أدوار ثلاثة ، مسايرين في ذلك تطوّر الأحداث السّياسيّة في البلاد العربيّة الإسلاميّة .

1) 1898 — 1908 : من نشأة المنار إلى إعلان الدّستور العثماني .

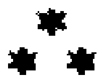
2) 1908 — 1924 : من استبداد الاتحاديين بالحكم إلى إلغاء الخلافة .

3) 1924 — 1935 : من استفحال أمر « اللايكيّة » إلى وفاة رشيد رضا .

(3) المنار ، م 12 ، ج 1 ، ص 1ـ15 : « أنشيء المنار في أواخر شوال سنة 1315 (مارس 1898) وكان صحيفة ذات ثمان صفحات وقد بينت في العدد الأول منه الغرض من إنشائه ومذهبه في الاصلاح الديني والأدبي وسكت عن بيان منهاجه في الإصلاح السياسي ... وإنما أسكتني عن ذلك الأستاذ الإمام (الشيخ محمد عبده رحمه الله) ... وكان مما قاله في ذلك « إن المسلمين ليس لهم امام في هذا العصر غير القرآن وان الخوض في السياسة العثمانية فتنة يخشى ضررها ولا يرجى نفعها وإن الناس ههنا لا يحبون أن يسمعوا في السلطان والدولة إلا ما يشتهون ... والمسلمون لا ينهضون الا بالتربية والتعليم فلا تخلط السياسة بمقاصدك الإصلاحية لئلا تفسدها عليك ، فانها ما دخلت في عمل إلا وأفسدته . » هذا معنى ما قاله ... وليت السياسة تركتني كما تركتها ، أو سالمتني كما سالمتها ولكن أبى عليها الخرق والعتو ، إلا ان تجاهد مني غير عدو . فآذنتني بالحرب وآذتني في الأهل والصحب ، حتى ألجأني اعتداؤها على حقيقتي ، الى التقصي في استعراف ظلمها لأمتي ، ثم إلى الدخول في زمر المجاهدين ، لرؤسائها المعتدين » .
انظر ايضا : المنار : فاتحة م . 14 .

(4) MARCEL COLOMBE : l'évolution de l'Egypte (1924 - 1950). Paris 1951, p p : 119 - 124, 132 - 139,
J. JOMIER : le commentaire coranique du Manar Paris 1954, (intrad p p. 1 - 22)

وامتاز كلّ دور بكفاح سياسـيّ وكفاح دينـيّ اجتماعـيّ صدر صاحب المنار في كليهما عن هذه العقيدة الرّاسخة في عقله وقلبه وهو أنّ الإسلام دين ودولة والفصل بين الدّين والسّياسة بدعة واعتقاد التّـكافل بينهما والعمل به واجب لا يحتاج إلى تقرير (5) .



1) الدور الأوّل : 1898 — 1908
من نشأة المنـار إلى إعلان الدّستور العثماني

أ) المجـال السّياسي

لم تـكن مجلّة المنار في أوّل نشأتها سوى امتداد لمجلّة العروة الوثقى تنهل من منهلها وتسعى لتحقيق مقاصدها (6) فتصدّت تبعا لذلك للخوض في مسألتين شغلتا العالم منذ القرن الماضي وكرّس لهما المجدّدان الأفغاني وعبده حياتهما وهما المسألة الشّرقيّة والجامعة الإسلاميّة (7) . وإنّ النّاظر في مجموعة

(5) لم يـكـد يخلو عدد من المنار من الخوض في هذه المسألة الخطيرة
انظر خاصة : المنار ، م 23 ، ص : 435ـ441 و ص : 539ـ548 .
المنار ، م 26 ، ص : 100 ، 212 ، 230 ، 363 ، 383 و789 .
المنار ، م 27 ، ص : 196ـ206 .
انظر أيضا : شكـيب أرسلان : تعاليق على ترجمة كـتاب : حاضر العالم الاسلامي تأليف : LOTHROP STODDARD . ج 3 ، ط . 2 مصر . 1933 . ص : 351ـ364 .

(6) رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الامام : ج 1 ـ القاهرة 1931 ص : 306ـ389 .

(7) HENRI LAOUST : le Califat dans la doctrine de Rasïd Ridâ, Beyrout 1938 , p . 271 .
Le Réformisme orthodoxe des Salafiya et les caractères généraux de son orientation, R. E. I, 1932 t. IV.
(.....اشار الى ما في فهم رشيد رضا للجامعة الاسلامية من ثنائية مبنية على التناقض بين الرابطة السياسية panislamisme politique وبين الرابطة الدينية internationalisme confessionnel) .

المنار ، وعلى الخصوص في هذا الدّور الأوّل ، ينتهي إلى الاعتقاد أنّ كفاح رشيد رضا السّياسي يتلخّص في تحذير الرّاي العام العربيّ الاسلاميّ من خطر الاستعمار الأوربيّ الذي جعل من المسألة الشّرقيّة منفذا لأطماعه في هدم كيان الدّولة العثمانية ، ذلك الرّجل المريض الذي ينبغي أن لا يحيا ولا يموت . ونتج عن ذلك أن اتّجه صاحب المنار يحذّر المسلمين من غائلة الاستعمار الأوربي ، مهما ابتعدت البلاد واختلفت المشارب وألوان الاستعمار وعلى هذا الاساس أوّلاً كان اهتمامه بتونس .

ثم إنّه فهم الجامعة الإسلامية فَهْماً لا يخلو من تناقض فهي في اعتقاده جامعة سياسية من جهة ورابطة أو وحدة دينيّة من جهة أخرى والمهمّ هو أنّه اهتمّ في كفاحه بالمظهر الثّاني (8) من الجامعة الاسلاميّة ، مظهر التآخي الرّوحي والترابط الدّينيّ بين الشّعوب المؤمنة بالإسلام فاسترجاع وحدة الامّة الدّينيّة هو أوكد الأهداف وأقدس المقاصد ونتج عن ذلك أن انكبّ صاحب المنار على احوال الامّة الإسلامية يفحص أدواءها ويبحث لها عن العلاج وعلى هذا الأساس ثانياً كان اهتمامه بتونس .

فماذا كان موقفه إذن من الاستعمار الفرنسي بتونس ؟

لعلّ أعنف مقالة كتبها صاحب المنار في هذا الدّور الأوّل من علائقه مع التّونسيّين هي مقالة « فرنسا والإسلام » (9) يقول رشيد رضا :

« لا تزال دولة فرنسا في حيرة وعمه لا تهتدي معهما إلى طريقة تطمئنّ إليها في سياسة مستعمراتها الإسلاميّة . فكتّابها من الفلاسفة والسّياسيّين

(8) رشيد رضا : تاريخ ... ص 307 : « واما اشتهر عن السيد جمال الدين من كونه يريد بالجامعة الاسلامية ان يكون للمسلمين كلهم دولة واحدة فلم أره في شيء من العروة الوثقى ولا في غيرها مما كان يرويه عند الاستاذ الامام وهو اعلم الناس بمقاصده وأعماله ...
والظاهر انه كان يكتفي بالوحدة الدينية وتجديد الإصلاح الإسلامي المدني والحربي في كل شعب له دولة أو تصير له دولة وعقد المحالفات بين هذه الدول ثم الاعتراف لأقواهن برياسة الحلف بتمثيله للخلافة الإسلامية كجعل الدول الألمانية ملك بروسية إمبراطورا للمملكة وعاصمته مركز الوحدة العامة مع بقاء كل دولة مستقلة بنفسها في بلادها » .

(9) المنار ، م 5 ج 8 (22 جويلية 1902) ص : 292ـ298 .

يواصلون البحث في الإسلام على مرّ الأعوام لأجل إشراع هذه الطريقة... سلكت فرنسا مع المسلمين مسلك العنف والضغط حتّى حالت بين المسلمين الذين تحت سيادتها أو حمايتها وبين العلم والتّعليم ...

الفرنسيون أبعد النّاس عن الدّين وعن التّعصّب له وحكومة الجمهورية ليست مسيحيّة فتتعصّب على الإسلام لأجل النّصرانية وإنّها لتقاوم النصرانيّة في بلادها كما تقاوم الإسلام في مستعمراتها ولكنّها تعتقد أنّ المسلمين قوم حرب وأنّ السّياسة الواقية أن يوضعوا في الأرهاق وتغلّ الأيدي إلى الأعناق وأن تحجب شمس العلم عن الأنظار وتحول بين الأسماع وما في العالم الإسلامي من الأخبار .

فرنسا في شكّ مريب من أمر مسلمي مستعمراتها لا تدري أيمكن أن تعيش معهم في وئام وهدون وسلام أم ذلك من الأماني والأوهام . لو أطلقت فرنسا لأهل الجزائر حرّيّة العلم والدّين وحافظت فيهم على أحكام شريعتهم وآدابها وساعدتهم على ترقي بلادهم وعمرانها وأقامت فيهم العدل لكانت هذه المعاملة الحسنى أقوى جاذب يجذب جيرانهم... (التّونسيّين) إن سياسة فرنسا في إفريقيا خرقاء... » .

وأصل هذه الخصومة القريب هو مقال هانوتو والإسلام (10) يقول رشيد رضا : « ...1) ولكنّ فلسفته في عقائد الدّين الإسلامي كان من معناها أنّ المسلمين عامّة لا يمكن ان يجاروا المسيحيين أو الآريين لأنّ طبيعة عقائدهم لا سيّما القضاء والقدر تحول دون ذلك وذكر أنّ المسلمين بدينهم المقتضي للتأخّر يسهل على أوربّا ان تحلّ رابطته وتفصم عروته...

2) مسألة الفصل بين السّلطة الدّينيّة والسّلطة السّياسيّة وهي أهمّ المسائل التي تطلبها أوربّا من المسلمين والجرائد التي تدعو الشرقيين أو

(10) المنار : م 3 ج 15 ص : 345ـ377 وتاريخ : ج 1 ص : 799ـ804 : رد الأستاذ الإمام على هانوتو .

المسلمين إلى مدنيّة اوربا تجتهد في اقامة الحجج على انّ النجاح موقوف على هذ اافصل .

3) إنّ النجاح مشروط بخدمة الوطن منزّهة عن كلّ غاية شخصيّة أو مذهبيّة (قال) لانّ الوطن الواحد يجمع أكثر من عنصر ومعتقد ولكن الاعتقاد وحده لا يجمع الا عنصرا واحدا الى ان قال : لهذا كانت الرابطة الوطنيّة اعمّ من الرابطة الدّينيّة وهي التي كانت قاعدة أوربّا وبها تقدّمت ونجحت »

ويردّ عليه رشيد رضا : « ونحن نقول إنّ هذا القول لا يصدق على الدّين الإسلامي فانّ الرّابطة الإسلاميّة لها طرفان طرف روحيّ يضمّ ابناء الدّين وطرف مادّي اجتماعي يضمّ مع المسلمين غيرهم من العناصر ما عدا المحاربين الذين لا عهد لهم ويجعل الجميع سواء في الحقوق... وقد اوضحنا هذا في مقالة نشرت في المجلد الثاني عنوانها (الجنسية والدّيانة الاسلامية)

إلاّ انّ صاحب المنار ، مصانعة لفرنسا وتمهيدا لزورة الاستاذ الامام الشيخ عبده للجزائر وتونس سنة 1903 . عدّل من حكمه القاسي (11) :

« كنا كتبنا مقالة عنوانها (فرنسا والاسلام) نصحنا فيها لهذه الدّولة العظيمة بأن تعامل مسلمي مستعمراتها بالحسنى لتملك قلوبهم وتأبى غائلتهم... وفي هذه الأيّام قد زار الجزائر رئيس الجمهوريّة وبشّر الأهليين بأنّ هذه الزّيارة مبدأ معاملة جديدة مرضيّة وبالغ في استمالة القلوب وطلب الائتلاف »

ويبدي رأيه في سياسة فرنسا بتونس ، بعد سنتين ، قائلا (12) : «أمّا رأينا في سياسة فرنسا مع المسلمين في مستعمراتها فقد بيّناه غير مرّة وقلنا إنّه يستحيل أن يطمئن المسلمون لحكمها ما لم تمنحهم الحريّة التّامّة في الدّين

---

(11) المنار : م 6 ج 2 (14 افريل 1903) ص : 79_80 .

(12) المنار م 8 ج 12 ، ص 479_480 (مشروع بناء مسجد في باريس : رشيد رضا لا يمانع في ذلك « فعسى ان ينجح المشروع » .

والعلم وتساعدهم على التّعليم والعمران بالفعل لا بالقول ولا بإيهام الجرائد وإن سمّيت إسلاميّة وقد سمعنا وقرأنا ما دلّنا على أنّها قد اهتدت إلى هذا الـرّأي » .

وكان مؤتمر الاستعمار بمرسيلية سنة 1306 فيثبت (13) صاحب المنار الخطاب الذي القاه به المقيم العامّ الفرنسي روني ميليه RENÉ MILLET ويعقب عليه قائلا (14) : « كتب هذا الوزير في الإسلام والمسلمين كتابة خبير بصير وقد صدق في قوله إنّ جراثيم الحياة كامنة في الإسلام وانّ الرجوع إلى القرآن بعد تفسيره واستخراج ثماره بطرق العلوم العصريّة هو الذي يعيد الحياة إلى المسلمين... أنا موقن بصحّة كلامه وصدقه وربّما كان اعتقادي هذا أقوى من اعتقاده ولـكنّـي أشكّ في فقه أمّته حقيقة ما يقول وقدرتها على الانسلال من الوهم القديم الذي أشار إليه...

لا نطلب من فرنسا للمسلمين أكثر ممّا أشار اليه مسيو ميلي وهو السّعي في تعليمهم وتربيتهم بالذي ذكره والشّرط الذي اشترطه وهو أن يكون القصد تقدّمهم .

وقد شكرنا لها في هذه الأيّام ما كان من التّنفيس عن حملة الأقلام وإنشاء مجلس الشّورى وإن كان دون المرام فعسى أن يكون هذا بدء سياسة مثلى يشكرها لها الأنام » .

ولـكنّ هذا المؤتمر فشل ، رغم تفاؤل رشيد رضا ، في تحقيق التّفاهم أو التّقارب بين التّونسيّين والاستعمار الفرنسي . ممّا أدّى هذا الأخير إلى عقد مؤتمر ثانٍ بباريس « مؤتمر شمال افريقيا » سنة 1908 (15) وكان مآله

(13) المنار : م 10 ج 10 ص : 774ـ780 (نقلا عن جريدة الحاضرة التونسية) .
(14) المنار : م 10 ج 11 ص 867ـ869 .
(15) انظر : الشيخ الفاضل بن عاشور : الحركة الأدبية والفكرية في تونس القاهرة 1956 ص 86ـ105 (أهم الأحداث السياسية بتونس مدة هذا الدور الأول) .

الفشل الذّريع مرّة ثانية ، إلاّ أنّ صاحب المنار نقل خطبة المقيم العام ريني ميليه « الإسلام والمدنية الحديثة هل يتّفقان » (16) . وقال معقّبا عليها :

« وآثارنا تلخيصها لما فيها من الحقائق والإنصاف » .

وبهذا يتجلّى أنّ رشيد رضا كان ينظر الى سياسة فرنسا الاستعمارية بتونس ، مدّة هذا الدّور الأوّل ، بعين الحذر ، الاّ ما صدر عنها من بوارق سياسة تعليمية نزيهة .

والجدير بالملاحظة أنّ صاحب المنار كان يردّ هذا « التّنفيس » في سياسة فرنسا تجاه التّونسيّين إلى زيارة الشّيخ عبده لتونس والجزائر . يقول (17) :

« هذه فرنسا التي كان منهجها في مقاومة تعلم المسلمين في الجزائر أمرا معروفا قد أنشأت ترجع إلى سياسة الإنكليز في التّساهل وقد تكلّم الشيخ محمد عبده ، مع رجالها في تونس والجزائر في مساعدة المسلمين على التّعليم فوجد منهم ارتياحا إلى ذلك وقد نشرت جريدة الطّان LE TEMPS من عهد قريب مقالة في الاحتفال بمدرسة الجمعيّة الخلدونيّة ذكرت فيها أن مصدر هذه الحركة العلمية في تونس هو الشيخ محمد عبده وبعض المجلات المصريّة التي تحثّ المسلمين على الجمع بين علوم الدّين والدّنيا » .

ب) المجال الدّينيّ التّعليميّ :

لقد اشرنا الى ان الجامعة الاسلامية كانت عند رشيد رضا أوّلا وعلى الخصوص ترابطا روحيا وتآخيا دينيّا جعلاه يضع اصلاح الاسلام عن طريق التربية والتّعليم في الرّتبة الاولى ، وهو وإن لم يجاهر بعد بمشروع مدرسة

(16) المنار : م 11 ج 11 ص : 818-835 .
(17) المنار م 8 ج 6 ص 240 .

الدّعوة والإرشاد ، فإنّه فتح أعمدة المنار ، منذ نشأته ، للخوض في هذه المسائل ، من إصلاح الازهر وانتقاد علماء الجمود والحشوية والتّقليد ودعوة الى إحياء اللغة العربية وفتح باب الاجتهاد (18) .

فليس من الغريب إذن أن يهتمّ بما يجري بصنو الازهر ، جامع الزّيتونة بتونس ، من إصلاحات جوهريّة ، (19) خاصّة وقد أتت مدرسة الخلدونيّة متمّمة لما كان خاليا منه وهي العلوم الكونيّة والرّياضيّة واللّغات الحيّة ، ممّا جعل المنار يذهب الى تفضيل جامع الزّيتونة على الأزهر . يقول(20) في مقال تحت عنوان : (علماء تونس ومصر وجامع الزّيتونة والازهر) : « كان الأستاذ الإمام رحمه الله تعالى يقول : إنّ مسلمي تونس سبقونا إلى إصلاح التّعليم حتّى كان ما يجرون عليه في جامع الزيتونة خيرا ممّا عليه أهل الأزهر ولمّا عاد من سفره الأخير إلى تونس كتب مذكّرات عن حال التّعليم فيها وجاء ببعض الأوراق الرّسمية في ذلك وقال لي غير مرّة إنّي سأعطيك ما عندي في ذلك لأجل أن تضمّ إليه رأيي وما تراه وتنشره بالمنار في مقال يكتب في المقابلة بين جامع الزّيتونة والجامع الأزهر » .

ويشيد في نفس المكان من المنار ، بعلماء تونس ووزرائها الذين هم من « العلماء » منوّها بجمعيّة طلاّب جامع الزّيتونة التي أسّسها جماعة من خيرة الطلبة وترأسها الشّيخ محمد رضوان ويورد خطبة الشّيخ محمد النّخلي التي قالها في ندوة الافتتاح معقّبا عليها : « نحيّي الجمعية الزّيتونية المباركة ونحمد

(18) المنار ، م 1 ص : 56 و767 ، م 4 ص : 216 .

(19) المنار : م 1 ص : 87 (لجنة تألفت بتونس لإدخال العلوم الرياضية بالزيتونة بالمشاركة مع الخلدونية) .
المنار : م 1 ص : 295 (الشهادات العلمية) ، ص 318ـ320 : (الخلدونية) .
المنار : م 4 ص 387ـ393 : التطويع بالجامع الأعظم .

(20) المنار : م 10 ص 71ـ77 .

الله أن وجد في علمائنا مثل هذا الخطيب وعسى أن يكون لطلاّب الأزهر مثلهـا » (21) .

كذلك كان المنار منذ اعداده الأولى حربا على البدع وأهل الطّريق وكانت هذه الحرب موجهة بالخصوص ضدّ الشيـخ الطّـرقي أبـي الهـدى الصّيّادي الذي أصبـح ناسّلطان عبد الحميد ألـزم له من ظلّـه « يمـلي عليـه الأحكام ويقرّر بوحيه سياسة الأنام » . وكان لهذا الشيـخ أتباع بتونس . كال لهم صاحب المنار من الشّتم والتنديد ما كال ، خاصة الشيـخ احمد جمـال الدّين التّونسـي ، صاحب كتاب : « بلوغ الأرب في مآثر الشيـخ ذهب »(22)

وقد أشرنا في دراسة ماضية (23) إلى ما لاقته دعوة المنار ، في خصوص الإصلاح الدّينيّ ، من تأييد من قبل التّونسيّين كالشّيـخ الطّاهر بن عاشور وعبد العزيز الثعالبـي ومحمد شاكر . ولقد كانت دعوة المنار ، طوال هذا الدّور الأوّل ، محور اهتمام الصّحف التّونسية التي صدرت آنذاك ولم يكن تقريظ المنار لما صدر منها (24) مجرّد مناصرة صحافيّة بل على أساس أنهـا أداة لتعصير اللّغة العربيّة وإحياءُ اللغة العربيّة ضمانٌ لهذه الرّابطة الاسلامية الممتدّة الاطراف ، (INTERNATONALISME ISLAMIQUE) التي هي ركن من أركان العقيدة السّلفيّة (25) .

***

(21) من الغريب أن صاحب المنار لم يلتفت الى معقل من معاقل التعليم بتونـس وهو المدرسة الصادقية وإن كـان أورد ، نقلا عن الحاضرة . محادثة بين صاحب الحاضرة والدبيـش عن حال التعليم بتونـس (المنار م 5 ص : 511ـ514) نجد تعليلا لذلك تلويحـا لا تصريحا عند : الشيخ الفاضل بن عاشور : نفـس المرجع ، ص 87ـ88 في حديثه عن جمعية قدماء الصادقية : « روحها الثقافية غربية » .

(22) المنار : م 10 ص 873ـ876 .

(23) انظر : دراستنا : نفـس المرجع .

(24) نرجيء لبحث مستقل دراسة تفاعل الصحافة التونـسية مع الصحافة العربية في المشرق ونقتصر على الاشارة الى أن رشيد رضا قرظ (الصواب) و(السعادة العظمى)و(خير الدين) (والرزنامة التونسيـة) و (تونـس) و (ترويح النفوس) و (المرشـد) و (المعارف) و(المنير) و(التقـدم) و(أبوقشة) و(النصيحة) .

(25) ص : 206 ، نفس المرجـع HENRI LAOUST: le Réformisme orthodoxe

2) الدّور الثّانـي : 1908 — 1924
من استبداد الاتحاديين بالحكـم الى إلغاء الخلافـة

أ) المجال السياسي :

لقد كانت فاتحة هذا الدّور الثّاني إعلان الدّستور العثماني (24 جويلية 1908) مع ما تبعه من خلع السّلطان الأحمر عبد الحميد الثاني (27 افريل 1909) وخاتمته إلغاء مصطفى كمال للخلافة العثمانية (3 مارس 1924) وهو دور خطير كان له أبلغ الأثر في مجرى الحركة الإصلاحية في البلاد العربيّة الإسلاميّة والجدير بالملاحظة أنّ الحركة الإصلاحية بتونس بقيت ، طوال هذا الدّور الثّاني ، متعلّقة متين التعلّق صادقة بالخلافة العثمانيّة وبتركيا وإن تلوّن هذا التّعلّق بميزتين اثنتين .

فأمّا النّابتة التّونسية المشتغلة بالإصلاح ،وهو ما اصطلح عليه من تسميتها بـ : JEUNES TUNISIENS (26) فقد والت ولاءً لا تشوبه شائبة حركة تركيا الفتاة أو JEUNES TURCS « الجون ترك » وتزعّـم هذه النّابتـة التّونسيـة في أوّل أمرها علي باش حانبه وكان لسان حالها جريدة التّونسـي باللّسان الفرنسـي أوّلاً LE TUNISIEN (1907) ثم باللّسـان العـربـي ثـانيـا « التّـونسـي » (1909) وكان من أعمالها أن احتضنت المهاجرين من « الجون ترك » وأكرمت مثواهم ، وأمّا بقيّة الطّبقات التّونسيّة فإنّها بقيت متعلّقة بمقام الخلافـة العثمانيّة ، ذلك السّدّ الرّمزي في وجه الاستعمار الأوروبيّ الزّاحف ، الذي كان يرى أنّ المسألة الشّرقية ينبغـي أن تؤول إلى اقتسام أشلاء هذا « الـرّجل المريض » وليس المجال هنا أن نصدر بحكم مّا على هذه النّزعة الشعـوريّـة الاسلاميّة ولا على ما تنمّ عليه من تناقض في جوهر حقيقتها وواقعها إذ أن

---

(26) انظر لما عنهم في : (في اماكن متفرقة من الكتاب) (د . ت) تونس
CHEDLY KHAIRALLAH. le Mouvement Jeunes Tunisiens.

حاكمـي الإيالة التّـونسيّة سعوّا منذ أوائل القرن الماضـي ، وعلى الخصوص في عهد المشير أحمد باي الاوّل ، وبايعاز من أوربّا ، إلى التحلّل من القيود التي تربطهم بمقام الخلافة والسّلطنة بالآستانة وعملـوا على تـوفيـر أسبـاب الاستقلال (27) ، شأنهم في ذلك شأن مصر مثلا ، في عهد محمد علي وليس من باب الصّدفـة أن أدّت هـذه النّـزعـة الاستقلاليـة البلـديْن الاسلاميين المذكوريْن الى احتلال فرنسـي وإنـكليزي في نفس الوقت تقريبا (1881 و1882)

وكلّ ما في الأمر أنّ الجامعة الاسلامية أوالإتحاد الإسلامي وما ينطويان عليه من تعلّق بالخلافة العثمانيّة التي كادت تصبح وهما قانونيّا (fiction juridique) بقيا عقيدة الجمهـور من التّـونسيين وغيرهـم من جمهور الشعوب الاسلاميّة ، بما في ذلك عدد من القادة المشهورين (28) .

أمّا صاحب المنار ، ذلك المهاجر السّوري إلى مصر ، هربا من النّيـر الحميدي الذي كان يسعر ناره أهل الطرق بقيادة أبـي الهدى الصّيّادي ، فإنّه ابتهج لإعلان الدّستور العثماني ورحّب بجمعيّة الاتّحاد والتّرقّـي ، لـكنّه ، إيمانا بعقيدته في الإصلاح ، احترز كثيرا ونبّه محذّرا (29) : « الفضل في هذه المزايا الكثيرة التي نلناها في هذا اليوم لجمعيّاتنا السّياسيّة العاملة ولضبّاطنا ذوي النّباهة والغيرة والحميّة والبسالة... لـكن الحذر الحذر من عواقب نشوة الظفر ، الحذر الحذر من إهانة شخص السّلطان والتّسلّق إلى عرشه بالبغـي والعدوان... الحقّ أقول إنّه لا يخشى علينا من سلب الحريّة وإنّما يخشى علينا من سوء استعمال الحرّيّة » أساس هذا الاحتراز من قبل رشيد رضا

(27) انظر : أحمد بن ابي الضياف : إتحاف أهل الزمـان بأخبار ملوك تونـس وعهد الأمان ، ج 4 تونـس 1963 (متفرقات) ج ، 5 تونـس 1964 (متفرقات) ج 6 تونـس 1964 ص : 13ـ30 (علاقة تونـس بالدولة العثمانية) .

(28) لقد رمـى التونسيون والأمير شكـيب أرسلان عن قوس واحدة ، في هذه المسالة : انظر : شكـيب أرسلان : السيد رشيد رضا أواخاء أربعين سنة ، دمشق 1937 ، ص : 152

(29) المنار : م 11 ، ج 6 (جويلية 1908) ص : 417ـ424 « 24 يوليو عيد الأمة العثمانيـة ، بنعمة الدستور » .

حميّة عربيّة — وهو عربيّ سوريّ مهاجر — وخوف من استفحال داهية الدّواهي في نظره وهو العنصريّة الجنسيّة أو الشّقاق بين العرب والتّرك . ممّا سينتج عنه استفحال داهية لا تقلّ خطرا عن الأولى ، وهو التّفرنج واللاّيكيّة المتطرّفة (30) . ولئن ناصر رشيد رضا الاتّحاديين الأتراك فإن هذا الولاء المؤقّت سرعان ما انقلب إلى عداء سافر ، ممّا جعل التّباعد يزداد يوما فيوما بينه وبين التّونسيّين وتجلّى ذلك على الخصوص في عدد من القضايا : الخصومة مع الشّيخ صالح الشّريف التّونسي ، المؤتمر العربيّ بباريس ، الحرب العالمية الكبرى وما نجم في أثنائها من الثّورة العربيّة .

قضية الشّيخ صالح الشّريف التّونسي :

بعد إعلان الدّستور العثماني ، قام صاحب المنار برحلته السّوريّة الأولى (سبتمبر 1908) للقاء الأصدقاء والمحبّين الذين حال بينه وبينهم إحدى عشرة سنة (31) .

وكانت أولى خطبه بالدّيار السّوريّة ببيروت ثم ذهب إلى طرابلس الشّام فالقلمون ، مسقط رأسه فبيروت ثانية فدمشق فبعلبك فحمص فطرابلس ثانية . وحدثت له حوادث اعتداء أشهرها حادثته مع الشّيخ صالح الشّريف التّونسي (32) بالجامع الأموي بدمشق .

وتفصيل هذه « الفتنة » — على حدّ تعبير صاحب المنار — أنّ هذا الأخير دعي لإلقاء درس بعد صلاة الجمعة (28 رمضان 1326 — ديسمبر 1907) :

(30) المنار : م 5 ، ص : 2 ، م 7 والمجلدات الموالية . م 12 ص 219 ، 813_832 913_932 ، م 19 ، ص : 501 ، م 23 ، ص : 703_763_794 .

(31) المنار : م 11 والمجلدات الموالية .

(32) انظر ترجمته : الشيخ الفاضل بن عاشور : الشيخ صالح الشريف المجلة الزيتونية م ، 8 ، ج 2 ، ص : 74_78 .
— انظر إشارة إلى الحادثة : شكيب أرسلان : السيد رشيد رضا ... المرجع المذكور ، ص 147 .
— انظر تفاصيل الحادثة : المنار : م 11 ص 908_910 و 936_952 .

« شهدنا بعد الصّلاة دروس المدرّسين فجلسنا زهاء ثلث ساعة في درس الكزبري الذي حضره الوالي والمشير حسب العادة المتّبعة وخلق كثير . ووقفنا هنيهة على درس رجل يقال له الشّيخ صالح الشّريف التّونسي يحضره زهاء 15 او 20 رجلا » . ثم بعد صلاة العصر القى الشّيخ رشيد درسه وهو تفسير بعض الآيات القرآنية مع الاستطراد إلى فوائد العلوم العصريّة والجمع بينهما وبين علوم الدّين ، وقد حضر الدّرس ، حسب زعمه ، عدد كثير من النّاس يبلغ المئات . وألقى درسا ثانيا في اليوم الموالي تلبية لرغبة أهل دمشق وأعيانها ولمّا كان على وشك الانتهاء قاطعه أحد الحاضرين . يقول رشيد رضا (33) « فإذا أنا برجل مغربيّ قد اخترق جمهور الواقفين حتّى انتهى إلى دائرة القاعدين وصاح : يا إخواننا المسلمين اسمعوا لي كلمتيْن وشرع في الكلام فاضطرب النّاس وكثر اللغط وقام كثير من القاعدين فرغبت إليهم في السّكوت والاستماع إليه فأمّا إحدى كلمتيه فكانت في مشروعيّة زيارة القبور والتوسّل بالصّالحين الميتين الى الله تعالى ليقربوهم اليه ويقضوا حوائجهم عنده ! واعتقاد كرامات الأولياء والتّحذير ممّن ينكرون ذلك ويضلّون ذلك كما فعلت الوهّابيّة ، ثم ذكر ما هو شائع بين النّاس من فتنة الوهّابيّة ومحاربة السّلطان وأمير مصر لهم .

وأمّا الكلمة الثّانية فهي وجوب تقليد الائمّة المجتهدين في الدّين » . وردّ رشيد رضا عليه في هذا المجلس قائلا : « فحسبي أن يعلم هذا الجمهور العظيم الذي سمع كلامي عنّي ويسمعوا مني بأنّني ما أنكرت ولا أنكر زيارة القبور لأجل الاعتبار وتذكّر الآخرة والموت كما ورد في حديث الإذن بها بعد النّهي عنها وأنّني أزورها بالفعل وأحبّ الصّالحين ولا أنكر ما لهم من الكرامة عند الله تعالى » . وتبع ذلك إلقاء القبض على الشّيخ صالح الشّريف من قبل أسعد بك وكيل الشرطة بدمشق وأحد أعضاء جمعيّة الاتحاد

(33) المنار : المرجع السابق ص : 944 .

والترقيّ ، ممّا أحدث فتنة جعلت ألوفا من النّاس يحملون السّلاح ويحتشدون في الأسواق والشّوارع واضطرّت الشرطة إلى اطلاق سراح الشّيخ صالح الليلة نفسها .

وذهب صاحب المنار إلى الزّعم بأنّ هذه الفتنة لم تدبّر لإيذائه بل لأسباب سياسيّة تتجاوزه وتتعدّاه ، وذلك أنّ وجهاء دمشق كانوا ممتعضين من الحكّام الجدد (المنتمين لجمعيّة الاتحاد والترقي وهي جمعية كانوا ينعتونها « جمعية الافتراق والتدلي !) وعهدوا إلى داعية أبي الهدى الصيّادي بدمشق الشيخ صالح الشريف ، مقابل مال ، بالقيام بهذه المكيدة وقد نال محرّكو الفتنة من أسعد بك ما أرادوا وانتهت هذه الحادثة بخروجه من الشّام وضعف جمعيّة الاتّحاد والتّرقي في دمشق .

الاّ أننا نعتقد انّ أصل الخلاف بين صاحب المنار والشيخ صالح الشريف دينيّ محض ، يتلخّص في رمي صاحب المنار ببدعة الوهابيّة كما يظهر من صريح كلام صاحب المنار ، وموقف التّونسيين من الحركة الوهابيّة معروف، إذ هم يعدّونها ثلمة في صرح الخلافة العثمانية (34) ولا أدلّ على ذلك من تطوّر هذه الحادثة ، أمّا بتونس فانقسم القوم شقّين ، فريق شايع صاحب المنار وفريق شايع صالح الشّريف وترأس الفريق الثّاني الشيخ أحمد جمال الدّين فطبع رسالة عمر المحجوب في الرّدّ على الوهّابيّ وذيّلها بذيل تهجّم فيه على صاحب المنار ، وأمّا بدمشق فانتصر فريق من الطلبة لصاحب المنار ،

(34) انظر : دراستنا ... المرجع المذكور ، ص 100 (ذكر المشادة العنيقة في إحدى المآدب بتونس سنة 1903 بين الشيخ عبده والشيخ صالح الشريف) .
انظر : شكيب أرسلان : السيد رشيد رضا ... المرجع المذكور ، ص : 147 « ... وذهب (رشيد رضا) من بعدها إلى دمشق وهنالك ألقى درسا في الجامع الأموي يتعلق بالعقيدة ذهب الشيخ صالح الشريف التونسي ـ وكان حاضرا ذلك الدرس ـ إلى أن فيه تعرضا للأولياء وأنه شيء من الوهابية ... » اهـ .
انظر : المنار ، م 11 ، ص 911ـ917 : رد محمد المكي بن عزوز التونسي (المقيم آنذاك بالآستانة) على صاحب المنار في خصوص مسألي كرامات الاولياء وتقليد الأئمة .
انظر : الفاضل بن عاشور : المجلة الزيتونية ، المرجع المذكور ، يرى غير رأينا ويتحدث عن خلاف الشيخ الشريف مع أنصار فكرة الخلافة العربية (رشيد رضا) .

وانتصبوا للشيخ صالح الشريف يردّون عليه في دروسه (35) ، وامّا بالآستانة وقد رجع اليها الشّيخ صالح الشريف ، بعد هذه الحادثة ، وحلّ بها أيضا صاحب المنار للتّشاور مع الاتّحاديين في مشروع إحداث مدرسة للدّعوة والارشاد ، فإنّ الخلاف بينهما سيتواصل ، إذ يتّهم صاحب المنار الشّيخ الشّريف بأنّه من أعضاء الجمعيّة المحمّديّة التي تأسّست بالآستانة عقب إعلان الدّستور ويزعم أنّ الغرض الباطن منها محاربة الدّستور باسم الدّين واستمالة العسكر لمحاربة الدّستور ، معترفا بذلك أن أصل الخلاف دينيّ (36) .

ومشروع مدرسة الدّعوة والارشاد ، الذي حلّ من أجله صاحب المنار ، بالآستانة هو ركن من أركان إصلاح مدرسة المنار إذ كان يروم بواسطته إزالة التّنافر العنصري بين العرب والتّرك وتعزيز الدّين الإسلامي وبالتّالي مقام الخلافة (37) .

وعطّل المشروع لأجل سعايات كثيرة ورجع إلى مصر يائسا من إمكان التّقارب بين التّرك والعرب ، وقد جرّد قلمه سيفا على الاتّحاديين بالآستانة يرميهم بأشنع التّهم . والجدير بالملاحظة ان شخصيّة تونسيّة ثانية ضمّت صوتها الى صوت الشّيخ صالح الشّريف وقاومت المشروع أعنف مقاومة ، وهو الشّيخ عبد العزيز جاويش (38) ، تونسيّ المنشأ ومصريّ الجنسيّة

(35) المنار م 13 ص : 413ـ423 .

(36) المنار ، المرجع السابق : « الشيخ صالح ينتسب لطائفه الرفاعية . لا أعجب له بعد أن ترك دروسه في الشام وجاء الآستانة ليسعى في إبطال ما قام به بعض العلماء والفضلاء هنا من تأسيس جمعية إسلامية لأجل إنشاء مدرسة إسلامية عربية عالية شبهته في مقاومه هذا العمل الإسلامي العظيم على ما بلغني عنه أن الداعي اليه وهابي يخشى أن يبث في المدرسة مذهب الوهابية » .

(37) المنار ، م 11 ، ص 818ـ832 ، يقول ص 824 : « إنني أعترف لعبد الحميد بحسنتين ، سكة الحديد الحجازية وعدم التعصب للجنسية إذ لم يكن يقال في زمنه ترك وعرب » وم ، 12 ، ص : 913ـ932 ، وم 13 ص : 114ـ120 .

(38) انظر : ترجمته : المنار م 29 ، ص 712ـ715 (بمناسبة وفاته سنة 1929) من كتبه : الاسلام ، دين الفطرة ، القاهرة (د.ت) 85 ص ، غنية المؤدبين في الطرق الحديثة للتربية والتعليم ، مصر 1903 ، 174 ص .

ورئيس تحرير جريدة العلم لسان حال الحزب الوطني بمصر وأهمّ التّهم التي كان يلصقها عبد العزيز جاويش بصاحب المنار هي عمله على « فصل البلاد العربيّة من الدّولة العثمانيّة وإقامة خليفة عربيّ فيها تحت حماية الإنكليز » (39) .

وبينما كان الحزب الوطني بمصر برئاسة محمد فريد يتابع إلصاق التّهم بصاحب المنار أورد هذا الاخير اقوال الصحف المناصرة لمشروعه والجدير بالملاحظة انّه أثبت مقالاً نشر بجريدة مرشد الأمّة التّونسيّة عنوانه (حال المسلمين والمصلحون أو هل إلى الترقي من سبيل) يناصر فيه الكاتب صاحب المنار مناصرة لا تخفى على لبيب ، عقّب عليه رشيد رضا قائلا : « قلّما رأيت في الجرائد كتابة في حال المسلمين او في المسائل الاجتماعية موزونة بميزان العقل وصادرة عن رويّة واستقلال في الفكر كهذا المقال » (40) .

حرب طرابلس والبلقان :

وكانت حرب طرابلس (1911) وعقبتها بقليل حرب البلقان منذرة باندلاع نيران الحرب العالمية الأولى ولئن اتّفق صاحب المنار والنّابتة التّونسية عن طريق جريدتي « التّونسي » و « الاتحاد الاسلامي » لعلي باش حانبه ، في دعوة المسلمين الى مناصرة الدّولة العثمانية في هذا الجهاد المقدّس ، إمّا بالتّطوع وإمّا بالإعانات والاكتتاب وغير ذلك ، فإنّ رشيد رضا ، نتيجة ليأسه من الاتّحاديين ، عمد الى تعنيف هؤلاء وشنّ حملة من النّقد لا نجد لها

(39) المنار ، م 14 ، ص : 35ـ67 ، وهي اشهر التهم التي استهدف لها صاحب المنار من قبل الراي العام التونسي على وجه العموم . أنظر في قضية هذه التهمة : شكيب أرسلان : السيد رشيد رضا ... المرجع المذكور ، ص 152 : « ... الفئة تعتقد ان الدولة الانكليزية ستعضدها في مشروع تاسيس دولة عربية » .

(40) المنار ، م 14 ص : 134ـ138 لئن كان المقال بامضاء صاحب الجريدة « مرشد الامة » الشيخ سليمان الجادوي فهو في الحقيقة بقلم الشيخ محمد مناشو ، مدرس من الطبقة الاولى بجامع الزيتونة . وستكون بينه وبين صاحب المنار مشاده في الدور الثالث ، كما تراه فيما يلي .

صدى البتّة في الصّحافة التّونسيّة ، قبيل إيقافها بسبب أحداث سياسيّة كان آخرها مقاطعة التّرام (فيفري 1912) . فهو يتّهم الاتّحاديين بالخيانة العظمى للقضيّة العربيّة .

« هبّ عرب طرابلس للدّفاع عن بلادهم والمحافظة على عثمانيتهم وهبّ العالم الاسلامي لمساعدتهم فبدا لجمعيّة الاتحاد والترقي ما لم تكن تحتسب وأحبت أن تستفيد من هذه الاريحيّة الاسلاميّة وكانت باعت طرابلس وبرقة لإيطاليا على شرط... أن تترك الاسم والعلم للدولة العثمانيّة وتفعل في البلاد ما تشاء فغدرت إيطاليا وتصدّت لأخذها صورة وحقيقة بالقوّة القاهرة .

فلمّا هبّ العرب للقتال... وانكشف السّرّ... أرسلت الحكومة بعض الضّبّاط وأمدتهم بأموال الإعانة وبما يمكن من السّلاح وظهر للجمعيّة أنّ في الجامعة الإسلاميّة حياة يمكن الاستفادة منها... لأجل هذا أسّسوا جريدة الهلال العثماني لمّا رأوا الشّيخ عبد العزيز جاويش مواتيا لهم في كلّ ما يستخدمونه به وأمدّوا جريدة (العلم) وبعض الجرائد السّورية بقليل من المال » (41) .

وكانت عقيدة صاحب المنار آنذاك أن «مصلحتنا بترجيح انكلترة على المانيا» آخذاً على جمعيّة الاتحاد والترقي تعلّقها بالمانيا حتى «ايأسوا انكلترة منّا في وقت يرون فيه فرنسا وروسيه وايطاليا تابعات لها في السياسة... ولم يفيقوا من غرورهم حتّى سمعوا صيحة إيطاليا تقول : قد آذنتكم بالحرب وأخذت منكم طرابلس بالقوّة والقهر » . ثم يقول : « وانما الخطر الاكبر هو افسادهم (الاتحاديون) السياسي الذي فتح علينا باب المسألة الشرقيّة فبدأ

(41) المنار ، م 16 ، ص 142-143 (بيع الاتحاديين طرابلس الغرب) .

بمملكة طرابلس الغرب الافريقيّة وثنّى بولايات الدولة الاوربيّة ويخشى ان يثلث باالولايات الاسيويّة ولا ينفعنا يومئذ ظهور صدقنا وكذبهم » (42) .

المؤتمر العربـي بيـاريس (1913) (43) :

وأمام تصدّع أركان الدّولة العليّة بسبب الحرب الطّرابلسية والبلقـانية وأمام تفاقم التنافر بين العرب والترك ، وفّق جماعة من السّوريين المقيمين بمصر الى تأسيس حزب اللاّمركزيّة العثماني وكان الساهرون عليه صاحب المنار ورفيق بك العظم وعبد الحميد الزهراوي ودعوا الى مؤتمر انعقد بباريس (فيفـري 1913) ولئن كان عطف صاحب المنـار على العُروبـة والعرب PANARABISME لا يحتاج الى برهان . فإنّه حرص ، رغم ذلك ، علَى أن تظهر هذه الحركة في ثوب إسلامي (44) توفيقي بين عناصر الدّولة العثمانيّة (العرب والترك) وكان لسان حاله آنذاك (عثمانيون مسلمون أوّلا ، عرب ثانيا) على عكس دعــاة الجامعة التركية الطورانيـة PANTOURANISME (ترك أولا ، مسلمون ثانيا) وأسفر هذا المؤتمر عن ترضيات للعرب طفيفة نقضتها الدولة الاتحادية عند قيام الحرب العالمية الاولى . والمهمّ أنّ التّونسيين لم يعيروا المؤتمر العربـي بباريس (وقد ترأسه ع. الزهراوي) ايّ اهتمـام (45) ، بحكـم اختيـارهم السياسـي ، وهو موالاة الدّولة الاتحاديّة ولا نجد له صدى البتّة في الصحيفة

(42) المنار ، م 14 923_944 والمجلدات الموالية . يقول رشيد رضا (م 16 ص : 130) (مقاومة الاتحاديين للدين) « ان القوة المعنوية هي الاصل الباعث على الاعمال المادية او الصـورية وان الدين هو اعظم القوى المعنوية اثرا وأشدها على المخالف خطرا ، وإن الفريقين المتحاربين اذا تساويا في جميع ما ينبغي للقتال من علم ومعرفة وذخيرة وعدة ، وتفاوتا في قوة الايمان بالله عز وجل والرجاء في الحياة والآخرة ، فان اقواهما ايمانا واعظمهما رجاء هو الجديـر بان يكـون له الفلح ويتيسـر له النصر » .

(43) المنار ، م 16 ص : 332_335 ، 849_858 وم 17 ص : 374_900 .

(44) HENRI LAOUST : le Reformisme. - ص204... المرجع المذكور . le califat... - ص 259 المرجع المذكور .

(45) شكـيب أرسلان : السيد رشيد رضا ... المرجع المذكـور ، ص : 197 . (كـان شكـيب ارسلان أساء الظن بهذا الحزب (اللامركـزية) وطعن في رشيد رضا .

اليومية العربيّة الوحيدة بتونس التي لم يلحقها قرار التوقيف سنة 1912 وهـي الزّهرة ، بينما بقـي المنار مهتمـّا بالاحداث السّياسية الجارية بتونس في ذاك الظّرف مناصِرا لها (اعتصاب الزّيتونيين للاحتجاج على عدم سماع دعوتهم الإصلاحية ، حادثتا الجلاّز والتّرام) (46) .

الحرب العالميّة الأولى والقضيّة العربيّة :

رأى صاحب المنار من الصّالح أن يكفّ مؤقتا عن طلب الإصلاح من الدّولة العليّة وحدث أن ولّى الاتحاديون جمال باشا منصب القيادة العامّة في سوريا فتظاهر بالميل التامّ الى العرب حتّى اذا تمّ له ما أراد من الاختيار نزع ثوب الرياء والمكر ولبس لهم جلد النمر وقتلهم تقتيلا ونكّل بهم تنكيلا وأظهرت الأحداث صدق رأي السيّد رشيد رضا في الاتّحاديّين فاغتنموا الأحكام العرفيّة وكان عبد الحميد الزّهراوي شهيد بغيهم (47) .

وكان من تحرّش الاتحاديين بالحجاز بعد أن نكّلوا بسوريا والعراق أن دخل الشّريف حسين بن علي في حلف البريطانيّين فمكّنوه من إعلان الاستقلال عن الدّولة العثمانيّة والدّعوة لخلافة عربيّة بالحجاز وقام صاحب المنار بالرّحلة الحجازيّة للحجّ ظاهرا وللوقوف على حقائق الأمر باطنا وخطب بمنى خطبة يعرفها التّونسيون الذين حجّوا تلك السنة (1916) ، استجابة لدعوة فرنسا المناصرة لبريطانيا العظمى في سياستها العربيّة بالحجاز (48) . ولكن

(46) المنار ، م 13 ص 392 ، 707ـ709 و م 15 ، 389ـ391 و525ـ528 .

(47) انظر : الاستاذ يوسف إبراهيم يزبك : « مؤتمر الشهداء » المؤتمر الذي أذاع الأماني القومية وجر أعضاءه الى المشانق ، بيروت 1955 .

(48) انظر : الرزنامة التونسية سنة 1917 : ص 24 — 87 : حج التونسيين للبيت الحرام ، رحلة كتبها أحد أفاضل الحجاج التونسيين « تكرمت الدولة الفرنسية بتسفير مائتي حاج مجانا [من مسلمي شمال افريقيا] وكان رئيس الوفد التونسي الشيخ محمد الجودي مفتي القيروان وعزز هذا الوفد طبيب تونسي البشير دنقزلي » وقد اتصل صاحب المنار بالتونسيين مدة الحج وكانت بينهم مداولات .
انظر أيضا : Dr. B. Denguezli à la Mecque en 1916, Revue Tunisienne 1917, n° 121 p . p . 159 - 169

سرعان ما كان التباعد بينه وبين أمير مكّة ممّا جعل صاحب المنار يقلب له ظهر المجنّ وينتصر انتصارا لا تردّد فيه للوهابيّين (49) .

أمّا التّونسيون ، عدا هذه الفئة القليلة من البعثة الرّسمية للحج سنة 1916 ، فلم يوالوا البتّة العائلة الهاشميّة بالحجاز في محاولتها إقامة خلافة عربيّة بمعاضدة دولة نصرانية استعمارية وهي بريطانيا وكانوا مغلوبين على أمرهم طوال الحرب العالمية الاولى (50) ، وذهب بعض الإصلاحيين كعلي باش حانبه والشّيخ صالح الشّريف وغيرهما الى موالاة ألمانيا وهاجروا الى سويسرا وألمانيا (51) . ولم يكن بتونس من الصحف غير جريدة الزهرة التي كانت لسان حال القيادة العامّة العسكريّة . وأصدرت الحكومة الفرنسية بباريس جريدة « المستقبل » لمناصرة قضيّة الشّريف حسين وعملت على ترويجها بالبلاد التّونسيّة . و جريدة « المستقبل » هذه الآّ ترجيع لأقوال جريدة « القبلة » بالحجاز لسان الشّريف حسين الرّسمي وجريدة « الكوكب » بمصر وسعت هذه الجرائد الثّلاثة الى ترويج السّياسة الاستعمارية في القضيّة العربيّة ، ممّا اضطرّ أحرار التّونسيين المهاجرين إلى سويسرا إلى إصدار مجلّة باللّسان الفرنسي : LA REVUE DU MAGHREB ARABE لمؤسّسها محمد باش حانبه (52) .

(49) المنار ، م 19 ، ص : 307 ، 310 ، 369 ، 435 ، 489 وم 28 ، ص : 33 — 47 « ... ثم كانت الحرب الكبرى وكان من أحداثها دخول أمير مكة الشريف حسين بن علي في حلف البريطانيين وكنت قد بلغته مشروع الاتفاق الحلفي بين ائمة الجزيرة وقد اظهرنا له الولاء لاجل اقناعه باتمام مشروع الاتفاق الحلفي مع سائر الامراء فلما تعذر ذلك وسارت سيرته السوءى اضطررت لمقاومته.... » . انظر تعلقه بالوهابيين : المنار 212 ص : 226.

(50) يقول الأستاذ هـ . لاووست le Réformisme ، المرجع المذكـور ص 213 : (متحدثا عن الشعوب الاسلامية) : « ان الحرب العالمية الأولى زادت هذا الاعتقاد الاليم رسوخا وهو أن الدول الكبرى الاوربية ، بحكم وطنية بارعة واقتصاد في الانفس البشرية حاذق ،وجدت بناة عظمتها من بين الشعوب التي استعبدتها » اهـ .

(51) انظـر : Bulletin فصلة من . Victor DEMENTÈS : la Tunisie pendant la guerre de la société de géographie - Alger. 1916 p p. 27 - 31
انظر : CHEIKH SALAH CHERIF et CHEIKH ISMAIL SFAIHI:Doléance des peuples (la Tunisie et l'Algérie) Lausanne, 1917

(52) المستقبل : جريدة أسبوعية ، باريس ، مديرها شكري غانم دامت (1916ـ1919) كان لها مراسل من تونس ينتحل إمضاء علي الأندلسي ما زال بقيد الحياة لذلك لا نكشف عن اسمه . انظر خاصة : عدد 18 : « احترام الحماية الفرنساوية للحج بتونس » .
القبلة : جريدة نصف أسبوعية ، القاهرة ، مديرها محمد القلقيلي الأزهري (1916ـ1920)
la REVUE du MAGHREB ARABE (1916ـ1918).

ومنذ قضيّة الشّريف حسين وتحول صاحب المنار من مناصرته الى عداء سافر قرّبه من السّعوديين الوهّابيّين ، الى انتهاء هذا الدّور بإلغاء الخلافة (1924) ، لم نعثر على شيء ، في المنار ولا في الصّحف التّونسية ، يدلّ على التقاء مّا ، في المجال السّياسي ، بين رشيد رضا والتّونسيّين . وبانتهاء الحرب وإعلان الصّلح وما انجرّ عن ذلك من اعتزاز الشّعوب الضعيفة بمبادىء ولسن Wilson ،سعى صاحب المنار إلى تحقيق حُلمه وهو توحيد الشّعوب العربيّة (سوريا ، فلسطين ، العراق والجزيرة العربية) في نطاق ترابط فيدرالي (53) .

ب) المجال الديني والتعليمي :

ورغم هذا التّباعد بين صاحب المنار والتّونسيّين في المجال السّياسي ، فإنّ مجلّة المنار ، بما فيها من دعوة إلى الإصلاح الدّيني والاجتماعي ، بقيت محلّ عناية ورعاية من قبل المفكّرين من النّابتة التّونسية : لا أدلّ على ذلك من مقام « تفسير المنار » عند علماء تونس وكنّا اثبتنا رسالة للشّيخ محمّد النّخلي يردّ فيها على الشّيخ محمد عبده في موضوع إنكار التّوكيد في القرآن (54) ، وقد نهض عالم تونسي آخر للردّ على تفسير المنار ، هو فضيلة الشيّخ محمد البشير النّيفر ، في قضيّة « آدم أبو البشر » وتفسير الآية من سورة النّساء : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الذي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الذي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ ، إنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً » . وَأَنْكَرَ الشّيخ محمّد البشير النّيفر رأي الأستاذ الإمام الشّيخ عبده المنكر أبوّة آدم للبشر وهو رأي — على حدّ تعبير العالم

(53) المنار ، م ص : 849 ، م 17 ، ص : 234 ، م 21 ، م 22 ، م 23 ، م 24 (متفرقات) إن اهتمامه بالقضية العرية جعله يتتبع بكل تيقظ وعطف ثورة الريف المغربية : م 26 ص 147 و ص : 672 .

(54) انظر : دراستنا ... المرجع المذكور ، ص : 96ـ98 .

التّونسي — لا يرتضيه القرآن ، يقول : « إنّ القرآن الشّريف والسّنّة السّنية ناطقان بأبوّة آدم للبشر أجمعين وإخراج ما جاء في ذلك عن ظاهره رعيا لمذهب دارون يشبه أن يكون من تفسير القرآن بالرّأي الذي كان يشنؤه الإمام « رحمه الله » وجريتم « حفظكم الله » على طريقته في ذلك » . فليراجع الباحث هذا الردّ مثبتا بمجلّة المنار مع تعقيب السيّد رشيد رضا الذي أشاد بوجاهة رأي العالم التّونسي (55) .

كذلك أجاب صاحب المنار عن استفتاء عن أقصى أمد الحمل طبّا وشرعا ورد من رئيس مجلس عدلية قفصة حمودة بوتيتي وهي مسألة خطيرة استغلّها المغرضون استغلالا لا يتماشى والشرع ومن جواب السيد رشيد رضا قوله : « إن اعتبرت المسألة دينية فإنّ أقلّ مدّة الحمل ستّة أشهر وأكثرها سنتان وإن اعتبرناها دنيويّة يجب ان يضمّ الى ذلك اختبار النّاس وما يصلون إليه من معرفة الواقع بطريق الاستقراء والبحث » (56) .

والتقى صاحب المنار مع احد التّونسيين ، الشّيخ محمد الخضر بن الحسين ، في الصّعيد اللغوي ، إذ أنّ إحياء اللغة العربيّة وعدم الفصل بين

---

(55) المنار ، م 12 ، ص 481ـ498 وم 13 ، ص 22ـ32 . وستكون هذه المسألة في التفسير مثار خصومة بين صاحب المنار واحد علماء الازهر الرسميين الشيخ يوسف الدجوي ، كما ترى ذلك في الدور الثالث من هذه العلائق . يقول رشيد رضا (المنار م 32 ص 677 : تصدى الاستاذ الشيخ يوسف الدجوي منذ بضع عشرة سنة (1335) (1917) للطعن على الاستاذ الامام والتحرش بالمنار فبدأ ينشر مقالات في جريدة الافكار في الانكار على ما نشرناه في تفسير قوله تعالى (خلقكم من نفس واحدة) من ان النفس الواحدة ليست نصا في ابينا آدم عليه السلام وانه ان فرض ثبوت قول الذين يقولون إن للبشر عدة أصول أو نظرية دارون في اختلاف الأنواع ، فان القرآن يبقى على عصمته لا ينقضه شيء . هذا مجمل ما قرره شيخنا الاستاذ الامام في الازهر وقرره قبله استاذنا العلامة الشيخ حسين الجسر في كتابه (الرسالة الحميدة) ... ولكن أحد علماء تونس الاذكياء انتقد عبارتنا في تفسير آية سورة النساء وموافقتنا للاستاذ الإمام على ما قاله في المسألة بمقال نشرناه في المنار أجبنا عنه من بضعة عشر وجها أقنعت هذا الاستاذ . وأما الشيخ يوسف الدجوي فلم ازد على ما نشره في جريدة الافكار لانه كان تحرشا وطعنا شخصيا بسوء نية غير مبني على دليل علمي فضلا عن كونه نشره في جريدة يومية ولوكان بحثا علميا لأرسله الى المنار كالاستاذ العلامة الشيخ محمد البشير النيفر التونسي » . انظر كذلك : المنار م 33 : ص 33ـ64 .

(56) المنار م 22 ص 900ـ904 . انظر ايضا : المنار م 15 ص 823ـ825 : استفتاء من المؤرخ محمد بن الخوجة عن تاريخ السبحة وقيمة التسبيح والذكر بها . كذلك ، م 17 : ص 231ـ233 : اعتناق فرنسي الاسلام بتونس .

الايمان واللغة ركن من اركان عقيدة السيد رشيد رضا فأثبت مجموعة من المقالات للشيّخ الخضر عن الخيال في الشعر العربـي وعن القياس (57) .

***

3) الدور الثّالث : 1924 — 1935
من استفحال أمر « اللايـكية » إلى وفاة رشيد رضا

أ) المجـال السّياسـيّ :

لم يكن الانقلاب الـكمالي في مرحلتيه ، فصل السّلطنة عن الخلافة (نوفمبر 1922) وإلغاء الخلافة (3 مارس 1924) إلاّ مقـرّا صاحب المنار على مواقفـه السّياسيّة وتخوفاته من انهدام صرح الخلافة ، على خلاف التّونسيين الذين ارتطموا في تناقض وتضارب مرجعهما موقفهم السّياسـي المعروف .

فخطّـأ رشيد رضا مصطفى كمال في اسقاط الدّولة العثمانيّة « وقد كان لنا جامعتان سعد سلفنا بالاعتصام بهما وشقي خلفنا بالتفرّق والاختلاف فيهما ، جامعة علميّة وروحيّة وهـي كتـاب الله وما بيّنه من سنّة خاتم النبيين وجامعة سياسيّة عملية وهـي الامامة العظمى وهذه متمّمة للأولى ومنفذة لها... تفرقنا في القرآن بالتأويل... وتفرقنا في الإمامة بالعصبيات » (58) . إلاّ أنّه لم يقطع الرّجاء من حزب معتدل يكون وسطا بين الطرفين ، اهل التفرنج واهل الجمود : « إنّ العمل لوحدة الامّة الاسلاميّة ينحصر اليوم في الشعبين الـكبيرين العربـي

---

(57) انظر : فيما يلي خصومته مع السيد رشيد رضا . اما مقالته بالمنار : م 22 و23 (متفرقات) .
انظر ايضا : المنار م 25 ص 474_480 : ترجمة الشيخ سالم بوحاجب بقلم الخضر بن الحسين .
انظر ترجمة الخضر بن الحسين : زين العابدين السنوسي : الادب التونسي في القرن 14 هـ. مطبعة العرب . تونس 1346 ـ 1927 ج ص 193_204 .

(58) المنار م 24 ص 717_784 .

والتّركي وان المتصدرين للزعامة السّياسيّة ومفتاح الحلّ والعقد في غير جزيرة العرب من البلاد الاسلاميّة ثلاثة ، حزب المتفرنجين وحزب حشويّة الفقهاء الجامدين وحزب الاصلاح الجامع بين الاستقلال وكنه الحضارة الاروبيّة وهذا الحزب هو الذي يمكنه ازالة الشقاق بين الامّة » (59) .

امّا التّونسيون فانّهم تعلّقوا اوّل الامر بالحركة الكمالية واتخذوا الغازى مصطفى كمال علم الخلافة المجدّد لها واعتبروا انتصاراته العسكريّة ثأرا ممّا ينال المسلمين شرقا وغربا من عدوان اوربا الاستعمارية وسرعان ما جاء قرار الغاء الخلافة « فصعق المسلمون بتونس لذلك وأنكروه » (60) وتقسّمت الأفكار ، والنّاظر في الصحافة التّونسية الصادرة آنذاك يلمس صدى هذه العواصف الهوجاء .

ولمّا صدر قرار كبار العلماء الرّسميين في القاهرة (25 مارس 1924) بالدّعوة الى مؤتمر اسلامي ينظر في قضيّة الخلافة وجّهه شيخ الجامع الازهر الى جميع اطراف العالم الاسلامي (61) ، كان التقاء جديد بين صاحب المنار والشّقّ المطالب باسترجاع الخلافة ، من التّونسيّين . وعلّق كل من صاحب المنار وهؤلاء التّونسيّين آمالا عريضة على هذا المؤتمر ، وناب عن تونس فيه الشّيخ محمد الصّالحي العضو في المجلس الكبير والشّيخ عبد العزيز الثعالبي (62) . وتوالت المداولات وانفضّ المؤتمر يوم 25 ماي 1925 مقرّرا « انّ ايجاد الخلافة ممكن » ومقرّا بفشله الذّريع .

---

(59) المنار م 24 ص 62ـ67 .
انظر ايضا : شكيب ارسلان : السيد رشيد رضا ، ... المرجع المذكور ، ص 315 : « من رسالة سنة 1923 إنني لا أكتم عنك أني ما زلت ارجح الترك على الافرنج كافة وإن ظلمونا » .

(60) انظر : الشيخ الفاضل بن عاشور : الحركة الادبية ، المرجع المذكور ، ص 126 . كذلك كان موقف الشيخ عبد العزيز جاويش فانه قلب ظهر المجن للكماليين ؛ المنار م 25 ، ص : 289ـ296 .

(61) سعى في اقامة هذا المؤتمر الملك فؤاد طمعا في خلافة عربية ترجع اليه رئاستها .

(62) بوصفه استاذا من كلية آل البيت ببغداد .
انظر : شكيب ارسلان : السيد ... المرجع المذكور (متفرقات) : دور الثعالبي في المؤتمرات العربية الاسلامية التي عقدت بالشرق منذ هذا التاريخ (1925) .

ب) المجـال الدّيني والتّعليمي :

كـتاب « الاسلام وأصول الحـكم »

وفي خضمّ هذه الأزمة ، ازمة تقهقر الحركة الاصلاحية الدّينيّة أمـام اكتساح اللاّيكية جميـع الميادين ، ظهـر كتـاب الشيـخ علي عبـد الرّزاق « الاسلام واصول الحـكم » (سنة 1925) منـكرا فيه مؤسسة الخلافة وكون الاسلام ذا حكومة وقد سبق صاحب المنار – فيما نعلم – جميـع الصّحف العربيّة الاسلاميّة إلى تفنيد هذه الضّلالة – على حدّ تعبيره (63) – وكان حكم هيئة كبار العلماء قاضيا برفض الـكتاب ومنـع بيعـه ومحـو اسم صاحبـه من سجلات الجامع الازهر وطرده من كلّ وظيفة .

وعقد صاحب المنار فصلا عنوانه « اللاّدينيون في تونس ومصر وكتاب علي عبد الرّازق (64) حيّى فيه الذين فنّدوا أضاليل الـكتاب كالشيـخ محمد الطاهر بن عاشور (65) كبير علماء المالـكية ورئيس مجلسهم الشرعـي والشيـخ محمد بن يوسف وكيل المجلس الشرعـي الحنفي وردّ فيها على جريدة الصّواب التي ناصرت الـكتاب بلسان صاحبها محمّد الجعايبـي (66) .

كما انّ الشيـخ محمد الخضر بن الحسين التّونسـي عزّز جانب صاحب المنار بإصداره « نقض كتاب الاسلام وأصول الحـكم » (67) فقرّظه رشيـد

(63) المنار ، م 26 ص : 272 .
(64) المنار م 26 ص : 548_551 .
(65) جريدة النهضة : تونس 1925 و1926 : عدد 726 ، 728 ، 736 ، 824 ، 831 ، 832 ، 833 ، 840 (إمضاء : مطالع) وجمعت هذه المقالات في كـتاب : محمد الطاهر بن عاشور : نقد علمـي لـكـتاب الاسلام واصول الحـكـم ـ المطبعة السلفية . القاهرة 1344 (19) .
(66) انظر ايضا : جريدة الزهرة تونس ... 1924 : مقالات الشيخ عثمان بن الخوجة في تأييـد الـكـماليين .
(67) القاهرة : 1926 ، 852 ص . يذهب بعضهم الى أنه خدم بهذا الـكـتاب مقاصد الملك فؤاد وطمعه في خلافة عربية . انظر تقريظه : المنار م 27 ص 477_478 .

رضا كما قرّظ كتابه الثاني « نقض كتاب في الشّعر الجاهلي » (68) في الردّ على طه حسين ومجلّته « الهداية الاسلاميّة » (69) .

خصومة الشّيخ الخضر مع صاحب المنار :

ولكنّ القطيعة كانت بينهما لمّا صدرت مجلّة « نور الإسلام » لسان حال مشيخة الأزهر وكان الشّيخ الخضر رئيس تحريرها ، ولم تكن الخصومة في أوّل أمرها تمتّ إلى الدّين والعقيدة بسبب بل كانت سياسيّة ، فرشيد رضا أخذ على الخضر بن الحسين تنكّره لشيخ الازهر السّابق مصطفى المراغي صاحب الايادي البيضاء عليه وندّد بكبوته الكبرى — على حدّ تعبيره — وهي « إيقاظ الفتنة والإرجاف بسياسة المراغي » وهو — اي المراغي — من مريدي الأفغاني وعبده ، والانتصاب لخدمة خلفه الظّواهري .

ثم إنّ صاحب المنار أخذ ينقد مسلك مجلّة « نور الاسلام » في تنصلها من السّياسة مخطئا الشيخ الخضر في هذا الحياد وهذا التهرّب ، لا ادلّ على خطئه في اتقاء مسّ السياسة في شيء من سكوت المجلّتين « نور الاسلام » و « الهداية الاسلامية » عن المؤتمر الافخاريستّي بتونس (1930) ومشروع تنصير البربر بالمغرب الأقصى (70) .

وتطوّر الخلاف واحتدم بالانتقال إلى المجال الدّيني وجرّد صاحب المنار قلمه للردّ على مجلّة « نور الاسلام » وعلى ما يكتبه فيها الشيخ الدّجوي ،

---

(68) القاهرة 1927 ، 362 ص .

(69) المنار ، م 29 ص : 720 .

(70) المنار ، م 31 ص : 155_160 ، 371_389 ، 474_479 (مجلة نور الاسلام والشيخ الخضر) لقد ناهض صاحب المنار المؤتمر الافخاريستّي بتونس ومسألة التجنيس الفرنسي بتونس ومشروع تنصير البربر : المنار ، م 31 ص 148_151 ، ص 205_235 ص 300_317 ، وم 33 ص 224_230 .

احد كبار العلماء الرّسميين من طعن على الوهابيّة وشبهات وتأويلات للبدع ، على حدّ تعبير صاحب المنار (71) .

الرّد على الطّريقة التّجانية بتونس :

وفي نطاق مناهضة صاحب المنار للطرقيين واهل البدع ، شنّ حملة عنيفة على الطريقة التجانيّة بتونس حوالي سنة 1926 وكان مسعر نار هذه الحملة مقال طالب أزهري ندّد فيه بالطريقة التجانية وعقب عليه صاحب المنار قائلا : « وليس الدّجال التجاني أوّل من كذب على الرّسول وراجت أكاذيبه بشبهة ثبوت الكرامة لصالحي الملّة بل سبقه الى ذلك رجال من مبتدعة التصوّف كانوا أوسع منه علما وأفصح لسانا وقلما... وطالما جاهد المنار الدّجل والدّجالين... إنّ الدّجال التجاني بل الجاني على الإسلام والمسلمين وأمثاله من المتصوّفة الخرافيّين قد رأوا دعوى الكرامات أنجح الوسائل لتأسيس المجد الدّنيوي اي الجاه الذي هو ملك القلوب والمال الذي هو ملك الأعيان » (72) .

ونهض الشّيخ محمد مناشو المدرّس من الطبقة الاولى بجامع الزّيتونة ، للردّ على صاحب المنار في رسالة ظهرت في « مجموع قمع التعصّب وأهواء اعداء التجاني بالمشرق والمغرب » (73) امتازت بالاعتدال في الحجاج فضلا عن قيمتها الادبيّة البلاغيّة .

ولم نعثر ، مدّة هذا الدّور الثالث ، على إشارة ،أخرى غير ما ذكرنا ، الى أن توقّف المنار بوفاة صاحبه (22 اوت 1935) (74) .

---

(71) المنار م 31 745_750 ، م 32 ص 221_225 ، 306_308 ، 673_704 .

(72) المنار م 26 ص : 869_879 .

(73) تونس . 1926 33 ص ، (يحتوي هذا المجموع على رسالة المسلك الحنيفي في نصرة الشيخ النظيفي (ص 1_28) ورسالة فتح الابصار على مواقع عثار صاحب المنار (ص 29_40) .

(74) عدا سؤالين 1) عن الماسونية والاسلام من محمد الصالح رمضان بتونس : المنار م 29 ، ص 271_272 .
2) عن قيمة تفسير الشيخ طنطاوي جوهري من محمد خوجة بتونس : المنار م 30 ، ص : 514_517 .

الخاتمة

لعلّ أقرب أثر يجسّم مدى تعلّق التّونسيين بصاحب المنار ، وهو تعلّق حاولنا إحصاء الاشارات الواردة بخصوصه في مجلّة المنار ، هو ما كان من صدى في نفوس التّونسيين الذين أحيوا ذكرى مضيّ سنة على وفاته والصحافة الصادرة آنذاك (1937) تشهد بأنّ نعيه لم يكن حدثا يوميا تافها ! (75) .

ونظرُنا في هذه العلائق ، وان كانت مشتتة عبر المنار وتعوقها الوثائق المخطوطة تدعمها وتكمّلها وهي وثائق من العسير التحصل عليها عند الطرفين، ينتهي بنا الى عدد من الاستنتاجات المؤقتة :

— فلئن اهتمّ السيّد رشيد رضا بالسياسة وشنّ الحملات العنيفة على اعدائه كالاتحاديين والكماليين مثلا فإنّه دعا الشعوب العربيّة الإسلامية المستعمرة الى نبي التعصّب وعدم الخروج بالسيف على الحكّام المستعمرين بل الى ضرب من الولاء ومن التعاون الى حدّ وإلى حين وان كانت مواقفه لا تخلو احيانا من جرأة ومن دعوة الى الحذر والتيقظ تجاه سياسة فرنسا الاسلامية بالمغرب العربيّ .

ورغم هذا الاعتدال من قبل صاحب المنار فاننا لم نعثر قط على حوا ما بينه وبين التّونسيين في هذا الغرض بالخصوص . كذلك لم يتم الحوار بينه وبينهم في خصوص مسائل جوهريّة كالخلافة واللايكية وما تفرّع عنها وما سبقها من تكهّنات السيد رشيد رضا التي اثبت التاريخ صدقها ورجحانها

(75) انظر : النهضة تونس . 1937 . عدد 4221 (جانفي) كان المشاركون في حفل الذكرى من النابتتين الزيتونية والصادقية كالشيخ الفاضل بن عاشور والشيخ الشاذلي النيفر والطاهر صفر وعلي البلهوان وبشيرة بن مراد ...
النهضة : مقالات الاستاذ محمد الصادق بسيس بعنوان : الرجل الذي لم يعوض « السيد رشيد رضا » : ظهرت تباعا بالنهضة عدد 4300 ، 4314 ، 4328 ، 4335 ، 4447 .
انظر : الزهرة تونس (1937) عدد 8968 ، 8971 .
انظر : l'Action Tunisienne (العمل) : 1937 nº 184
انظر : المجلة الزيتونية : م 1 ص :

ولعلّ مردّ ذلك — فيما نعتقد — الوضع الاستعماري الذي كان يعيش فيه العلماء ممّا جعلهم يجنحون الى ضرب من التّفويض إلاّ يكن ولاءً فهو تقيّة .

— لذلك كان الحوار الحقيقي في المجال الدّيني والتّعليمي ، من فتح باب الاجتهاد ومحاربة البدع والطرقيين واهل الجمود والتقليد اى اهل الحشوية على حدّ تعبير صاحب المنار. فهو اذن ان لم يدع التّونسيين إلى جهاد سافر للمستعمر فقد دعاهم — لا شكّ في ذلك — إلى جهاد باطن ، جهاد النفس وجهاد ، البيئة على أساس الاجتهاد في الدّين .

— ومهما يكن حكم المؤرخين على « مدرسة المنار » من أنّها أخفقت الاخفاق الذريع في ردّ سيل اللايكية الجارف ، فإننا لا نذهب إلى هذا التعسف في الحكم ، بل إننا نرى أنّ امتداد « مدرسة المنار » تواصل بعد وفاة السيد رشيد وقبله بقليل فلقد أصدر العلماء الزيتونيون المجلة الزيتونية سنة 1937 (76) وظهر حزب العلماء الاصلاحيين بالجزائر (77) وتأثر الاصلاحيون بالمغرب الاقصى تأثرا بليغا بالمنار في المشروع الجديد للاصلاحات المغربيّة الذي قدموه للسلط الفرنسية سنة 1934 (78) .

---

(76) انظر : المجلة الزيتونية : م 7 ص 12-15 : الاسلام دين ودولة وقومية بقلم الشيخ محمد العزيز جعيط م 9 ص 251-258 و300-323 : فصل الدين عن الحكومة بقلم الشيخ محمد البشير النيفر . وهي عناوين لا تحتاج الى تعليق !

(77) الشهاب : قسنطينة (1936) م 11 ص 403-414 : حجة الاسلام السيد محمد رشيد رضا (مقالة تأبين) .

(78) AFRIQUE Française supplément au n° de janvier 1938

— امّا وقد اقررنا بالاثر القريب لمدرسة المنار في المغرب فانّه لا مناص لنا من أن نقرّ بأنها أعانت لامحالة وبقدر ينبغي تحديده على أن تصدر الحكومات الوطنية المغربيّة عموما والحكومة التونسية خصوصا في سياستها اللايكية عن قيم روحية ودينيّة إسلاميّة يكون من المفيد ضبطها وإحصؤها(79).

(79) انظر عن الاسلام واللايكية بالمغرب العربي عموما وبتونس خصوصا.

1 - Robert Brunschwig : Perspectives - Studia Islamica, n° 1 pp. 5-21.

» Justice religieuse et justice laïque dans la Tunisie des Deys et des Beys jusqu'au milieu du XIX° siècle. Studia Islamica. 1965, n° 23, pp. 28-70.

2 - Mahmoud Messadi : Islam, nationalisme et communisme. Etudes méditerranéennes, 1958, n° 5, pp. 3-14.

3 - Mohamed Talbi : L'Islam et le monde moderne en confluent, in 8° Juin-Juillet 160, pp. 398-405.

4 - Jacques Berque : Ça et là dans les débuts du réformisme religieux au Maghreb. Etudes d'orientalisme dédiées à C. Proncel. T. II, 1962, pp. 371-434.

5 - R. P. A. Demeersceman : Formulation de l'idée de patrie en Tunisie de 1837 à 1872 in IRLA n° 114-115, 1966, pp. 109-142.

Afrique Française : Supplément au numéro de Janvier 1938.

وثائـق تونسيـة

الشيخ احمد ابن ابى الضياف يقول :
« انى ممن يرى الاجتهاد لا ينقطع »

بقلم : الطيب العنابي

لم يكن القرن التاسع عشر — كما يعتقد ذلك الكثير من الناس — آخر قرون الانحطاط الذي ابتليت به تونس منذ انهيار صرح الدولة الحفصية . بل ان الدارس لتاريخنا الحديث عن كثب لا يلبث ان يتبين له ان بشائر اليقظة الفكرية علميا واداريا وحتى سياسيا قد بدت تظهر في الافق التونسي منذ فاتح القرن الماضي وهذا ما يجعل تاريخ تونس يعتز في ذلك القرن بثلة من خيرة رجالها علما وأدبا وحفاظا على الدين وغيرة على الوطن ، وعملا في شتى الميادين للخروج من ظلمات الجهالة والفوضى والانحطاط الى نور المعرفة والنظام والحضارة .

والشيخ احمد ابن ابي الضياف (1) العالم الكاتب والاداري المؤرخ هو احد رجالات ذلك القرن البارزين بل لعله كان ابرزهم على الاطلاق لما

(1) احمد ابن ابي الضياف عالم تونس ومؤرخها تخرج من جامع الزيتونة وتقلب في مناصب الانشاء الى ان اصبح وزيرا للقلم وعضوا بمجلس العرش ثم رئيسا للمحكمة الخاصة بالنظر في قضايا الاجانب ثم كاهية رئيس للمجلس الأكبر . واشتهر بتاريخه « اتحاف اهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الامان » (1804 — 1877) .

امتاز به من ثقافة شاملة ومواهب نادرة ومن سعة افق ووضوح في التفكير ، ومن حسن بيان وبلاغة في التعبير ، وهي خصال قليلة الوجود في عصره وان وجدت فهي لم تكد تجتمع في غيره . وهذا علاوة على تقلبه في وظائف الكتابة والانشاء تقلبا جعل منه مستشار الامارة ولسان الدولة طيلة اربعين عاما شارك فيها برأيه وبقلمه مشاركة ناجعة فعالة في سياسة الحكومة وحياة الامة منذ ان قربه الباي حسين بن محمود وضمه اليه الى ان اقعدته الشيخوخة عن العمل الاداري في منتصف ولاية المشير محمد الصادق فاعتزل الحياة العامة ولزم بيته متفرغا للكتابة والتأليف .

ولعل من أهم مميزات هذا التونسي النابغة في ذلك العصر هو اعتزازه بقوة العقل البشري الذي كرم الله به بني آدم ودعوته ايضا لحرية الفكر ضمن الحريات التي كان يتطلبها للمواطن دعوة يلمسها المطالع لتاريخه في غير ما موضع خلال ما جمعه من أخبار وما عقب به عليها من تعاليق كما يلحظ ظواهرها حتى في بعض الرسائل الرسمية التي كان يحررها باسم الدولة (2) فكان يطبع سياستها بسامي تفكيره كما كان يحسن تقديمها بفائق تعبيره .

ونحن نذيع له اليوم في الناس وثيقة نادرة عثرنا عليها صدفة ملصقة في مجموع للمصقات قلمية اخرى فيها الغث والسمين اعاره لنا صديق فاضل . وهذه الوثيقة تتمثل في رسالة وجهها الشيخ احمد ابن ابي الضياف بخطه للشيخ أحمد بن حسين الكافي (3) رئيس المفتيين المالكية اذ ذاك يسأله فيها

(2) ولنذكر على سبيل المثال الحادثة الشهيرة التي وقعت برحاب المحكمة الشرعية سنة 1835 بحضور مصطفى باي بين الشيخ ابراهيم الرياحي باش مفتي المالكية وتلميذه قاضي الجماعة يومئذ الشيخ محمد البحري بن عبد الستار عندما اختلفا في قضية حضانة واعتبر الشيخ الرياحي مجابهة القاضي له بالاستشهاد بكتب الفقه تعديا وسوء ادب فقال له بحضرة الباي : « قصريا قليل الحياء » ثم انفض المجلس ورفع الشيخ الرياحي استقالته من رئاسة الفتيا للباي فاجابه الباي بقلم ابن ابي الضياف طالبا منه البقاء بمنصبه قائلا له : « فان هذا الامر متعين عليك شرعا والمعارضة في العلم ليست من سوء الادب والا سد باب المشورة... »

(3) الشيخ احمد بن حسين النمار الكافي اصيل مدينة الكاف تخرج من جامع الزيتونة وولي قضاء الكاف وخلف الشيخ ابراهيم الرياحي في رئاسة الفتوى المالكية سنة 1850 وبقي بها الى ان توفي سنة 1868 ، علامة محقق عرف بسعة الاطلاع والاستقامة وعلو الهمة .

عن رأيه في قبول شهادة الكافر على المسلم من طرف الحاكم السياسي عند تعذر وجود المسلمين .

ولهذه الرسالة اهمية من نواح عديدة . فهي تلفت النظر اولا لسعة اطلاع السائل وكثرة تبحره في العلوم الشرعية بما يعدده فيها من المصادر الفقهية التي يمكن الرجوع اليها لتحقيق المسألة وهو لا يذكر فيها الا محل الحاجة من كل مرجع .

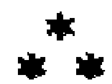
والرسالة تتضمن بعد ذلك رأي السائل الذي يجنح للجواب به وهو كما يلاحظ رأي متزن معتدل ومتحرر من قيود الجمود والتحجر فالسائل بذلك يعرض المشكلة ثم يستعرض النظائر لها التي بسطها فقهاء الاسلام المتقدمون وآراءهم فيها ليتخلص الى القول بان ما رآه في تلك المراجع يقدمه على قبول هذه الشهادة خوفا من « ضياع الحقوق » والسائل يقيم لنا الدليل بذلك على ان اجتهاده في الموضوع ليس يعتمد فيه على غزارة علمه فحسب ولكن ايضا على تبصره وسلامة ادراكه وسموه الى مستوى تفكيري رفيع يدرك معه القاضي الخبير البصير ان تصرفاته واحكامه يجب ان تستوحى اصالة من روح العدل والانصاف خوفا من ضياع الحقوق .

والرسالة تنير لنا بعد ذلك جانبا من نفسية المسؤول الذي يخشى ان ينسبه الناس للاجتهاد فنرى السائل يطلب منه « امعان النظر في النازلة ومراجعة موادها» حتى يكون الجواب مناسبا لمقامه العلمي لانه يراه « اهلا للاجتهاد » واعدا اياه بكتمان ذلك الجواب عن الناس سرا وديا عنده حتى لا ينسبه الناس الى « ما يكره *الانتساب اليه من الاجتهاد*» .

ثم يختم الشيخ ابن ابي الضياف رسالته هاته بصرخة داوية صريحة لا لبس فيها ولا مداورة قائلا : « **فاني ممن يرى الاجتهاد لا ينقطع** » مؤكدا بذلك لنا قوة شخصيته وسامي اعتداده بالرأي وعظيم تقديسه للفكر البشري على مر العصور والدهور .

ثم ان هذه الوثيقة تتضمن بعد ذلك في نفس الورقة التي حرر بها السؤال جواب الشيخ احمد بن حسين او معظم جوابه وهو ايضا بخط المجيب . والمطالع له يلحظ رسوخ قدمه المعروف في العلوم الشرعية وجلالة قدره وتمكنه في اصول الدين بيد انه لا يلبث ان يدرك مدى الفرق بين نفسية وتفكير الرجلين فبقدر ما كانت تدفع همة الاول به الى التأمل والتفكير واعمال الرأي والاستنباط مستعينا ببضاعته العلمية على اللحاق بركب العلماء المجتهدين بقدر ما كان حذر الثاني يجعله مكبلا ببضاعته العلمية اسيرا لها لا يضيف ولا يظهر انه كان يحب ان يضيف لها فهما جديدا يعزى له او رأيا مستحدثا ينسب اليه .

وبعد فنحن بنشر هذه الوثيقة النادرة نأمل ان نكون قد ساهمنا بعض المساهمة في انارة الباحثين في تاريخنا بالكشف عن جانب هام من جوانب تفكير احد افذاذ رجالات تونس في القرن التاسع عشر .



سؤال الشيخ ابن أبي الضياف :

الحمد لله ، اخانا الفاضل العلامة عمدة الفتوى ، وركن العلم الاقوى سيدي احمد بن حسين ادام الله عزه جوابكم الشافي هل للحاكم السياسي ان يحكم بشهادة كافر على مسلم اذا ركنت النفس لصدقها عند تعذر وجود المسلمين قياسا على شهادة الفساق عند تعذر العدول على ما بسطه صاحب التبصرة من التوسعة على الحكام في باب القضاء بالسياسة ، وما ذكره الفاسي على لامية الزقاق في شهادة اللفيف ، وما ذكره ايضا في باب العقوبة المالية في آخر جوابه من تبدل الاحكام بتبدل الازمان وتحدث للناس اقضية بقدر ما احدثوا من الفجور ، وزيادة ابن عبد السلام الخ وما ذكره ابن القيم في آخر فصل شهادة الكافر في السفر عند الضرورة ؟

وهل المنع من قبول شهادة الكافر بالنص او بالقياس على الفاسق كما قاله ابن فرحون فيما ينقض فيه حكم القاضي ؟

وقبول شهادة الكافر اخف من ضياع الحقوق أو أشد من ذلك ؟

وهل يحكم بردة من حكم بها في سياسته خشية ضياع الحقوق الخ ؟

والحاصل ان ما رأيناه في التبصره ، وشرح الفاسي ، والسياسات الشرعية ، يقدمنا على القبول اذا وازيناها بضياع الحقوق .

فالمطلوب من اخوتكم وخالص مودتكم امعان النظر في النازلة ومراجعة موادها حتى نرى الجواب مناسبا لمقامكم العلمي بما يظهر لثاقب فكركم ، وهو في امانة مخلص ودكم سر من الاسرار الودادية حتى لا تنسب الى ما تكره النسبة اليه من الاجتهاد — وان كنت اهلا له — فاني ممن يرى الاجتهاد لا ينقطع .

والسلام عليكم ورحمة الله من مخلص ودكم ومعظم قدركم احمد بن أبي الضياف كتبه في 10 رجب من سنة 1276 (4) .

جواب الشيخ احمد بن حسين :

الحمد لله بعد اهداء اطيب سلام الى اخينا الفاضل الاوحد العلامة ، ادام الله اجلاله واكرامه ، فان الفقير ليس اوسع منكم اطلاعا وحفظا حفظكم الله. الا اني اذكر فيما تعين علي من مراجعتكم ما هو جهد العقل ، وان لم يكن شافيا من العلل .

---

(4) يظهر ان الشيخ ابن ابي الضياف كان في سنة 1276 (1860) بصدد اعداد لائحة « قانون الجنايات » الصادر في غرة محرم سنة 1277 (20 جويلية 1861) والمطبوع بمطبعة الدولة التونسية في نفس السنة . على ان الشيخ كان سمي في ذي الحجة 1277 (جوان 1861) رئيسا للمحكمة المختصة بالنظر في قضايا الاجانب كما سبقت الاشارة لذلك .

اما المنع من قبول شهادة الكافر فثابت بنص القرآن من غير حاجة الى القياس . اذا جاء نهي الله بطل نهي معقل . قال الله تعالى : « واستشهدوا شهيدين من رجالكم » . والكافر ليس من رجالنا . وقال : « واشهدوا ذوي عدل منكم » . وقد اخذ في مفهوم العدل الاسلام .

ثم ان عدم قبول شهادة الكافر على المسلم امر مجمع عليه وخرق الاجماع حرام . ومن تطمئن نفسه للخروج من دائرة الاجماع ونص القرآن ؟ وأي قياس يلجؤ اليه ويعول عليه بعد كتاب الله واجماع الامة ؟

واما قبول شهادة الكافر للمسلم في وصيته في السفر للضرورة حيث لا يوجد مسلمان فهو قول خارج عن المذهب . وحينئذ يتوقف في صحة القياس عليها لان من شرطه ان يكون حكم الاصل متفقا عليه اما بين الامة على قول او بين الخصمين على آخر وكلاهما منتف هنا . على انه على تسليم صحة القياس فهو انما ينتج قبول شهادة الكافر للمسلم لا قبول شهادته على المسلم الذى هو المطلوب .

وكذا القياس على اللفيف ايضا محل توقف كما لا يخفى .

واما قاعدة ارتكاب أخف الضررين فهي من باب الاستصلاح فتعتبر بشرطه وليست معتبرة في كل مقام وعلى سبيل الاطلاق والا لخولف النص والاجماع في مسائل لارتكاب أخف الضررين . وهو خلاف الاجماع ، نقله الشيخ عمر الفاسي . فلينظر قوله : « والا لخولف النص الخ... » .

واما اثر : « تحدث للناس الخ... » فهو محمول عندهم على محدث لا تأباه قواعد الشريعة حتى لا يعارضه حديث : « من احدث في امرنا هذا ما ليس منه فهو رد » ، وحديث : « اياكم ومحدثات الامور » . قال الشيخ عمر الفاسي رحمه الله : « لا يصح التمسك بالمقالة المذكورة على الاطلاق ، ولو صح التمسك بها كذلك لافضى الى الانحلال عن ربقة الدين وامانة سنة سيد

المرسلين . وانما المراد من هذه المقالة وشبهها ان يكون الاحداث على وفـق الشريعة ، وله اصل يستند اليه . لا لمجرد الرأي والاستحسان من غير ملاحظة اصل من اصول الشرع والا لـكان ذوو الاحكام بمثابة الانبياء عليهم السلام . وفي مثل هذا قيل من استحسن فقد شرع . وبالجملة هـي من قواعد الاستحسان وهو من وظيفة المجتهدين (5)... عارضته في العلم والدين » . ا هـ كلامه .

واخوكم ليس من اولئك الفرسان ولا ممن يقتحم تلك المضائق الصعبة... لضعف بضاعتي وجمود فـكري والانسان اعرف بحال نفسه وما حليتم.... امثال هذه النوازل فهو من حسن الظن بأخيكم... وحسن العاقبة واستغفر الله العظيم.... الـكافي لطف الله به .

(5) من هنا في الاماكن الموجود بها نقط تبتدي الانقاص الموجودة في الاصل .

تقديم الكتب

ورقـــات

عن الحضارة العربية بافريقية التونسية

تاليف : حسن حسني عبد الوهـاب
ط. مكتبة المنار ـ تونس سنة 1966
475 ص. 1/8 كبير (القسم الثاني)
تقديم : الشاذلي بو يحيى

لم يطل انتظار أهل الأدب والعلم بعد ظهور القسم الأوّل من كتاب « الورقات » للاستاذ ح.ح. عبد الوهّاب حتى تلاه القسم الثاني من هذا التأليف الضخم الدسم .

ولعلّنا شخصيّا كنّا أشدّ الناس انتظارا وأقلّهم صبرا فأكثرهم ارتياحا لظهور هذا القسم الثاني من الكتاب . ذلك أننا في عرضنا للجزء الأول (1) لم نقتصر على التعريف بالكتاب ومحتواه بل اعتمدناه لنصل من خلال صفاته الى ما نعتقد انه غاية النقد الصحيح وهو الوقوف على خصائص المؤلّف ومميّزاته من حيث المعرفة والاتّجاه في البحث ومنهج التأليف وأسلوب البسط والتعبير .

وظاهر أنّ الحكم في هذه النواحي لا يمكن أن يكون نهائيّا ولا كاملا باتّا ما دام المؤلّف ينتج أو بصورة أخرى ما لم يكن هذا الحكم مبنيّا على

---

(1) في « حوليات الجامعة التونسية » عدد 3 1966 ص ص 215 – 238 .

جميع منتوجات المؤلّف . فيبقى الحكم إذن معلّقا والنقد محترزا قابلين للتغيير والتعديل ومراجعة النظر . ويبقى الناقد محتفظا بقوله الفصل متّهما لما كان أبداه من رأي منتظرا ما قد يؤيّده او يفنّده او يلوّنه ممّا يصدر من تأليف جديد للمؤلّف .

لذا كنّا في انتظارنا هذا الجزء الثاني من « الورقات » أقلّ صبرا من غيرنا وكان ابتهاجنا بظهوره أكبر من ابتهاج غيرنا : فلقد أثبت لدينا ما كنّا ذهبنا إليه من الرّأي في نقدنا الجزء الأوّل وأيّدنا في ما رأيناه من صفات مؤلّفه فاطمأنّنا لحسن الاهتداء وارتحنا من مؤونة مراجعة الرأي ومحاولة التوفيق بين المتباينين .

ولا ريب عندي ان ذلك راجع إلى أصالة المؤلّف وتمكّنه من فنّه ومتانة طريقته فلا يعتري تآليفه اضطراب ولا يسود منهجه غموض يتيه في ظلماته الباحث الناقد شأن الكتب التي تصدر عن مؤلّفين لم يتمكّنوا بعد من ملكة التأليف فهم في مرحلة التكوّن (2) .

---

(2) نستغني إذن بتقديمنا للجزء الأول من « الورقات » عن تحليل الكتاب لاستنباط خصائص التأليف والمؤلف كنا تعرضنا إليها هناك . غير أننا رأينا أن نلاحظ من الجزئيات أمورا ثلاثة :

أ) يذكر شيخنا الأستاذ (ص 218) أن « الحاجب عبد الوهاب... ترك ابنا يسمى محمودا تولى « وظيفة والده بعده واقتفى أثره في أدبه وفنه وكرمه . وقد اشتهر محمود بالكرم الحاتمي حتى شبه « المؤرخون آل بيته ببرامكة إفريقية وعاش محمود في مدة باديس وابنه المعز» . انتهى. ونحن نعلم كل هذا عن الوزير الكاتب علي بن ابي الرجال الشيباني. فقد كان له ابن اسمه محمود خلفه بعد وفاته في سامي الوظائف لدى المعز بن باديس وكان كأبيه من الجود والكرم الى حد ان سمي آل بيته ببرامكة افريقية . يقول ابن الأبار في ذكر محمود بن علي بن ابي الرجال (إعتاب الكتاب ط. دمشق 1961 ص 214) : « نكبه المعز بن باديس الصنهاجي . وكان هو وأبوه وأهل بيته برامكة إفريقية » . انتهى . فهل اشتبه الأمر على المؤرخين أم كان التشابه إلى هذا الحد بين الأسرتين؟

ب) يذكر المؤلف اختصار ابن منظور لموسوعة التيفاشي (ص 457) ويشير إلى طبعة الجزء الأول من هذا الاختصار (اسطنبول سنة 1298 هـ.) وعنوانه : « نثار الأزهار في الليل والنهار.. » وكنا نشرنا بحثا بالفرنسية بمجلةARABICA(ج 10 س 1963 ص.ص. 91 — 94) أثبتنا فيه من بين ما بينا أن عنوان الجزء الأول من تأليف ابن منظور إنما هو : «سرور النفس بمدارك الحواس الخمس» لا « نثار الأزهار »... كما وهمه فارس الشدياق ناشر الكتاب . وكان اعتمادنا في ذلك البحث على النسخة الخطية التي يملكها أستاذنا ح.ح. عبد الوهاب نفسه وتحتوي على الجزأين من الكتاب وقد تفضل بإعارتها لنا جزاه الله خيرا . لكن ينبغي الملاحظة أن المؤلف حرر ترجمة التيفاشي قبل ظهور بحثنا ونشرها بمجلة « الفكر » (عدد 9 سنة 1959 ص.ص 4 — 10) ثم أثبتها بهذا الجزء من « الورقات » .

ج) بعد أن نوهنا بتوفيق مطبعة المنار في إخراج كتاب « ابي الحسن الحصري» (حوليات الجامعة التونسية عدد 1 سنة 1964 ص 138) نسمح لأنفسنا بملاحظة بعض التقصير في طبع هذا الجزء لما فيه من كثرة العناوين الضخمة وكثرة البياض والرجوع الى السطر بدون موجب ولا فائدة وإهمال ترقيم بعض الصفحات (في بداية الكتاب) وقلة الاعتناء بتصليح الأخطاء مما لا يستقيم دونه النشر .

فلقد صحّ عندنا ما كنّا قرّرناه بعد قراءة الجزء الأوّل : اطّلاع شاسع على الكتب العربيّة والأعجميّة من مخطوط ومطبوع . وعلم واسع يعتمد ما كنّا عدّدنا من أنواع المصادر . ومقدرة عجيبة على استثمارها واستنتاج ما لا يتفطّن إليه الإنسان عادة لما حصل لمؤلّـف « الورقـات » من كبيـر الدرايـة بالتاريـخ والعمران وشؤون البشر حتى أصبحت الجزئيّة التافهة الملغاة في نظر غيره دليلا واضحا عنده يفتح أبواب الاستقراء بإضافتها الى غيرها ممّا ينفرد أحيانا بعلمه وفي ذلك سرّ ما اشتهر به وعرف عنه من الحدس . والحدس كما علمت او الافتراض — إذا ما توفّر معه العلم — بداية الاكتشاف ومصدر البحث المثمر الخلاّق .

كما صحّ عندنا أيضا وتأكّد ما كنّا قرّرناه من صفة الشمول المطلـق والتبحّر في المعرفة بشتّى أنواعها وهي صفة تجعلنا نتقدّم خطوة أخرى في التعرّف على خصائص الأستاذ ح.ح. عبد الوهّاب العلميّة وخصائص البحث العلميّ عنده : ذلك أنّ جلّ ما يقرّره إنّما هو نتيجة بحث لا مجرّد رواية . أي أنه لا يقتصر على نبش دفائن الأسرار لاستخراجها وعرضها بل هو بعد ذلك يعملها بأن يؤوّلها او يلحمها بغيرها ممّا يجانسها حتى يتولّد من ذلك كلّه شيء جديد قد لا يتفطّن إليه الإنسان بدون عمليّة جمع الأشياء والنظر اليها نظر الشمول . ونعني بهذا كلّه السموّ من درجة مجرّد الباحث المكتشف الذي وقف على نتيجة البحث فوقف عندها إلى درجة العالم الذي يتفقّه في ما اكتشف ليدمجه في نظريّة علميّة شاملة . وهو ما كان جعلنا نرى فيه — في ما سبق أن كتبنا — حقيقة المؤرّخ بمفهومه الحقّ لا مجرّد الأخباريّ وإن طال باعه في ما روى وأثبت :

فالبحث عن « سوسة الأغلبيّة... » مثلا (ص.ص. [9] — 150) ليس مجرّد وصف للمدينة وتاريـخ إنشائها وتطوّرها فقط بل هو إحياء — بصحيح معنى الكلمة — لهذه المدينة في معالمها ودروبها وأسواقها ورحابها بين أسوارها

وما أحاط بها من قرى ومحارس بل وكذلك هو بعث لقرون خلت من أجيالها فترى القوم في تجمّعهم وائتلافهم ليكوّنوا شيئا فشيئا أمّة ذات ميزات خاصّة بهم يتميّزون بها عن غيرهم ولا يقبلون الدخيل على عوائدهم وإن كان ذلك الدخيل قد أتى به الأمراء وحاشيتهم — كاللّهو بالسماع وآلاته (ص.ص 59 — 60) — ثمّ انك لتعلم علما طبيعيّا من خلال البحث أسباب ذلك الامتياز وكيفيّة نشأته وهـي هـي أسباب نشأة المدينة : حراسة ومرابطة وذود على حوزة الدين والوطن الى هلمّ جرّا . وهذا هو الذي قرّرناه في تقديمنا للجزء الأوّل من الـكتاب عندما قلنا إن التاريـخ بمعناه الصحيـح — وكما بدا لنا أنه يتجسّم في تـآليف الأستاذ ح.ح. عبد الوهّاب — إنما هو ذلك الذي يدرس عصرا فيستطيـع بعث أهل ذلك العصر حتى يراهم القارئ أمام عينيه في حياتهم اليوميّة وعوائدهم وأشغالهم وكدّهم ولهوهم بل وشواغب أفـكارهم أيضا وآمالهم .

وانظر إلى غير هذا الفصل من الـكتاب . انظر إلى فصل الموسيقى (ص.ص 171 — 274) ترى إزاء البحث العلمـيّ الخصب المتين حياة اللهو — والجدّ أيضا — في مجالس السمر وأعقار البيوت وتدرّبَ من اتّخذ الغناء صناعة وكدَّ من اشتغل بتلقينه وجمعِ ألحانه ووضعِ قواعده وصنع آلاته . وقل مثل ذلك في صناعة الـكاغذ (ص.ص 153 — 168) وكذلك تراجم الرجال فهي تصوير لهم ولأجيالهم غالبا ثم هي صورة حيّة ناطقة جذّابة بما فيها من عناصر الحيويّة .

فباستيعاب الموضوع على الطريقة التي بسطناها في عرضنا السابق وبهذه الحيويّة التي يسبغها المؤلّف على مواضيـع أبحاثه يشوّق القارئ إلى الإقبال على الـكتاب بل إلى محبّته . ذلك لأنّ المؤلّف يعطف على عمله هذا ويحبّه فيسري هذا العطف على الـكتاب وهذه المحبّة من المؤلّف الى القارئ . وقد سبق أن أشرنا الى ارتياح القارئ إلى مطالعة تـآليف ح.ح. عبد الوهّاب وحاولنا تعليله بتحليل مواطن الإصابة والإبـداع من حيث المعنى والمبنى .

ويؤيّد ذلك كلّه هذا الجزء ويزيده تمكّنا من يقيننا ووضوحا بهذا الذي ألححنا هنا خاصّة في بيانه وهو ما سمّيناه بعطف المؤلّف على ما يتصدّى له بالدّرس ومحبّته زيادة على الاهتمام به . فهي عناية أكثر منها اعتناء .

أفلم تشعر بذلك وأنت تقرأ بحثه عن « سوسة الأغلبيّة » ؟ ألم تر من وراء عزم العالم المؤرّخ على التعريف بمآثر الأغالبة إرادةَ المولع بهم إبرازَ مفاخرهم ؟ بل فوق ابتهاجه بعظمتهم ترى إشفاقه عليهم وغيرته لما نالهم من تظافر بغي بني عبيد وجحود المؤرّخين على طمس معالمهم . بل ومن وراء هذا وذاك ترى تعلّقا بالأغالبة يحبّب لك أيضا دولتهم وعصرهم من بين عصور تونس الإسلاميّة .

إلاّ انّ الميل إلى هذه الدولة لم يكن على حساب ما لغيرها من الدول . فلئن هو نوّه بفضل الأغالبة على بني عبيد في مثل قوله (ص 202) : « مهّد بنو « الأغلب وسائل الحضارة وأسبابها الى الفاطميّين كما أنّهم يسّروا لهم السبيل « الى مدّ سلطانهم على إفريقية والمغرب وجزائر البحر المتوسّط » فلقد أشاد بآل المهلّب الذين حكموا إفريقية قبل الأغالبة وأطرى عليهم إطراء من يعطي كلّ ذي حقّ حقّه : فالشغف والهواية والإعجاب لم تذهب عنه النزاهة التي هي أسّ العلم وقد كنّا بسطنا القول في اصطباغ أبحاث أستاذنا بشروط العلم . فلا غرابة .

ويؤول بنا هذا الحديث الى ما كنّا أطنبنا في بيانه في ذلك العرض من تلاقي صفتي العلم والأدب في تآليف الأستاذ ح.ح. عبد الوهّاب . وكنّا بيّنّا أنّ في ذلك الميزة التي جعلت منه الشيخ الأستاذ بأصحّ مفهوم الكلمتين . وإذا باستنتاجنا هذا يؤيّده الجزء الثاني من « الورقات » أيّما تأييد .

فالصبغة العلميّة التي تظهر حتى في اللّغة وقد رأينا أنّها لغة البسط والبيان في وضوحها ومتانتها واجتنابها زخارف البديع تنسجم مع الصبغة الأدبيّة التي

تجعل الكتاب ينبو عن التبويب — رغم التبويب — ويكثر فيه الاستطراد ويمتزج فيه الجدّ الرصين بأخبار ذوي الهزل واللّهو والمجون .

ولقد أصابتنا حيرة ونوع من الشعور بالخيبة عند أوّل تصفّحنا الكتاب لما رأينا ربعه قد خصّص « للمواعظ والنوادر والملح التونسية » (ص.ص 319 — 436) وخشينا أن يكون ما كنّا توسّمناه بعد مطالعة الجزء الأوّل من تناسب الصبغتين العلميّة والأدبيّة في طريقة ح.ح. عبد الوهّاب قد أخطأنا فيه وخاب ظنّنا . لكنّ مطالعة ذلك الباب — وقد قرأناه كغيره من فصول الكتاب من أوّله الى منتهاه — جعلتنا نقف على غاية للمؤلّف لطيفة من إيراده ما احتوى عليه هذا الباب : وهي أنّ هذه « الأفكار » و « الحوادث » و « النكت » التونسية تكشف عن ناحية غير حقيرة من العقليّة والنفسيّة التونسيّة فهي تساهم إذن مساهمة ذات بال في تصوير الحضارة التونسية لا تصويرا جافّا لكن — كما سبق لنا بيانه — تصويرا حيّا « ناطقا » . والحقّ أنّ المؤلّف نبّه إلى هذا الغرض إذ قال في مستهلّ هذا الباب (ص 319) : « كنت... جمعت جملة وافرة من المواعظ الحكيمة لأسلافنا الأبرار مشفوعة « بنوادر لطيفة مقتبسة من سيرهم وأخلاقهم وشيمهم اعتقادا مني أنّ ذلك « هو لباب الأدب وعصارته الشهيّة إذ بفضلها يتعرّف القارىء الى جانب « عظيم من نفسيّة الأمّة وميولها في مجالس وعظها وإلى طرائف أحاديث « نواديها وفعلات أجوادها وظريف فكاهاتها ممّا يصلح أن يكون مرآة صافية « تنعكس فيها صورة من رقي حضارتها وبرهانا صادقا على رقّة شعورها « وجودة عواطفها » .

والحقّ أيضا اننا لم نكن لنطمئنّ كلّ الاطمئنان الى هذا التعليل لولا ذلك الذي كنّا تيقنّاه خلال تحليلنا الكتاب وطريقته وكرّرناه غير ما مرّة ورضيناه مفهوما للتاريخ صحيحا من أنّ أخصّ خصائص مؤلّف «الورقات» كمؤرّخ إنّما هو « إحياء » العصور والأمم والجماعات . فلئن استطاع ذلك

بوسائل « علميّة » ــ وقد بيّنّا انه استطاعه ــ فالاستعانة عليه بالوسائل « الأدبيّة » لا تضير بل هي تندمج في غيرها من الأساليب بمقدار خاصّ حتّى يصير لتآليفه صبغة خاصّة بها تميّزه عن غيره من الكتّاب فيعرف بها وتعرف به . ولا تنحصر هذه الميزة الخاصّة به في ما بسطنا من مزج الأساليب واستعمال كلّ منها بمقدار خاصّ بل هي تتجاوز ذلك الى اللّغة والأسلوب أيضا . ولئن كنّا أبدينا رأينا في هذه اللّغة وهذا الأسلوب في العرض السابق فإنّ الجزء الثاني من « الورقات » ــ وهو يؤيّد ما ذهبنا إليه من ذلك ــ إنما يكشف لنا عن نواح أخرى من هذه اللّغة وهذا الأسلوب يكتمل بها رأينا في طريقة المؤلّف لأنّها تبلور هذه الطريقة وتجعلنا نحيط بها ونفهمها أكثر من ذي قبل . ذلك أننا عند رغبتنا أحيانا تقييد بعض الآراء والأفكار التي يبسطها المؤلّف لم نستطع التقييد على طريقة التلخيص الاعتيادية وما ذلك إلا لإيجاز العبارة وملاءمتها الفكرة فلا سبيل الى اختصارها ولا مناص من نقلها بحذافرها .

والنبوغ والعبقريّة في أنّ أسلوبا كهذا علميّا لا يكسوه الجفاف ولا يعتري قارئه الضجر بل كنّا أشرنا مرارا الى لذة مطالعة الكتاب وليست هذه اللّذّة ناشئة عن طرافة المادّة والتمتّع بالاكتشاف طيلة الكتاب فحسب إنّما إلى ذلك يضاف ما نحن بصدد محاولة إبرازه من خصائص أسلوب ح.ح. عبد الوهّاب وهذا الأسلوب رأينا في ما سبق صبغته الأدبيّة فمن ذلك نال شيئا ممّا جعل مطالعة الكتاب ممتعة . لكنه لم ينل من ذلك الجانب إلاّ « شيئا » فقط . فمن أين جاءه بقيّة دواعي المتعة إذن ؟ ترى ما هي صفات هذا الأسلوب التي تجعل قراءة الكتاب شيّقة ممتعة ــ بعد كونه أسلوبا أدبيّا ؟ ــ

لقد بد لنا أنّ من عناصر جمال هذا الأسلوب عنصرين أساسيّين لست أدري هل يرى رأيي فيهما غيري من القرّاء بل لعلّ المؤلّف قد لا يوافقنا هو الآخر فيما ذهبنا اليه ــ خاصّة في العنصر الثاني منهما ــ وهما الأسلوب القصصيّ والشاعريّة .

نعم . كذا رأينا هذا الأسلوب غير ما مرّة من خلال هذين الجزأين من كتاب « الورقات » . ولن نطيل في بيان ذلك بل نقتصر على مجرّد الإشارة وهي — في رأينا — كافية .

أمّا العنصر الأوّل الذى سمّيْناه بالأسلوب القصصي فإنّنا نعني به أنّ المطالع للكتاب بجزأيه يقرأه كما يقرأ قصّة ممتعة ذات فصول : ولقد نبّهنا مرارا في هذه الدراسة والتي قبلها إلى طرافة المواضيع وكثرة الاكتشافات ووفرة المعلومات عن أحداث وأحوال ورجال كان النسيان قد أسبل عليها رداءه . ولقد قرّرنا منذ العرض الأوّل أنّ المؤلّف لا يفرد الأمر الذى يدرسه ولا يفصله عمّا يحيط به أو يسبّبه او يتبعه . وإنّما سبيله في كلّ ما يتناول توخّي الاستقصاء والشمول حتى يرتبط الشكل بشكله وتحصل للقارىء النظرة الشاملة والدراية الكاملة . ولقد بيّنّا كذلك حرصه على تناول المسائل من بداية أمرها ثم مسايرتها في مختلف أطوارها الى منتهاها . وغير هذا وذاك من طريقة المؤلّف أطلنا تحليله وبسطه في موضعه . أفلا تكوّن هذه الصفات كلّها عناصر قصصيّة تجعل من كلّ باب قصّة يتتبّع القارىء أطوارها في شغف ولهفة وإذا ما تركها انتقل منها الى أخرى لا تقلّ عنها طرافة وغرابة ومفاجآت مع تلك الحيويّة التي أطلنا تكرار ذكرها ؟

ثم تضمّ القصّة الى القصّة في ذهنك اى تستجمع هذه الأبواب كلّها ممّا جاء في الجزأين — وما سيأتي في ما بعدهما — وإذا بك أمام قصّة من أروع قصص الإنسانيّة ألا وهي « قصّة الحضارة العربيّة بإفريقية التونسية » .

ألم أقل لك منذ بداية العرض الأوّل إن عنوان الكتاب : « ورقات » (3) عنوان متواضع ؟ ثم ألم أختم ذلك العرض بذكر ما يطفح به الكتاب من حبّ هذا الوطن فأراد مؤلّفه إبراز محاسنه ومآثره فتمعل ؟

(3) بما أن أجزاء « الورقات » لم ينته ظهورها فإننا نقترح في ترجمة العنوان الى الفرنسية عبارة Bonnes feuilles عوض feuillets فهي أليق بمحتوى الكتاب ونسبته إلى كتاب أضخم « كتاب العمر » .

لذلك كلّه لم تجفّف الناحية العلميّة روح الـكتاب .

ولقد أردنا أن نضرب لذلك مثلا تحليل الباب المسمّى « بقصّة جزيرة قوصرة العربيّة » (ص.ص. 277 — 318) فأعرضنا عن ذلك خوف الإطالة وفي العنوان ذاته دليل على ما ادّعيناه . ثم أيّ شيء أشدّ إثارة للجوّ القصصيّ من جزيرة صغيرة تكاد تكون مجهولة تصفّقها الأمواج وتتناقلها أيدي الغزاة والقراصنة ؟ .

نعرض عن تحليل ذلك لكنّنا نحتفظ بهذا الباب « قصّة جزيرة قوصرة العربيّة » لنستدلّ على العنصر الثاني من عناصر جمال أسلوب ح.ح. عبد الوهّاب — حسب رأينا — وهو — بعد الأسلوب القصصي — الشاعريّة .

ولا نعني شاعريّة الموضوع — فقد تبيّن ذلك ممّا سبق — بل نعني الشاعريّة في اللّغة والأسلوب والخيال أي ما يكوّن ما يسمّى بالشعر الخالص . ولن نحاول هنا بحثا ولا تقريرا إنّما نعرض على القارىء « ورقة » من هذه « الورقات » يقرأها نموذجا لما هو مبثوث في طيّات الكتاب كثير . (ص ص 315 — 316) :

« وهكذا جرت سنن الكون في عملها الفعّال منذ انبلج صبح الحضارة « على ضفاف البحر المتوسّط ، فقد حملت رياحه وأمواجه الغادية الرائحة بين « جوانبه بذور مدنيّات مختلفات ، تأتي بها تارة من المشرق الى المغرب وتنقلها « أخرى من الجنوب الى الشمال طردا وعكسا ، وتمزجها بالتراب والرفات « حتى إذا ما تألف منها هيكل منسجم الظاهر متماسك الأجزاء انسجمت في « ثناياه مؤثرات خفيّة اندست في باطن التربة وفي أعماق النفوس وسرت فيها « سريان الماء في العود وجرت جريان الدم في الشرايين ، صنعة الله ، ومن « أحسن من الله صنعا !

« فمن تلك البذور ما يضمحلّ بعد حين ويندثر لحقارته وعدم صلاحيّته « ومنها ما يظلّ حيّا ناميا دهر الداهرين لمتانة في أساسه وقوّة في وقعه وفائدة

« في بقائه مصداق قول الله تعالى : (فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع « الناس فيمكث في الأرض) » . انتهى .

هكذا يبدو لنا الشيخ الأستاذ حسن حسني عبد الوهّاب من خلال ما ظهر من تآليفه عالما عاملا (4) ثبتا يغلب عليه علم التاريخ والعمران البشري وتراجم الرجال . وأديبا كاتبا سلس اللّغة والأسلوب ينزع الى البساطة مع مقدرة على الإيجاز . حسن الطريقة مليح العبارة قريب الفائدة والإمتاع .

فعسى أن يستمرّ ظهور مؤلّفاته — خاصّة « كتاب العمر » منها — حتى يتسنّى لأهل العلم والأدب الوقوف على هذا العمل الجليل ومعرفة درجة مؤلّفه من الذكاء والعلم والبراعة فيتبوّأ مكانه الذي هو أهل له من بين أعلام الأفارقة ورجالات العلم والأدب على الإطلاق .

(4) هو « عالم عامل » بمعنى أوسع من المصطلح التقليدي للعبارة . ذلك أنه وضع معارفه ومواهبه وبعض ماله في سبيل العلم والوطن والإنسانية نقتصر هنا على الإشارة من ذلك الى ما جاء ذكره في هذا الكتاب من هدايا أهداها الى المتاحف والمكتبات (مثلا ص 26 و 35 تعليق عدد 2) وحثه الباحثين على طرق أبواب كثيرا ما يسر لهم السبيل اليها (مثلا ص ص 60 — 61 و 466...) الى غير ذلك.

خريـدة القصر وجريـدة العصر

للعمـاد الاصبهـانى

قسم شعراء المغرب ج 1

تحقيق م . المـرزوقي وم . العروسي المطوي والجيلاني بن الحاج يحي (ص ص 7 + 12 + 346 + 80) ط . الـدار التونسية للنشر. تونس سنة 1966.
تقديم الشاذلي بويحيى

هو الجزء الأوّل من جزأي القسم الرابع والأخير من تأليف عماد الدين الاصبهاني المتوفى سنة 1201/597 .

و « الخريدة » من أنفس ذخائر الأدب إذ جمع فيها صاحبها نماذج من شعر مشاهير القرنين الخامس والسادس فصارت بذلك أهمّ مرجع لمعرفة أدب عصور أصابتها يد التلف والدمار أكثر من غيرها . ذلك ان الكوارث العظمى التي اكتسحت البلاد الإسلامية في ذينك القرنين وما بعدهما قد خرّبت المكاتب مع الدور وأتلفت الكتب من بين ما أتلفت من المتاع . فبعد خراب القيروان وسقوط صقلّية بأيدي النصارى واسترجاع الاسبان عواصم الأندلس وانهيار خلافة بني العبّاس إثر إحراق بغداد لم يسلم من الكتب إلا القليل وبدأت إذّاك حركة الجمع والتلخيص وتأليف الموسوعات لإنقاذ ما تيسّر إنقاذه من

التلف . فالكتب التي يذكرها لنا أصحاب هذه الموسوعات والتلاخيص عددها لا يحصى وجلّها لم يبق منه إلا ما حفظته لنا هذه المجاميع .

وكان العماد الاصبهاني أديبا شاعرا محبّا للشعر ميّالا إلى الأدب فكثرت المنتخبات في كتابه حتى صار نموذجا لإنتاج ذلك العصر الشعري وصورة مصغّرة أحيانا لبعض دواوينه المفقودة كديوان تميم بن المعزّ الصنهاجي (ص ص 141 — 160) وديوان أبي الصلت أميّة بن عبد العزيز (ص ص 189 — 270) مثلا من بين الأفارقة .

فكانت الخريدة لذلك مرجع الباحثين منذ زمن يستنظفون مخطوطاتها في مكتبات الشرق والغرب الى أن بدأ الاعتناء بنشرها منذ بضع سنين . فظهر منها قسم العراق وقسم الشام وقسم مصر وها هو ذا قسم شعراء المغرب يُشرع أخيرا في نشره بمصر وبتونس في آن واحد .

ظهر هذا الجزء الأوّل من الطبعة التونسية منذ بضعة أشهر وصدّر له علاّمة القطر الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب بصفحات ثريّة يكسوها طابعه المعروف كمؤرّخ : فهو يربط بين أحداث تبدو متباينة فيرجعها الى نواميسها ثم يتتبّع نتائجها في ميدان العلم والأدب خاصّة ويصل هكذا الى ضبط دور العماد الاصبهاني « في انتقاء ما تفرّق من أخبار شعراء المغرب والمشرق في تلك الفترة المجدبة الأخبار الخالية من رواة الآثار » (1) .

ورأى المحقّقون لهذا القسم ان يستغنوا عن مقدّمة كاملة للكتاب والمؤلف بمقدمات الأقسام الأخرى المطبوعة خاصّة مقدمة قسم العراق بقلم السيد م. بهجة الأثري . وعذرهم ان العمل عمل كالمشترك وهو في موضوع واحد وانه ليس لديهم « عناصر جديدة ذات بال يمكن إظافتها الى ترجمة العماد الاصبهاني » (2) .

---

(1) ص يب ؛

(2) ص يو .

غير أن ذلك ليس مانعا – في رأينا – من الزيادة في البحث إمّا لتعديل بعض ما لم يصب فيه المحقّق العراقي كلّ الإصابة وإمّا لإثراء البحث في شخصيّة العماد الأدبيّة وهو ممّن لم يحظ بدراسة تليق بقيمته وبدوره في تاريخ الأدب العربي . في نطاق ما قد يستوجب إمعان النظر ممّا نُقل عن المقدمات الأخرى نقتصر على نقطة واحدة جاءت في بداية مقدّمة المحقّقين التونسيين نقلا عن مقدّمة القسم العراقي حيث يقولون : « وكان [العماد الاصبهاني] في عمله هذا مقتفيا لآثار ابي منصور الثعالبي في كتابه « يتيمة الدهر » وابي الحسن الباخرزي في كتابه « دمية القصر وعصرة أهل العصر » دون أن يجد من اقتفى أثرهما ونسج على منوالهما » (3) .

والحقيقة تخالف هذا شيئا ما . بالكتب المؤلّفة على غرار « اليتيمة » عديدة متنوّعة تستدعي بحثا عميقا ممتعا كان يمكن أن تكون مقدّمة إحدى طبعات « الخريدة » محلاّ له . فالعماد الأصبهاني ألّف كتاب « الخريدة » ذيلا على كتاب « زينة الدّهر » لسعد بن علي الورّاق من معاصريه إذ توفّي سنة 1172/568 وسعد بن علي الورّاق ذيّل بكتابه هذا « دمية القصر » للباخرزي المتوفّي سنة 1074/467 والباخرزي ذيّل بكتابه « يتيمة الدّهر » للثعالبي المتوفّي سنة 1038/429 . على أنّ البحث في هذا الموضوع – وقد قلنا إنه ينبغي ان يكون عميقا – يتجاوز هذه الكتب الى غيرها ليس هذا محلّ النظر فيها . فلنذكر على سبيل الدليل أنّ « يتيمة الدهر » لم تكن أوّل كتاب وضع على هذا النمط بل إنّما ذيّل به الثعالبي كتاب « البارع » لهارون بن علي المنجّم المتوفّى سنة 987/376 . الى غير هذا من كتب تشابهت في الغرض والمنهج .

أمّا أسلوب العماد الاصبهاني وطريقته في الاختيار والتقديم والنقد والمقارنة بين طريقته هذه وطريقة من حذا هذا الحذو من التأليف فذاك ما لم يزل ينتظر بحث الباحثين .

---

(3) ص يهـ .

ثم يتعرّض المحققون التونسيون الى مخطوطات الخريدة فلا يذكرون منها فيما يتعلّق بالقسم المغربي سوى مخطوطة باريس (4) ومخطوطة جامع الزيتونة بتونس فاقتصروا على الاعتماد عليهما لتحقيق النصّ الذي ينشرونه . غير أنّ لهذا الكتاب مخطوطات أخرى منها ما يعرف المحقّقون وجوده — كالنسخة المصريّة مثلا — وما قد لا يعرفونه او لم يهتمّوا به كنسخة لايدن LEIDEN ونسخة في مكتبة تونسيّة خاصّة . وليسمحوا لنا أن نلاحظ لهم من بين ما قد يكون لهذا التهاون من الأثر أنه لا يشجّع على تفضيل طبعتهم على الطبعة المصريّة لهذا القسم بقطع النظر عن دواعي التفضيل العديدة الأخرى والكتاب التونسي لا يستطيع اكتساح سوق قرّاء العربيّة والاستحواذ عليها إلا بخصاله العلميّة التي ينبغي أن يفوق بها غيره من الكتب . نحن لا نعرف بعد الطبعة المصريّة لهذا القسم من « الخريدة » لكن من دواعي تفضيل طبعة على أخرى أن تمتاز إحداهما بالاعتماد على جميع المخطوطات او على أكثرها وأن تمتاز بالتحرّي في الإخراج والأمانة في تأدية النصّ الى القارىء على أقرب وجه أراده له المؤلف . فمن ذلك مثلا أنّنا لا ندري لأيّ سبب أنهى المحققون هذا الجزء الأوّل حيث أنهوه بترجمة « يونس القسطلي » (5) على ان الجزء الحادي عشر من مخطوطة باريس — وهي عمدتهم الأساسيّة — يتمادى بعد ذلك بما يقرب من ستّين ورقة حتى تأتي في آخره هذه العبارة : « تمّ الجزء الحادي عشر من كتاب الخريدة... يتلوه في الجزء الثاني عشر شعر ابن خفاجة الأندلسي وهو آخر الكتاب » . وقد نصّ المحقّقون على حدود هذا المجلّد

(4) في مجلدين يقول عنهما المحققون : « إن كلا المجلدين يضمهما رقم واحد حديث هو الرقم (3331) المعروف حاليا لدى العموم المكتبة الوطنية بباريس » وهو خطأ نتبه اليه من قد يريد جلب صورة منهما. فالمجلدان في الحقيقة يحملان عددين مختلفين : فالمجلد الحادي عشر عدده 3330 والمجلد الثاني عشر عدده 3331 . والمنشور في هذه الطبعة هو الجزء الحادي عشر (عدد 3330) غير كامل كما سنراه .

(5) هل هو يونس ام يوسف ؟

من نسخة باريس (6) . كما أنّهم حذفوا ترجمة جاءت في الأصل مستقلّة (7) وأظافوا نصّها الى ترجمة أخرى للشاعر نفسه سبقت هذه (8) . وحذفوا كذلك كلمات وأبياتا (9) لأنّها تمجّها الأخلاق . فتلك نظريّة . لكن هل راعوا نظريّة الباحث والمشتري عندما يعلم أن إحدى الطبعتين ناقصة لأسباب حتى وإن كان من بينها أسباب أخلاقيّة ؟

فلئن أشرنا هنا الى أهمّ ما رأينا وجوب التنبيه اليه من ملاحظات (10) فذلك لاهتمامنا بهذه النشرة وتقديرنا لعمل محقّقيها وقيمة ما وصلوا اليه من نتيجة . فالاعتناء بتخريج الأسماء وضبطها ظاهر بيّن وكذلك تحقيق الشعر وشكله شكلا تامّا صحيحا في ما وقفنا عليه منه (11) . فجاءت الطبعة علميّة جدّيّة أنيقة نرجو أن تزداد صفاتها حسنا في طبعة الجزء المقبل وأن يحظى الكتاب بذلك بإقبال القرّاء والباحثين جزاء وفاقا على ما بذله المحققون حتى تبرز « خريدة القصر » في بهجتها اللائقة بقيمتها .

(6) في المقدمة ص كج . نشير الى المحققين ان الاسم الذي أثبتوه هنا وهو « اللوقي » لعله « اللرقي » نسبة الى مدينة « لرقة » فليتثبتوا فيه إذ هو ممن سترد ترجمته « الجزء الثاني . وكذلك ما أثبتوه من اسم ابي حفص عمر بن حسن النحوي الصقلي (ص 45) لعله « ابن حبيش » (؟)

(7) انظر ص 325 .

(8) ص ص 281ـ284 وهي ترجمة الزكرمي . كما حذفت ترجمة ثانية لابن الطوبي (ص 327) للسبب ذاته . وقد يعلل ذلك ها هنا عدم وجود الترجمة في إحدى المخطوطتين .

(9) ص 253 وص 284 .

(10) أما الفهارس وهي أهم ما يستعين به الباحث في هذا النوع من التأليف فعسى أن تزداد ضبطا وتثبيتا عند انتهاء طبع الكتاب . فمما يلاحظ فيها : بعض الاضطراب في الاسماء (مثلا ص 434 : عدد 41 ردزيطانو وعدد 48 ابن تغري بردي) ونسبة بعض الكتب لغير مؤلفيها (ككتاب « البيان المغرب في أخبار المغرب » نسب الى ابي عبدالله محمد المراكشي ص 431 عدد 10 وهو لابن عذاري . وللمراكشي كتاب يحمل عنوانا آخر) وفهرس الأعلام لعل به شيئا من النقص (مثلا : أثبت به ابن رشيق في ص 83 فقط على انه مذكور في الكتاب في 84 أيضا ـ على الأقل) . اما الفهرس الأخير المسمى « بفهرس التراجم » فليس بفهرس إذ هو يقتصر على ذكر تلك التراجم حسب ترتيبها في الكتاب فلا يتسنى الانتفاع به بوجه .

(11) لم نتتبع المختارات الشعرية كلها بالقراءة لأنه سبق لنا أن طالعناها باحدى مخطوطات « الخريدة » ومن الأسف أن لم تذكر بحور الأبيات .

الرحلــة المغربيــة

تـاليف : محمـد العبدري البـلنسي
تحقيق الاستـاذ احمد بـن جـلو
نشــر كليــة الآداب الجــزائريــة
عدد 1 . ط . قسنطينة (بلا تاريخ)
تقديم : الشاذلي بويحيى

هـي الرحلة الشهيرة برحلة العبدري . مؤلّفها مغربـيّ غادر بلده بالمغرب الأقصى في سنة 1289/688 قاصدا بلاد المشرق مخترقا شمال إفريقية فطرابلس فالبلاد المصرية ثم عاد إلى وطنه . وكان العبدري عالما أديبا متصوّفا محبـا لأهل العلم والدين فغلب على تقييده أثناء سفره ذكر أحوال البلاد من حيث العلـم والتعليم والطلب والتعبّد مع التعرّض أحيانا الى وصف بعض البلاد التي مرّ بها ذاكرا مسالـكها وأمنها أو مخاوفها وطبيعة أرضها من جبال وسهول ومهامه وما يتّصل بعمرانها أو قفرها في لمحات خاطفة مبعثرة لا تحصل منها صورة مضبوطة للبلاد في عصره من ناحية الجغرافية الإنسانيّة .

ومع ذلك فمن هذه الرحلة تتجلّى صورة قاتمة يائسة متشائمة للعمران في بلاد شمال إفريقية وليبيا الى مصر . وسببه — مع شـيء من التشاؤم الطبيعي أو المقصود في نفس العبدري — هو عيث الأعراب من بني هلال ومن لفّ لفّهم في أرض كان أجدادهم قد قضوا على حضارتها منذ أكثر من قرنين .

ولم تكن حال البلاد العلميّة بأحسن من حالها العمرانيّة . فالعبدري ما فتيء في رحلته ينعى على القوم ذهاب الاعتناء بالعلم وفقدان العلماء . ذلك أن هذا هو ضالّته المنشودة في هذه الرحلة . فهمّه الأوحد هو لقاء العلماء والتعرّف والتعريف بهم والاستماع اليهم وتقييد علمهم وروايتهم وشيوخهم وما يدرسون من كتب . كلّ ذلك بالتدقيق والتفصيل الذين نعلمهما عند القدماء في طريقتهم في أخذ العلم . ورحلة العبدري من نوع الرحلة في طلب العلم .

ولئن أسف العبدري ان لم يجد من حملة العلم ما كان يأمل في جلّ مدن الأقطار التي قطعها فقد حظي بمبتغاه في بعضها خاصّة في بجاية وتونس والقيروان . فسمّى لنا رجالها العلماء والصالحين وترجم لهم وذكر أثناء ذلك من الكتب والمسائل والإجازات ما يعتبر في جملته « فهرسة » او « برنامجا » على حدّ الاصطلاح المستعمل إذّاك . فكأنّ الرحلة المغربيّة إذن « فهرسة » العبدري او « برنامجه » . ومعروف قيمة هذا النوع من التآليف لما يفيدنا من أسماء العلماء وتراجمهم والكتب والمسائل التي تدرس في عصرهم وطريقة التعليم والأخذ عندهم . فجاءت رحلة العبدري وثيقة ثمينة عن العلم والعلماء والتعليم بهذه المدن وبمدينة تونس على الأخصّ في النصف الثاني من القرن السابع . وفي هذا فقط تكاد تنحصر فائدة رحلة العبدري .

ومعروف أنّ هذا هو أخصّ خصائصها . فهي تمثّل مرحلة حاسمة ومنعرجا خطيرا في فنّ الرحلة في الأدب العربيّ إذ تحوّل غرض الرحلة من الوصف الحيّ الفنّيّ للبلاد كما سنّ ذلك ابن جبير المتوفّى سنة 1217/614 في رحلته الرائعة فصار غرضها مع العبدري الرحلة في طلب العلم اى الرحلة إلى الرجال للسماع منهم والتبرّك بهم . فصار العلم والعلماء والأولياء هدف مؤلّفي الرحلة الأوّل وما عدا ذلك فأمر عارض . وهذا النوع الثاني الذي سنّه العبدري ستتوّجه رحلة العيّاشي المتوفّى سنة 1679/1090 .

فبهذين الأمرين إذن تـكتسي رحلة العبدري أهمّيّتها : بكونها مرجعا نفيسا وبكونها مرحلة حاسمة في تطوّر فنّ الرحلة .

ورغم هذه القيمة — وإن كانت محدودة — فلم تحظ رحلة العبدري بالعناية اللاّئقة بها لا من حيث الدراسة ولا من حيث النشر . فالقليل المعروف عن العبدري ورحلته يعتريه شيء غير قليل من الخطإ والغموض والإهمال .

فمن ذلك ان المترجم له بدائرة المعارف الإسلاميّة (1) المرحوم الأستاذ محمّد بن ابي الشنب ينسب للعبدري القصيدة الرائية التي وردت في الرحلة (2) ويقول إن العبدري نظمها للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب يسأله فيها إنقاذ البلاد الإسلاميّة من نير النصارى . وتبعه في ذلك الأستاذ هونـرباخ W.Hœnerbach عند إعادة فصل ابن ابي الشنب في الطبعة الثانية من دائرة المعارف الإسلاميّة (3) ولـم ينتبه هـذان العالمان إلى أنّ صلاح الدّين الأيّوبي توفّي سنة 1193/589 أي قرنا كاملا بالضبط قبل سفر العبدري . ثم إن النصّ الذي قدّم به العبدري هذه القصيدة والذي ختم به ذكرها رغم ما فيه من غموض فإنّه يُفهم منه انّ القصيدة لابن جبير رواها له العبدري في خبر يرفعه بسنده الى ابن جبير وأورده هنا لاقتضاء الحال عندما وصف تعدّي حرس الإسكندريّة على حرمة الحجيج وهو ما شكاه ابن جبير منهم فخاطب صلاح الدين الأيوبي بهذه القصيدة في ذلك الغرض بعينه طالبا منه أن يأمر باحترام الحجّاج ولا ذكر في القصيدة للاستغاثة به على النصارى الحاكمين لبلاد الإسلام .

فالغلط فاحش من الوجهتين وجهة تاريخ رحلة العبدري وإمارة صلاح الدين ووجهة موضوع القصيدة وغرضها . ومثل هذا الغلط نادر غريب من

(1) دائرة المعارف الإسلامية **Encyclopédie de l'Islam** ج 1 ص ص 69 — 70 .

(2) ص ص 86 — 88 .

(3) ج 1 ص ص 98 — 99 Encyc'opédie de l'Islame (2e édit'on

المرحوم ابن ابي الشنب وكان يعرف مخطوطة الجزائر لرحلة العبدري . ويزداد الغلط غرابة منه ومن معيد فصله في الطبعة الثانية من دائرة المعارف الإسلامية بأنّ طبعة رحلة ابن جبير بتحقيق المستشرق رايت W.Wright وتنقيح المستشرق دي خوي M. J. de Goeje (4) وهي سابقة لطبعتي دائرة المعارف الإسلاميّة تحتوي على اقتباسات في ترجمة ابن جبير منها (5) فقرة من نفح الطيب تُنسب فيها هذه القصيدة الى ابن جبير . ومنها (6) فقرة من رحلة العبدري (7) تضمّ القصيدة بأكملها . فلم يخف إذن على ناشري رحلة ابن جبير أن القصيدة له لا للعبدري .

أمّا ناشر « الرحلة المغربيّة » الأستاذ ابن جدّو فإنه لم يتعرّض الى المشكل لأنه في الحقيقة لم يتعرّض الى العبدري ورحلته بالدراسة العلميّة . فاقتصر على مقدّمة واهية تترك مشاكل جوهريّة في هذا الباب ثم نشر النصّ نشرة رديئة كثيرة الغلط والإهمال المطبعيين وغير المطبعيين . أمّا تعاليقه فيكاد لا يزيد فيها على ذكر اختلاف النسخ الثلاث التي اعتمدها من بين النسخ العديدة للرحلة وقد ذكر أسباب تعذّر اطلاعه عليها .

فمن بين المشاكل التي تثيرها « الرحلة المغربيّة » (8) مشكلة الظروف التي أحاطت بها وبتأليفها . فمن هو ممدوح القصيدة التي صدّر بها العبدري رحلته (ص ص 2 — 5) واسمه يوسف ؟ أهو سلطان بني مرين آنذاك أبو

(4) ط. لايدن ولندن 1907 .

(5) رحلة ابن جبير . الطبعة المذكورة ص 12 .

(6) المرجع ذاته ص ص 27 — 31 .

(7) توافق ما جاء في « الرحلة المغربية » من ص 85 الى ص 88 .

(8) وقبل كل شيء ما هو وجه تسميتها «بالرحلة المغربية» ومن الذي أطلق عليها هذا الاسم ؟ وقد استعمله ابن ابي الشنب في الفصل المذكور من دائرة المعارف الإسلامية. ويزعم الناشر (ص ج من المقدمة) ان للرحلة اسما ثانيا هو : « ما سما إليه الناظر المطرق في خير الرحلة الى بلاد المشرق » . والعبارة في نص العبدري (الصحيفة الأولى من نص الرحلة بغير رقم) لا تفيد أنه أرادها اسما ثانيا لرحلته . ولو كان ذلك لزاد أمر التسمية إشكالا فتصير الرحلة « مشرقية » و « مغربية » !

يعقوب يوسف ؟ وهل من صلة بينه وبين هذه الرحلة ؟ وما هـي ؟ ولماذا تعذّر على العبدري إظهـار الرحلة بتلمسان فأظهـرها بعد خروجـه منها كمـا قال (ص 5) ؟ لهذا كلّه مجال لبحث قد يهمّ المؤرّخين خاصّة بالرجوع إلى تاريـخ دول المغرب إذّاك وعلاقة بعضها ببعض وعلاقتها بدول المشرق ولا سيّما إذا تدبّرنا حكم العبدري القاسـي على أحوال بعض تلك الدول ومصر على الخصوص . فهل كانت للعبدري مأموريّة يا ترى ؟ وهذا يجرّنا الى مشـكلة أخرى تثيرها هذه الرحلة وهـي مشـكلة غرضها ومقصدها وحدودها . ونعني بذلك اسئلة لا بدّ من أن تخامر قارىء هذه الرحلة وهـي : لماذا سافر العبدري كرحّالة بقطع النظر عن إمكانيّة مأموريّة سياسيّة ليس من شأننـا الخوض فيها هنا ؟ ألطلب العلم فقط ؟ أم لأداء فريضة الحجّ ؟ أم للغرضيـن معـا ؟ وما هـي أقصى مرحلة في سفرته هذه ؟ أي بعبارة واضحة هل أدّى العبدري فريضة الحجّ أم لا اي هل وصل الى البلد الحرام أم لا ؟ وبعبارة أوضح — وهو في الحقيقة السؤال الذي يهمّنا وكان على الناشر أن يهتمّ به ولم يفعل — هل أنّ نصّ الرحلة المطبوع كامل أم لا ؟

ذلك انّ وصف سفر العبدري عند الذهاب ينتهـي بالإسكندريّة حيث يذكر لنا قصيدة ابن جبير (9) وإثر الحديث عن هذه القصيدة يبتدىء وصف الرجوع نحو المغرب (10) . فلا حديث على الحجّ ولا على السفر الى البلـد الحرام . غير أنّ نصّ بداية هذا الرجوع من الإسكندريّة نحو المغرب عبارته تدلّ على شـيء سبقه لا ندري ما هو ولعلّه وصف الرحلة من الإسكندرية الى الحجّ والرجوع منه الى الإسكندريّة . يقول العبدري بعد وصف الإسكندريّة وذكر قصيدة ابن جبير : « فسافرت وما وصلت الى الإسكندرية حتى ثابت الـيّ قوّتي وعادت الـيّ صحّتي . وكان سفرنا منها على غير الطريق الأوّل إذ

(9) ينتهـي أمر القصيدة آخر ص 88 .
(10) من بدايـة ص 89 .

كان الماء قد نضب على الريف فسافرنا على طريقه . والعمارة عليه متّصلة مدنا وقرى إلى الإسكندريّة » ثم يقول بعد أسطر وقد ذكر دمياط : « وهو على البحر الروميّ ولم أدخلها لأنها رائغة إلى اليمين كثيرا عن طريق مصر [يعني القاهرة] الى الإسكندريّة... » حتى يقول عن قرية سنديين : « ومن مصر[اي القاهرة] الى هذه القرية مرحلة . ثم وصلنا الى مدينة الإسكندريّة» (11) .

فهذا النصّ يفيد ان العبدري سافر الى الإسكندريّة من موضع كان فيه لا بدّ أنه كان ذكره من قبل وهو بلا شك القاهرة . ويفيد أنه كان حدّث عن اعتلال أصابه وأنه كان قد سلك طريقا أوّل وأنّ الريف كان قد فاضت المياه به . ولا شيء من ذلك كلّه جاء ذكره في ما سبق هذا النصّ .

فليس من شكّ إذن أنّ قسما من الرحلة سقط من النصّ الذي هو بين يدينا . وأنّ هذا القسم طويل نسبيّا لأنه يضمّ السفر من الإسكندريّة الى البلد الحرام ومنه الى الإسكندريّة . فالذي لا ريب فيه أنّ العبدري قد حجّ لأنّه عند إقامته الثانية بتونس في طريق العودة يذكر كتابا يقول عنه : « وقد تقدّم أنّي أدركت بمكّة شرّفها الله من يروي هذا الكتاب عن مؤلّفه ولم يقض لي الأخذ عنه » (12) . ولكن نص الرحلة المنشور لم يأت فيه هذا الخبر الذي صرّح العبدري أنه أورده بها وهو الدليل القاطع على وجود نقص بنصّ الرحلة وأن هذا النقص يخصّ مرحلة مكّة حسب تصريح العبدري فهو إذن يشمل القسم الذي يبتدىء بالإسكندريّة عند الذهاب وينتهي الى الإسكندرية عند الرجوع بعد الحج الى بيت الله الحرام .

والغريب انّ واحدا من بين من اعتنى برحلة العبدري لم يتعرّض — فيما نعلم — الى هذا المشكل الأساسي رغم كثرة اعتماد الباحثين عليها .

(11) جميع هذه الفقرات بالصفحة 89 .

(12) ص 98 .

وأغرب منه أنّ ناشرها لم يتعرّض اليه وكأنّه لم يتفطّن الى وجود نقص بالنصّ الذي نشره .

فلا مناص بعد هذا من الرجوع الى جميع المخطوطات الموجودة لرحلة العبدري (13) ومن إعادة نشرها بالاستناد الى جميعها .

والحقّ أنّ إعادة نشر الرحلة تقتضيها أسباب أخرى . ذلك أنّ طبعة الجزائر لا تتّصف بصفات النشر العلميّ .

فلقد أشرنا إلى ضعف المقدّمة وخلوّها من دراسة محكمة للمؤلّف ولرحلته وذكرنا فقر التعاليق على النصّ وكثرة الأغلاط الرّاجعة الى التحقيق والى الطبع . ولكنّ عيوبا أخرى تجعل هذه الطبعة قليلة الفائدة كثيرة الخطر في استعمالها — وذلك على الطلبة خاصة — (14) .

فالأعلام المذكورون في الكتاب لم يقع التعريف بهم وقد سبق انّ في ذلك أكبر فائدة رحلة العبدري ولم يشكل الشعر على انّ الناشر التزم ذكر بحور الأبيات الواردة في الرحلة إلاّ أنّ ذلك أسفر عن أمر غريب وهو أن الأستاذ المحقّق قل ان يصيب في هذا المضمار : فجلّ ما سمّاه من البحور

(13) يشير اليها الناشر بلا ضبط في ص د من المقدمة . انظر ايضا Brockelmann ج 1 ص 482.

(14) نذكر بعض هذه العيوب على سبيل المثال : الورقة الأولى من نص الرحلة ليس بصفحتيها ترقيم . فالصحيفة التي تحمل رقم 1 هي في الحقيقة الصفحة الثالثة فيجد الباحث — وقد وجدنا نحن بعد — بعض العناء للإشارة الى ما جاء في النص قبل الترقيم ؛ تنتهي الرحلة في الصحيفة 137 وبعد صحيفة واحدة بيضاء تبتدىء الفهارس بصحيفة رقمها 155 (!) عوض 139 . فهل في النشر سقط أيضا أم ماذا ؟ في ص 19 س 6 : « العدا » لا « العيدا » وفي السطر الثاني قبل الأخير « وكان جارا » لا « وكان جار» ؛ في ص 35 البيت الثالث : « ظبيا » لا « ضبيا » ؛ في ص 77 البيت الأول : « ولم تر العين » لا : « ولم ترى العين » ؛ في ص 79 قافية البيت الثاني : « لم تبخسوا » لا « لم تبخس » . وغير هذا كثير في جل صفحات الكتاب مع خلل في الفهارس كاشتباه الأمر في الأسماء التي حذف منها « ابن » و « ابو » والتي لم يقع فيها هذا الحذف او أرقام لا توافق صفحات الكتاب ومن ذلك أنه لا ذكر لأبي عبد الله التوزري [وهو صاحب «المنفرجة» المعروف بابن النحوي] في ص 37 وقد نص عليها الفهرس وجاء ذكر السهروردي في ص 98 ولم يشر الى ذلك الفهرس . ومن غلط العبدري نفسه أن الشقراطسي المتوفى سنة 466/4 — 1073 ناظم القصيدة «الشقراطسية» الشهيرة في مدح النبي هو عبد الله لا أبوه يحيى المتوفى سنة 429/8 — 1037 كما ظن العبدري (ص ص 39 — 40) .

لأبيات الرحلة غالط . وقد بدأنا تتبّعه ظنّا منّا أنّه خطأ . فلمّا تبيّن من كثرته أنّه غير الخطإ أعرضنا عن متابعة إصلاحه لما قدّمنا من وجوب إعادة نشر هذه الرحلة (15) . ذلك أنّنا نعتقد أنها في بابها مرجع ووثيقة لمعرفة ناحية من الحياة العلميّة والدينيّة والاجتماعيّة أحيانا بشمال إفريقية في عصر إرشاداتنا عنه قليلة . ثم هي تجسّم ما بيّنّاه من تحوّل حاسم في فنّ الرحلة وأخيرا تعرّفنا بشخصيّة العبدري كرجل في شعوره وتحمّسه وتعبّده وكعالم في حرصه وإلحاحه ومثابرته وتثبّته وكمؤلّف أديب لغويّ يجدر الاعتناء به حتى ينزّل منزلته في تاريخ الأدب المغربي .

---

(15) نذكر بعض هذا الغلط مما وقفنا عليه في قسم من الرحلة فقط :
أبيات الصحيفة الأولى ومنها :
ما على شاعر هجاكم ملام   هل رآكم أحسنتم فأساء
أطلق عليها اسم « الوافر » وهي من بحر « الخفيف » .
ص 2 : بيت للمعري من بحر « الخفيف » أيضا لا من « الوافر » وهو :
ويقال الكرام قولا وما في الـ   أرض الا الشخوص والأسماء
ص 15 — 16 : أبيات أولها :
اشكر لربك وانتظر   في اثر عسر الأمر يسرا
بحرها مجزوء « الكامل » لا « الرجز » .
ص 27 : البيتان :
قالت لي النفس أتاك الردى   وأنت في بحر الخطايا مقيم...
من « السريع » لا « المتقارب » ؛ والبيتان بعدهما :
دنياك مهما اعتبرت فيها   كجيفة عرضة انتهاب
من مجزوء « البسيط » لا من « الكامل » .
ص 30 — 31 قصيدة أولها :
ألا قل للسري ابن السري   أبي البدر الجواد الأريحي
من « الوافر » لا « المديد » .
ص 45 : ما سلم البدر على حسنه   كلا ولا الظبي الذي يوصف...
البيتان من « السريع » لا « الرجز »
ص 64 : تأن في الإمر لا تكن عجلا   فمن تأنى أصاب أو كادا...
الأبيات من « المنسرح » لا « المتقارب » .
ص 78 — 79 : يا سرت لا سرت بك الأنفس   لسان مدحي فيكم أخرس
الأبيات من « السريع » لا « المتقارب » الخ...

العربيــة الفصحى
نحــو بناء لغــوى جــديد

تاليف : الاب هنــري فلــيش
تعريب : الدكتور عبد الصبور شاهين
نشر المطبعة الكاتوليكيــة . بيــروت
1966 . 230 ص .
تقديم : عبد القادر المهيري

لقد اصبحت دراسات الأب هنري فليش حول اللغة العربية وخصائصها شهيرة لدى من يستطيعون قراءتها باللغة الفرنسية وهي تسترعي الانتباه بما تنم عنه من مجهود يرمي الى اعادة وصف اللغة الفصحى وصفا يتماشى مع معطيات علم اللغة الحديث ويعين على تأويل الظواهر اللغوية بالرجوع الى اللغات السامية الأخرى من ناحية والى مقارنة هذه الظواهر بعضها ببعض من ناحية اخرى ، فالأب هنري فليش يدرس العربية على ضوء النظرية اللغوية الحديثة التي تولي العناية كلها لبنية الكلام بما فيه من اصوات وصيغ وتراكيب وقد تفطّن الى ان دراسة العربية حسب هذه النظرية تعين على فهم ظواهرها وتمكن من تفسير علاقة بعضها ببعض ؛ وعلى هذا الأساس نشر دراسات عديدة اهمها في نظرنا كتابان هما :

— L'arabe classique. Esquisse d'une Structure linguistique , (1)

— Traité de philologie arabe . (2)

---

(1) بيروت 1956

(2) بيروت : 1961 (لم يظهر منه الى حد الآن الا الجزء الاول) .

والكتاب الأول هو الذي قام بترجمته الدكتور عبد الصبّور شاهين ؛ وقد قسّمه المؤلف إلى بابين عامين درس فيهما الاصوات العربية والصرف العربي، وأقسام خمسة تناول فيها بالدرس ما سماه المترجم التحول الداخلي في الصياغة الاسمية ، والتحول الداخلي في الصياغة الفعلية ، وتكوين الصيغ بغير طريقة التحول الداخلي ، والادوات والطرق النحوية الاخرى التي تبنى منها النماذج الرئيسية في اللغة . وقد اشتملت الترجمة زيادة على هذه الأبواب مقدمة وضعها المعرب يشرح فيها الاسباب التي دعته الى ترجمة الكتاب والصعوبات التي لاقاها وترجمة للمؤلف كما احتوت على مجموعة من الفهارس المفيدة .

ولا شك ان ترجمة هذا الكتاب من شأنها ان يستبشر بها الإنسان نظرا الى شخصية المؤلف واهمّية التأليف الكبرى ؛ ولا شك كذلك ان القارىء يستعد ليقبل على قراءته مترجما بشغف ، وقد يزيد تعطشه الى ذلك مقدمة المعرّب بما تدلّ علية من ايمانه بجدوى ترجمة هذا النوع من الكتب وما تشير اليه من حلول توخاها ليذلل الصعوبات .

الا ان القاريء سرعان ما يخيب ظنّه لا لمادة الكتاب ولكن للغته ؛ وليست المصطلحات المستعملة هي التي تنفره فهو يتحملها وان اجهد نفسه لغضّ النظر عما فيها احيانا من سذاجة (3) ، بل هو اسلوب الترجمة بتعابيره وتراكيبه ، فالترجمة جاءت حرفية الى اقصى حدّ ، عوضت فيها كل كلمة فرنسية بأخرى تقابلها في معجم فرنسي عربي ، وتوخيت فيها بنية الجملة الفرنسية في جميع الحالات وقد كانت النتيجة لا ان فسدت التراكيب العربية في احيان كثيرة فحسب بل وكذلك ان اصبح النصّ في صيغته النهائية غامضا

(3) مثال ذلك الجمع الخارجي (ص 63) – الجمع الداخلي (ص 65) – الشخص الثالث (ص 129) الشخص الثاني – الشخص الاول (ص 130) – صيغ التكبير (ص 71) .

لا يفهمه القارىء الا اذا حاول ان يتصوّر ما يقابله في اللغة الفرنسية ، فماذا تكون فائدته اذن بالنسبة الى القارىء الذي لا يحسن هذه اللغة ؛ ولا يمكن ان نستعرض ما في النص المعرب من مواطن الضعف لكثرتها وانما نقتصر على الاشارة الى البعض منها في الهامش (4) ؛

ولا يسعنا الا ان نقول ان هذه الترجمة قد اضرّت بكتاب جليل في نظرنا لانها لا تعين على تقدير ما فيه من نظرة طريفة وآراء ثاقبة حق قدره ، فكتاب هنري فلايش ما زال ينتظر مترجما بارعا .

---

(4) هذه بعض الصيغ والتراكيب التي استرعت انتباهنا لما فيها من خلل .
وتمكن احدى صعوباتها... في حيث كانت قائمة على نموذج لغوي خاص (ص 31) .
لو قمنا باحصاءات اخرى في نصوص اكبر (ص 36) .
اما الاصوات الصامته فمن المدهش ان نجد اطرادا كبيرا في النطق بالاصوات الحلقية او الخفافية (ص 37) .
والاصل مكون من صوامت... تتصل بمجموعها فكرة عامة اقل او اكثر تحديدا (ص 52) .
ولنأخذ على ذلك امثلة من الكلمات (64) .
هذه الجموع ليست من الصعوبات الدقيقة في اللغة العربية (ص 66) .
ولا شك ان اعتبارات قديمة هي التي اثرت قليلا او كثيرا تاثيرا صامتا في اللغة (ص 71) .
وقد استطاع الاستعمال اللغوي ان يستخرج من ذلك عددا من الكلمات باحدى الطريقتين وبالاخرى (ص 81) .
منشورة بوساطة اهلوردت (ص 90) .
الصيغة المشتقة ابتداء من الفعل المجرد (ص 135) الخ...

دروس فى علـم الاصوات

تاليف : جـان كانتينـو
ترجمه : صالـح القـرمادي
نشر : مـركز الدراسات والبحـوث الاقتصادية والاجتماعية تـونس 1966
221 ص .
تقديم : عبد القادر المهيري

قام مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية التابع للجامعة التونسية بنشر ترجمة اعدها الاستاذ صالح القرمادي لكتاب جان كانتينو (Jean Cantineau) الذي عنوانه : دروس في علم الاصوات العربية (Cours de phonétique arabe) . وقد اعد المترجم عمله وهو يضطلع بمهمّة تدريس علم الاصوات في نطاق القسم العربي من كلية الآداب ؛ وقد رأى — مصيبا — ان ترجمة هذا الكتاب تقدّم للباحثين اداة عصرية لدراسة الاصوات العربية خاصّة ان ج. كانتينو ممن كان لهم اطلاع واسع على علوم اللغة الحديثة وعلم وظائف الاصوات ، ومعلوم انه هو الذي ترجم الى الفرنسية كتاب تروباتزكوي (Troubetzkoy) (1) المعتبر عمدة في هذا الميدان .

(1) Principes de phonologie - Paris 1957

ولا يخفى ان دراسة العربية دراسة صوتية وصرفية ونحوية لم تتجاوز بعد حدود ما وضعه قدماء النحاة واللغويين من مبادىء وقواعد ؛ ولا شك في ان اصحاب هذه اللغة يغنمون كبير الغنم من نظرة الاجانب الى لغتهم ويتمكنون من الشعور بان ما الفوه من القواعد يمكن ان يعاد فيه النظر .

ولقد التزم المؤلف في كتابه دراسة اصوات العربية معطيات علم الاصوات العام بدون ان يهمل ما سجله النحاة القدماء من ملاحظات وما ابدوه من آراء ، فوصف في بداية دراسته الجهاز الصوتي ثم « نظام الحروف » « فنظام الحركات » « فالمقطع » و « النبرة » و « الايقاع » وختم كتابه بقائمة من المراجع العربية والاروبية التي لها صلة بالموضوع ، واضاف المترجم قائمة من المصطلحات التي توخاها في ترجمته .

وقد اشار المترجم الى الصعوبات التي لاقاها اثناء عمله وهي ترجع في نظره الى قلّة « الالفاظ الاصطلاحية العربية » والى قصور الخط العربي عن تصوير جميع الحركات ؛ وحاول التغلب على النوع الاول من العقبات باستعمال المراجع القديمة من ناحية وبـ « طريقة التوليد » من ناحية اخرى ؛ اما النوع الثاني من الصعوبات فلم يتمكن من تذليله الا بالالتجاء « على مضض » الى « الخط اللاتيني » و « الرموز الصوتية المتفق عليها في الابجدية الصوتية العالمية » .

ويمكن ان نضيف الى ما ذكر صعوبة ثالثة تتمثل في ضرورة تكييف لغة البحوث النحوية والعربية القديمة تكييفا يجعلها تتماشى مع تفكير حديث همّه ضبط المفاهيم وحصرها في الفاظ دقيقة وقوالب خالية من كل التباس .

وقد كانت ترجمة الاستاذ القرمادي تنم عما لاقاه من صعوبات وتشعر بما قام امامه من مشاكل ، وتوحي احيانا باضراره الى توخي حلول لعلها لم تكن لترضيه تمام الرضى ؛ ومن شأن كل هذا ان يدلّ على حزم المترجم ورفضه الانهزام امام عقبات الترجمة .

ولايخفى ان مطالعة كتاب في علم الاصوات ليس من الامور الهيّنـة الشيّقة لما تقتضيه من القارىء في كل حين وآوانـة من ان بتوقف ليتثبت من الاوصاف التي يسندها المؤلف الى الحروف وليراقب مدى مطابقة الامثلة للموضوع وليتصور طرق النطق المختلفة التي تنسب الى حرف من الحروف؛ ويزداد عناء القارىء من جراء استعمال لغة لم تكتسب بعد المرونة الكافية للتعبير عن مفاهيم ما زالت اجنبية عنها .

وقد اوحت لنا ترجمة الاستاذ القرمادي ببعض ملاحظات نقدمهـا له عساها تعينه في طبعة قادمة على « تحسين » بعض مظاهر هذا الكتاب الذي نريد ان تنتشر ما فيه من معلومات وان يألفها الناس ويُغـذوا بها ثقافتهم اللغويـة .

فأول ملاحظة تتعلـق بما استعان به المترجم من مراجع انحصرت في كتاب سيبويه وشرح المفصل لابن يعيش ؛ ويبدو لنا ان كتاب سر صناعة الاعراب لابن جني مرجع آخر هام في هذا المضمار ، فرغم انه لم ينشر الى حـد الآن منه الا جزء واحـد فان هذا الجزء يمكن ان يعتبر متضمنـا لـكـل المصطلحات التي استعملها المؤلف ، خاصة أنّه افرد بابا للعموميات الصوتيـة جمع فيه شتات ما يأتي عادة متفرقـا من الملاحظـات العامّة وغضّ النظر فيه عما يشغل بال النحاة عادة في هذا الموضوع من ادغام وقلب وحذف .

ومن ناحيـة اخرى فاذا اعتبرنـا ان عمل الاستاذ القرمادي من شأنه ان يوطّن مصطلحات جديدة في اللغة العربية فانه يحسن ان يعلل المترجـم احيانا ترجمته ، فالقارىء يودّ ان يعرف الاسباب الداعية الى ترجمة مفاهيم حديثة في العربية بالفاظ قديمة اطلقت على مفاهيـم خاصّة كما هو الشأن في ترجمة كلمة consonne بحرف (2) وكلمة voyelle بحرف (3) ، كما يريد ان يعرف

(2) ص 209 ..
(3) ص 216 .

لماذا اجتنب المترجم احيانا الفاظا استعملهـا القدماء كـكلمة متفشيـة والتجأ الى عبارة جديـدة « مشأشـأة » (4) ؛ وقد يلتبس الامر على القارىء عندمـا يجد الفاظا ألفها بمعنى خاص مستعملة في معان قد لاتبرز فيها بوضوح تام وهذا ما حدث للفظـة « قلب » (5) التي ترجمت بها الـكلمة الفرنسيـة « métathése » بينما استعملت قديما في نطاق الاعلال .

ولعله يحسن ايضا ان يضبط المترجم المبادىء التي اعتمدها في « توليد » الفاظ او تراكيب جديدة وخاصّة في استعمال المركبات. فقد بدا لنا انه يفضل في الحديث عن مخارج الحروف الصفة على الجار والمجرور او الاضافة فقد فضل مثلا ان يسمي الحروف التي من ادنى الحنك او اقصاه « الحروف الادنى حنـكية » و« الحروف الاقصى حنـكية » (6) ؛ ولـكنه بجانب هذا يستعمل عبارة « الحروف التي بين الاسنان » او « احرف من بين الاسنان » (7) ، افليس من الاحسن التزام طريقة واحدة وحل كل المشاكل حسب منهج واحد ؟

وفي هذا الصدد ايضا يبدو انه من الضروري ازاء الميل الى استعمـال الصيـغ المركبة ان تضبط قواعد المطابقة ضبطا يمكن القارىء من فهم المبادىء الملتزمة ، فقد لاحظنا ان علامة المطابقة تظهر احيانا في الجزء الثاني من الصيغة المركبة كما هو الشأن مثـلا في « حرفـان ادنى حلقيـان » او « احـرف ادنـى حنـكية » (8) ، وانها احيانا اخرى تظهر في جزئـي الصيغة المركبة ومثال ذلك « نصفا حركتين » او « نصفي حركتين » (9) .

---

(4) ص 28 .

(5) ص 26 .

(6) ص 23 ؛ كذلك الحروف « الادنى حلقية » و « الحروف الاقصى حلقيـة » .

(7) ص 22 و 31 .

(8) ص 31 .

(9) ص 33 و 137 .

ثم انه ينبغـي ازالة الالتباس الناشـيء عن ترجمة مصطلحات مختلفة بنفس العبارات احيانـا او بعبـارات متقـاربة فمـن المـلاحظ مثـلا ان لفظـة « fricative » ترجمت بعبارة « بين الشدة والرخاوة » وان لفظة « affriqué » ترجمت بـ « شديدة رخوة » (10) .

واخيرا يبدو لنا ان الاسلوب لا يخلو احيانا من خصائص الاسلوب الشفوي ويلوح ذلك خاصّة في طرق الربط بين الجمل او العبارات فقد توضع العبارة بين قوسين بينما يمكن تعويضها بجملة حالية اعتراضية (11) وقد يتخلى عن الربط بواو العطف في مواطن لا يمكن فيها ذلك (12) وقد يُعبر عن بعض المعاني بالفاظ وتـراكيب لا يقـرّها الاستعمال ومثـال ذلك استعمـال كلمـة « ترتيب » (13) عوض « تبويب » او « تصنيف » او « وضع » او استعمـال عبارة « اعلى درجات الحدة » (14) عوض اقصى الحدّة (15) .

واننا نعتقد انه يمكن تلافي هذا الخلل بسهولة ، على ان كل ذلك لا يغض في نظرنا من المجهود الذي بذله الاستاذ القرمادي ولا يمنع عمله من ان يكون مساهمة في « اثراء المعلومات الصوتية عند الناطقين بالضاد » وفي ترويض العربية على ان تتسع لميدان جديد من ميادين المعرفة .

---

(10) ص 24 .

(11) مثال : وذلك بان اضمحلت الباء المفخمة (المشكوك في وجودها في الحقيقة) ص 44 ؛ انظر ايضا ص 42 .

(12) مثال : ان المرحلة الخاصة بالعربية الفصحى في تاريخ تطور نظام الحروف العربية مرحلة لا تنظيم فيها ، مرحلة تفتت وتلاش (ص 40) .

(13) ص 50 .

(14) ص 34 .

(15) نضيف الى ما تقدم بعض الاستعمالات التي تلوح لنا غير صحيحة كصيغة « انزاد » (ص 42) وهذا التركيب : « ليس نعرف » (ص 7) .

الخلافـات في الاســلام

LES SCHISMES DANS L'ISLAM

تمهيد لدراسة الـدين الاسلامي

تاليف : هنري لاووست Par Henri LAOUST
ط. بايو Payot باريس
سنة 1965. 22،5 × 14 XII ـ 466 ص.
(المكتبة التاريخية).
تقديم : المنصف الشنوفي

ذاع صيتُ هنري لاووست Henri LAOUST ، أستاذ التّفكير الإسلامي بالكوليج دي فرانس COLLÈGE de FRANCE منذ أن أخرج للنّاس أبحاثه عن الشّيخ تقي الدّين أحمد بن تيميّة خاصّة (حوالي سنة 1939) وعن مذهب الإمام أحمد بن تيميّة وأتباعه عامّة . واتّسمت أبحاثه ، إلى جانب اعتمادها على منهج مركّز على « النّقد التّاريخي » ، بروح علميّة نزيهة لا تخلو من التحمّس لموضوع الدّراسة دون تورّط في التحيّز أو ارتطام في الطّائفيّة ، ممّا جعل هذا النّجم اللاّمع في الاستشراق الفرنسي يعمد إلى معالجة الإسلام « من الدّاخل » على حدّ تعبيره (1) ، سابرا أعمق أعماقه ومؤمنا أن لا سبيل

(1) الخلافات ... Les Schismes ، ص 6 (مقدمة)

لفهم الحضارة الإسلاميّة في جميع مظاهرها الثقافية والسّياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة ما لم نرجع إلى الأصل الأصيل والمهيّج الأوّل وهو الدّين . فهو ، في نظره ، البداية والنهاية والسبب والغاية .

وكتابه هذا عن الخلافات في الإسلام استعراض وتحليل لتاريخ المذاهب والفرق الإسلامية منذ وفاة الرّسول (صلعم) إلى أواسط القرن العشرين ، صدر فيه عن الحديث المأثور الذي افتتح به عبد القاهر البغدادي « الفَرق بين الفِرق » او الشّهرستاني « المِلل والنِحل » وهو : « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة وتفرّقت النّصارى على إثنتين وسبعين فرقة وتفترق أمّتي على ثلاث وسبعين فرقة » فهو إنْ وقفتَ عند ظاهره استمرار ومواصلة لمجهود هذين العَلَميْن البغدادي والشّهرستاني وفضل المؤلف في هذا لا ينكر . ولكنّ الكتاب يفضل غيره من الكتب التي تصنّف هذه الايّام في هذا الموضوع من قِبَل مستشرقين وعرب بخصال أردنا التنويه بها والاشارة اليها .

فأنجع السّبل لِكُنْه الاسلام هي دراسته لا من زاوية مذهب أو فرقة – متغلبيْن كانا أم لا – بل دراسة خلافاته وتنوعه عبر التّاريخ وإن بقي في حقيقته واحدا مُوحّدا . لذلك ضرب المؤلّف صفحا عن هذا التّقسيم السّطحيّ وهو دراسة كلّ فرقة على حدة (أهل السّنّة ، الخوارج ، المعتزلة ، الشّيعة ، المعتزلة ، الصوفية الخ...) بل عمد إلى تتبع التدرّج التّأريخي ملحّا عَلَى التّكافل بين بعضها بعض في صدورها عن منهل واحد : الإسلام . والمطالع للكتاب يلمس إلحاح المؤلّف على هذا القصد وهو أنّ التكافل والتكامل والتماسك أخصّ خصائص الفِرَق الإسلامية فيما نشب بينها من خلاف وأنّ الاسلام بالتالي نظام دنيوي روحي في آن واحد ، ممّا جعل هذا التّصنيف عن الخلافات في الإسلام لم يقع فيما وقع فيه أغلب المستشرقين المنكبّين على دراسة الإسلام وهو جنوح إلى الفصل بين ما هو من اختصاص المؤرخ كدراسة

الأحداث السّياسية والاقتصاديّة والاجتماعيّة وبين ما هو من اختصاص الفيْلسوف ومؤرخ الآداب كدراسة العقائد والأنظمة .

كذلك حرص المؤلّف في كتابه على أنْ يتجاوز هذا الرّأي المُتداول بين المستشرقين عموما وهو ان الإسلام ازْدهر تراثه العقائدي في عهد الامويين وأوّل عهد العبّاسيين ، تحت تأثير الهيلينيّة ثم تبع ذلك ، منذ أن تغلب أهل السنّة والجماعة في عهد المتوكّل ، ركود وجمود وانحطاط إلى ان كانت حملة بونابرت على مصر فكانت النّهضة الفكريّة وكان الإصلاح الدّيني مع الزعم أنّ الفضل كلّ الفضل في ذلك للغرب . وتلافيا لهذه التّجزئة الخاطئة ، اهتمّ المؤلّف اهتماما خاصّا مثلا بعهد المماليك (656 — 1258/923 — 1517) وبالعهد العثماني وما اتّصل به من حركات الى يومنا هذا ، ممّا جعله يفرد لذلك قسما هامّا من الكتاب (2) .

ونتيجة لهذه النّظرة الشاملة للاختلاف والتعدُد في الإسلام كانت خاتمة الكتاب (3) إحصاء لمواطن الاختلاف والاتفاق في مسائل الإسلام الجوهريّة كالأصول والتوحيد والنبوّة والصّحابة والخلافة والإمامة والتّكفير، مع إقرار المؤلّف ، رغم عطفه الظاهر على مذهب الإمام أحمد ابن حنبل ، « أنّ اهل السنّة والجماعة لم يوفقوا إلى تحقيق جمع الأمّة رغم حرصهم على ذلك » (4) .

ولن يفوتنا في الختام إبراز هدف المؤلّف من كتابه في الخلافات في الإسلام وهي « الضرورة الأكيدة في عصر تكافل مطرّد ان تتوطّد علائق التّفاهم والتّآخي بين الدّيانات الكبرى والأسر الرّوحية التي تتركّب منها » (5)، معتبرا أنّ الإسلام لمّا تنته رسالته ولا سبيلَ أنجع لتدبّر امره من الانكباب

(2) نفس المصدر ، ص : 251 — 370
(3) نفس المصدر ، ص : 383 — 461
(4) نفس المصدر ، ص : 458
(5) نفس المصدر ، ص : 5 (مقدمة)

على دراسة تنوّعه واختلافاته ، رغم وحدته الجوهريّة . دراسة استقصاء وتثبت . ويختم المؤلّف بهذه الدّعوة : « فالاسلام مدفوع الى (حوار) ليس فقط مع الواقع الجديد وما ينجم عنه من ملابسات ولكن ايضا وبالخصوص مع العقائد والملل التي تكتنفه من كلّ جانب ، فبقدر ما هو محتاج الى تقنيين ومهندسين ، بقدر ما هو محتاج أيضا ، ان اراد ان يبقى قوّة روحية لها وزنها في مستقبل الحضارة ، إلى مفكّرين أصوليين ومؤرخين » (6) .

وهذا ما حدا المؤلّف على ان يحرص في كلّ صفحة من صفحات كتابه تقريبا على ان يحيل الى المراجع والمصادر متوجّها على وجه الخصوص إلى « المؤرخين » والى الباحثين النّاشئين مستنهضا الهمم للقيام بدراسات جامعية هي فراغ ينبغي المبادرة بسدّه ، **وقد افردنا لذلك ذيلا يلي هذا** .

ولئن ورد الكتاب مبتورا تنقصه فهارس الاسماء وفهارس المصطلحات (وهو نقص ينبغي تلافيه في طبعة قادمة) فهو خير تمهيد ، كما اردف مؤلّفه عنوانه ، لدراسة الدّين الإسلامي وجدير إذن بأن يكون للطالب المتطلّع غُنية ، وللباحث المتزيّد بُغية .

---

(6) نفس المصدر : ص 460

ذيل به قائمة دراسات تترقب همم الباحثين

1) خلافة الصحابة والخلافات في عهدهم : (11 — 652/60 — 680) .

1 — ص 6 — أبو ذرّ الغفاري أوحى بأدب جمّ عن « الاشتراكية في الاسلام» يكون من المفيد احصاؤه وتحليله . فسياسة الفتوحات نمّت عند جمع من المسلمين التكالب على الدّنيا والتهافت على خيراتها ممّا اثار خصومة بين صحابييْن جليلين عبد الرحمان بن عوف أحد المبشرين بالجنة ومن الذين اثروا من جراء الفتوحات وابي ذرّ الغفاري المتزهد .

2 — ص 12 — التحكيم في صفّين : لم يقل القول الفصل في الظروف التي اكتنفت التحكيم بين علي ومعاوية ولا في مكان المداولات ولا في عددها ولا حتى في تاريخها .

3 — ص 14 — الخوارج والارهاب : الا يكون من المفيد التساؤل عن اصل ثورة الخوارج ؟ الم تكن في الحقيقة انشقاق فئة من المؤمنين عن بقيّة الامّة رغبة صادقة منها في ان تعيش حسبما امر به الله ولم تكن قط خروجا بالسيف على علي ! فيكون بذلك الارهاب نتيجة لواقعة النّهروان لا سببا لها ؟

4 — ص 15 — عبد الله بن سبأ : مؤسس اول فرقة شيعية غالية : لم يحدّد دوره على وجه التدقيق .

5 — ص 19 — 22 شخصية معاوية : استجلاء الحقيقة من مواقف الشيعة واهل السنة منه .

2) استفحال الخلاف في عهد الامويين (60 — 680/132 — 750) .

1 — ص 25 — مأساة كربلاء : تحديد مسؤولية الجريمة وتعيين مقترفيها من خلال جدال الشيعة واهل السنة .

2 ــ ص 29 ــ 30 : محمد بن الحنفية ونشأة فرقة المرجئة وتحديد علائقه بالمختار زعيم ثورة الموالي من الشيعة ، بعد مأساة كربلاء وتحديد ما نتج عن ذلك من نشأة الـكيسانية .

3 ــ ص 35 ــ الزيديــة : تحديد علائقها مع الإمامية والغلاة مع الاشارة إلى انقسام الشيعة وعجزها عن الانفراد بالحـكم والسلطان .

4 ــ ص 36 ــ 38 اختلافـات الخوارج .

ثورة شبيب وتحديد ظروفها .

أولى الثورات بالمغرب العربـي وضبـط تواريخها . عقيـدة الخوارج جديرة بتحليل مركّز .

5 ــ ص 48 ــ 52 القدريـة : معبد الجُهني وغيلان الدّمشقي في حاجة إلى مزيد تحديـــد .

المعتـزلـة : من الثابت ان واصل بن عطاء (م 750/133) مؤسس المعتزلة كوّن له عصبة من الدّعاة انتشرت في جميـع العـالم الاسلامي وعلى الخصوص بالمغرب العربـي . تحديد دور هذه الدّعـوة .

3) تمكّن الخلافة العبّاسيّة ومذهب اهل السنّة والجماعة في اوائل عهده : (132 ــ 750/198 ــ 813) .

1 ــ ص 71 ــ الخـوارج : الاباضية في عهد المنصور العباسي وتأسيسها دولة بافريقيـة ، والصفويـة ودولتهـا بسجلماسة بجنـوب المغرب الاقصـى .

2 ــ ص 75 ــ مناهضة الزّندقة في عهد العبّاسيين : تحديد مفهومها في انّها تصادم مع الشريعة : تحديد التواريخ التي اتخذت فيها اجراءات ضدّ الزنادقة .

3 ــ ص 75 ــ تأسيس امارة الادارسة الزيدية بالمغرب الاقصى : تحديد ظروف دعوة ادريس بن عبد الله وتاريخها : فهي ، على عكس ما يظنّ ، سبقت تأسيس الامارة سنة 169 هـ. وابتدأت منذ 145 هـ. مع ثورة محمد النفس الزكيّة .

5 ــ ص 84 ــ اهل السنة والجماعة : لئن كان اهل السنة والجماعة مخالفين لاهل البدع ولئن كان مذهبهم قبولا للقرآن والسنة والاجماع فهو لم يخل من خلاف لا محالة فهناك مدرسة الحديث ومدرسة الرأي ولا بدّ لمعرفة عقيدة اهل السنّة على وجه التدقيق ان يتوجه الباحثون إلى دراسة التاريخ الدّيني للرّاشدين والامويين.

6 ــ ص 87 ــ عبد الله بن مبارك (م. 797/181) من اشهر فقهاء خراسان كان عدو مدرسة الرّأي الحنفية : كان محدثا وصوفيا ومنافحا عن الاسلام والخلافة وكان له جليل التأثير على احمد بن حنبل . جدير بان يكون موضوع دراسة جامعية .

7 ــ ص 91 ــ الشافعي : رسالته في اصول الفقه جديرة بالدّرس : فهي تحدّد بوضوح دور القرآن والسنة والاجماع والقياس ويدل مبنى هذه الرسالة واسلوبها على تأصّل سنّة فقهية يكون من المفيد تحديد اصولها الغامضة وتطوّرها .

كتاب الأمّ : كتاب فقه للشافعي جدير بعناية الباحثين ، يرمي فيه صاحبه ، من جملة ما يرمي اليه ، الى الحدّ من جبروت الرعاة والسلطان .

4) الخلافة المعتزليّة وردّ الفعل السنّي : (138 — 813/247 — 861) .

1 — ص 101 — تحديد مراحل المعتزلة ، ممّا جعلها تصبح اهمّ مدرسة اصولية وفرقة دينية في عهد المأمون وان كان للهيلينية عن طريق الترجمة دور خطير في نشأة الاعتزال كما ان دور الموالي الاعاجم لا يقل خطورة اذ ان اكثر الاصوليين كان من بينهم وقد خدموا العروبة والاسلام اجلّ خدمة كأبي الهذيل والنظّام .

2 — ص 108 — تاريخ المحنة في عهد المعتزلة ما زال مجهولا في داخل العراق اكثر منه في بغداد .

5) أزمة الخلافة : (247 — 861/334 — 945) .

1 — ص 123 — كتاب السّنن لابي داوود السجستاني (م. 889/275) جدير بعناية الباحثين وقد كان الغزالي يعتبره كافيا لمن اراد من اهل الاجتهاد معرفة الحديث .

2 — ص 131 — ابو منصور الماتردى (م. 945/334) من سمرقند : كان حنفيّا كتابه : كتاب التوحيد جدير بالدّراسة . كان من بين مناهضي الاشعريّة .

3 — ص 140 — الاسماعيلية : القرامطة والفاطميون : تحديد ظروف نشأة هاتين الفرقتين المتنافستين في خلافة المعتمد وفي السنوات الاخيرة من ثورة الزّنج .

ص 145 — لا شكّ انّه تبع مجهود القرامطة والفاطميين العسكري والسياسي مجهود عقائدي لا يزال مجهولا .

ص 146 — القاضي النعمان (م. 974/363) : تحديد المراحل التي مرّ بها المجهود العقائدي عند الاسماعيلية ممّا مهّد لآثار القاضي النّعمان ان تكون على هذه الدّرجة من الاصالة والتّمحيص .

4 — ص 147 — الإمامية : فرقة النُصيريّة بالشام قالت بالحلول والغلوّ . جديرة بالدّرس .

ص 148 — ادب الامامية العقائدي جدير بالدرس ، بالاعتماد على الفضل بن شاذان (م. 874/280) واليعقوبي (م. 894/284) .

6) تغلّب الشيعة واوّل عهد رجوع النفوذ للسنّة :(334—945/455—1063).

1 — ص 177 — مدرسة ابي الحسن الاشعري وتغلّبها في عهد البويهيين : تحديد ظروف نشأتها : لا نعلم بالضبط دور تلميذين للاشعري أبي عبد الله بن مجاهد البصري وابي الحسن الباهلي وهو استاذ الباقلاّني وابن فورك وابي الاسفرائني ، وهم من ابرز الاشاعرة .

ثم ان الاشعرية نشأت في تآخ مع الصوفية : فبندار (م. 964/353) وهو من تلاميذ الاشعري تمذهب بمذهب الصوفي الشبلي ببغداد (وكذلك شان ابن خفيف الشيرازي (م. 982/371) فلقد كان خِلاّ للحلاّج .

2 — ص 180 — ابن حزم (م. 1065/456) : المحلّى ، مصنّف في الفقه ، جليل القدر ، جدير بعناية خاصّة .

3 — ص 182 — الشيخ المفيد (م. 1023/413) صاحب كتاب الارشاد (حيث يروي تاريخ الايمة الاثني عشر) وكتاب المقالات (حيث يدرس عقيدة الامامية) : جدير بالدّرس .

4 ـ ص 184 ـ القاضي عبد الجبّار (م. 1025/415) كان من المع المعتزلة في عهد البويهيين : اتصل بابن عبّاد والّف ، بطلب منه ، كتاب المغني ، وهو كتاب في حاجة الى مزيد من الدّرس .

7) رجوع النفوذ لاهل السنّة : (455 ـ 1063/575 ـ 1180) .

1 ـ ص 201 ـ تزهّد الغزالي وتركه للتعليم مدّة ، لئن فسّره الغزالي نفسه بازمة نفسيّة لا نشك في صدقها ، فهو ايضا خوف من التورط السياسي عند تغلّب بركياروق سنة 1095/488 على الوزير نظام الملك ، صديق الغزالي .

كذلك تأثير الغزالي فيمن بعده لم يحظ بالعناية الكافية .

2 ـ ص 214 ـ تحديد ظروف نشأة دولة المرابطين بالمغرب العربيّ : تحديد حركة عبد الله بن ياسين الصنّهاجي واغراض دعوته الى مالكية ضيّقة الحدود ، لا ترى حرجا في تآخ مع الصوفيّة .

8) القرن الأخير للخلافة : (575 ـ 1180/656 ـ 1258) .

1 ـ ص 227 ـ لقد رافق القرن الاخير للخلافة عهد الايّوبيّين وسياسة هؤلاء الدّينيّة جديرة بمزيد العناية من قبل الباحثين .

2 ـ ص 230 ـ سهروردي حلب (م. 1191/587) : ترجمته وظروف قتله بامر من صلاح الدين الايوبي في حاجة الى توضيح .

3 ـ ص 234 ـ ابن العديم (م. 1262/660) حنفي : كتابه : البغية ما زال مخطوطا ينبغي اظهاره للنّاس .

4 — ص 247 — آثار الشيخ محيي الدين بن عربي (م. 1240/638) وعلى الخصوص « فصوص الحكم » و « الفتوحات المكيّة » في حاجة الى مزيد الدّراسة والتحليل .

9) عهد المماليك واهل السنّة : (656 — 1258/923 — 1517) .

1 — ص 254 — علائق بيبرس بالفقهاء ورجال الدّين وسياسته الدّينيّة .

2 — ص 269 — الردّ على المنطقيين : كتاب لابن تيميّة طبع بحيدر آباد ردّ فيه مؤلفه على منطق ارسطو وعقيدة المهدي بن تومرت : ينبغي العناية به عناية خاصّة في نطاق دراسة شاملة لعلم الكلام في الاسلام .

3 — ص 276 — الاشعرية والماتريديّة لعبتا الى جانب الحنبليّة الجديدة التي تزعمها احمد بن تيميّة دورا خطيرا في عهد المماليك واول ظهور العثمانيين .

دراسة علم الكلام في هذه الفترة ، باعتبار تطوّره التاريخي .

4 — ص 278 — ابن خلدون : اصولي متكلم اشعري : له رسالتان في المنطق وعلم الكلام : دراسة عن ابن خلدون الاصولي المتكلم .

5 — ص 283 — الصوفيّة وتطوّرها في عهد المماليك جديرة بعناية الباحث اذ في عصرهم عرفت عصرها الذهبيّ (ابن عربيّ وسيطرة مدرسته الاتحاديّة) .

10) عهد العثمانيين : الشيعة وأهل السنة (923 — 1517/1160 — 1747) .

1 — ص 300 — نصير الدين الطوسي (م. 1242/672) من آخر المنافحين عن الامامية : خلّف آثارا في حاجة الى تحليل .

2 — ص 311 — مذهب السنّة مدّة العهد العثماني اي منذ فتح مصر الى ظهور الحركة الوهابية في حاجة الى دراسة مستفيضة : ينبغي ، ليعرف مدى تطوّره ، ان تستغلّ بصفة منهجيّة جميع التراجم ومصنفات المراجع التي وضعها اهل السنة للفقهاء وللصوفية وللاصوليين المنتمين الى مذهب معيّن او فرقة معيّنة .
كذلك فان سياسة العثمانيين الدّينية لم تستوف حظها من الدّرس وعلى الخصوص علائق السّلطان بالطرق الصوفيّة .
وكذلك تمكّن مدرسة ابي حنيفة منذ فتح مصر والشام .

3 — ص 314 — الشيخ عبد الغني النابلسيّ (م. 1713/1143) : حنفيّ ينتمي الى طريقتيْ القادريّة والنقشبندية : الى جانب كتبه في التفسير والحديث والكلام والفقه . له آثار جليلة القدر في التصوّف .

11) العصر الحديث : (ابتداء من 1747/1160) .

1 — ص 329 — في نطاق الوهابيّة تحديد علائق عبد العزيز بن سعود بمنظمة الاخوان وهم البدو الذين مكنهم الملك عبد العزيز من الاستقرار بمراكز فلاحية ابتداء من 1911 م.

2 — ص 351 — عقيدة المهدي (م. 1885) بالسودان وحركته الموجّهة ضدّ الاستعمار الغربي : تحديد علائقها بالصوفيّة والشيعة والحنبليّة الجديدة .

3 — ص 355 — عقيدة السنوسي (م. 1859) وتحليل ما نجم عنها من تراث .

4 — ص 361 — فرقة الاحمدية الهندية : عقيدة مؤسسها مرزا غلام احمد (م. 1908) بالهند في حاجة الى توضيح وعنها تفرعت القاديانية

المناصرة للاحتلال الانجليزي وتراث القاديانية العقائدي في حاجة الى احصاء، وتحليل .

5 — ص 365 — فرقة الباب وفرقة البهائية الشيعيتان : تحديد دورهما .

6 — ص 373 — الشيخ علي عبد الرّزاق وكتابه : الاسلام وأصول الحكم وما اثاره من جدال حوله .

7 — ص 375 — تاريخ جمعية الاخوان المسلمين بمصر ابتداء من 1928 .

ANNALES DE L'UNIVERSITE DE TUNIS

Directeur : Ahmed ABDESSELEM, Pro-Recteur de l'Université

Abonnements : (pour un an) :

Tunisie, Afrique du Nord, France .... **0 D, 500**

Etranger .... **0 D, 600**

Prix du numéro simple .... **0 D, 500**

C. C. P. Univeristé de Tunis — Tunis 610-11

(Spécifier : **Annales de l'Université de Tunis**)

— Les opinions émises par les auteurs n'engagent pas la responsobilité de la revue.

— La revue ne publie que les articles inédits.

— Toute la correspondance doit être adressée à :
« *Annales de l'Université de Tunis* », Université de Tunis, Boulevard du 9 Avril 1938 — Tunis.

— Diffusion : Librairie A. BOUSLAMA — 15, avenue de France - Tunis — Tél. : 240.056.

Imprimerie Officielle — Tunis